مختارات من روائع شكسبير

الجزء الأول

تلخيص

شارل وماري لام

تقديم

د. خالد محمد غازي

الكتاب: مختارات من روائع شكسبير (الجزء الأول)

الكاتب: شارل وماري لام

تقديم: د. خالد مُحَمَّد غازي

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

لام، شارل. لام، ماري
مختارات من روائع شكسبير(الجزء الأول)/ شارل وماري لام, تقديم ومراجعة: د. خالد مُحَمَّد غازي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٢٥٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولى: ٤ – ٤٨٢ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٤٥٤ / ٢٠٢٢

مختارات من روائع شكسبير

الجزء الأول

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

ويليام شكسبير.. أعظم كاتب في اللغة الإنجليزية

"قلم الكاتب مقدس مثل دم الشهيد"،

" الغيرة وحش ذو عيون خضراء"،

"إذا أحببتها فلن تستطيع أن تراها.. لماذا؟ لأن الحب أعمى.."،

" أكون أو لا أكون تلك هى المسألة"..

" ليسَ كلّ ما يلمع ذهباً "..

" أن تكون الكلّ والنهاية"..

"الشك دائماً ما يسكن العقل الآثم"..

"الذئب ما كان ليكون ذئباً لو لم تكن الخراف خرافاً"..

"البعض ترفعه الخطيئة، والبعض تسقطه الفضيلة"..

"يموت الجبناء مرات عديدة قبل أن يأتي أجلهم، أما الشجعان فيذوقون الموت مرة واحدة."..

" إنّ الحزن الصامت يهمس في القلب حتى يحطمه".

." البؤساء لا دواء لهم إلّا الأمل."..

" لا تلعب بمشاعر الآخرين لأنك قد تربح اللعبة لكن الخطر أن تخسر هذا

الشخص مدى الحياة."

عبارات قالها الكاتب الانجليزي الفذ ويليام شكسبير، ولازلنا نتذكرها حتى اليوم، فقد أثرت في نفوس القراء وتشكلت في وجدان كل من يحبون قراءة الأدب الإنجليزي.

ويصنف شكسبير كأعظم كاتب في اللغة الإنجليزية، فهو كاتب مسرحي وشاعر، أطلق عليه "شاعر الوطنية" و "شاعر آفون الملحمي".. ترجمت مسرحياته إلى معظم اللغات المعروفة، ووجدت أعماله طريقها إلى المسارح وشاشات السينما والتلفزيون مرات ومرات، وعرفت قراءات نقدية وفلسفية، بما قل أن تشهد مثله أعمال أديب آخر.

ولا يمكن مقارنة الشهرة التي اكتسبها أي كاتب آخر بشهرة شكسبير عالمياً على كافة المستويات، فقد دخل إلى جميع الثقافات والمجتمعات الأدبية والفنية والمسرحية في كل بلدان العالم.

كانت أمه ماري آردن، من أسرة عريقة في ووروكشير وابنة لأحد ملاكي الأراضي الكبار. وقدمت إلى جون شكسبير، ابن مستأجر أرض والدها، صداقاً ضخماً نقداً وأرضاً (حسب عادات تلك الحقبة)، ولم يكن وليام هو الابن البكر، بل كان له أختان أكبر منه، ولكنهما ماتتا في سن مبكرة. ثم أعقب أبوه ثلاثة أخوة له هم أدموند وجلبرت ورتشارد.

ولد وليم شكسبير في «ستراتفورد ابون أفون»، بإنجلترا، تاريخ ميلاده غير معلوم بدقة، حيث تم تعميده فى ٢٦ أبريل ١٥٦٤، لم يكن أي من الوالدين يتصور، وهو ينظر إلى الوليد في مهده الخشبي، أن ذلك الطفل مقدر له أن يقدم إلى الشعر والمسرحية في العالم مواهب خارقة، وأن المسرحيات التي قدر له أن

يكتبها ستكون لا تزال تعرض بعد أربعمائة عام من ذلك التاريخ، ليس في موطنه وحده فحسب وإنما في بقاع المعمورة.

كان الكثير من الأطفال، في ذلك الزمان، يموتون. وهذا ما حدث فعلا لأختي شكسبير الكبيرتين. لكن وليم الطفل كتبت له الحياة رغم وباء الطاعون الذي انتشر في إنجلترا في السنة التي ولد فيها. كان أبوه "جون" رجلا ناجحا ومن رجال الأعمال الأثرياء الناجحين في ستراتفورد على نهر الآفون، وكان مسئولاً عن الأمن، وعضواً في مجلس المدينة.

يتحدث وليم شكسبير في مسرحية "كما تهوى" على لسان شخصية من شخصياته عن "التلميذ ذي الوجه الصبوح، الذي يحمل محفظة كتبه ويمشي إلى مدرسته شاكياً، بطيئا كالحلزون". لعله كان في تلك الكلمات يصور نفسه أيام كان يذهب إلى مدرسة ستراتفورد، ويبدو أن وضع أسرته الرفيع كان يحتم عليه الذهاب إلى المدرسة والتزود بحصيلة جيدة من اللغات القديمة.، يقول عنه صديقه بن جونسن، وهو كاتب مسرحي مشهور أيضا، وكان من المعجبين به أشد الإعجاب: "تعلم القليل من اللاتينية وأقل من القليل من اليونانية القديمة."

كان لوليم في أيام الدراسة فرص عديدة لمشاهدة المسرحيات ومقابلة بعض الفرق التمثيلية الجوالة، وبخاصة تلك التي هربت من لندن حينما انتشر وباء الطاعون. على أنه كان في البلدة فرق مسرحية محلية، تجوب البلدات الصغيرة وكانت بلدة ستراتفورد تحتفل بأعياد خاصة فتشارك الفرق المسرحية في الاحتفال بعرض المسرحيات.

ويبدو أن هذه الطفولة التي عاشها شكسبير قد بذرت في نفسه حب المسرح. وهو الحب الذي قدر له أن تنمو موهبته نموا رائعا حين انتقل إلى لندن.

ولما بلغ شكسبير الثالثة عشرة من عمره بدأت ثروة أبيه في النضوب والتدهور حتى اضطر إلى بيع أغلب ما يمتلكه، ومن ثم توقف شكسبير عن إتمام دراسته.

لا نعرف كيف كان شكسبير يكسب معيشته في سنواته الأولى.. لعله كان يساعد أباه في تجارته أو لعله عمل بعض الوقت مدرسا. ويحتمل أنه عمل في مكتب محام مما ساعده على التقاط العديد من المصطلحات القانونية المبثوثة في مسرحياته، على أن ظروفه كائنة ما كانت لم تحل دون زواجه من ابنة مزارع وكانت تكبره بثماني سنوات اسمها "آن هاتواي"، وأقام هو وعروسه مع والديه، كما كانت العادة في ذلك الزمان، وأنجب منها ثلاثة أطفال، ابنته سوزانا، ثم توأمان: صبي أسماه هامنت، وبنت أسماها جودث.، كما يذكر المؤرخون أنه هجر عائلته بعد أعوام قليلة.

نزح وليم إلى لندن عام ١٥٩٢، وقام بحراسة الخيل أمام أبواب المسارح، فقد كانت العادة في ذلك العصر أن يقبل بعض الناس على المسارح وهم يمتطون ظهور الخيل، ويسلموها إلى المشتغلين بحراستها، كما نعهد اليوم بسياراتنا إلى "المنادي" أو " السايس ".

وأدى به الوقوف أمام المسارح إلى حب المسرح وهواية التمثيل، فهجر حراسة الخيل، وبدأ يشترك في التمثيل، وقام في بادئ الأمر بتمثيل أدوار صغيرة. وكان في ذلك الوقت يبلغ الثامنة والعشرين من عمره، فبدأ يعالج إصلاح بعض المسرحيات، ويقوم بالتمثيل ويكتب ويقتبس المسرحيات. وفي عام ١٥٩٢ أصبح عضوا معروفا في فريق اللورد تشامبرلين،حين افتتحت المسارح عام ١٥٩٤ وقد اشتغل بالتمثيل في هذه الفرقة كما كان كاتبا مسرحيا لها إلى نهاية حياته الفنية، فيقول أوبري: "لقد كان شكسبير ممثلا مجيدا بارعا".

كان في لندن، عند وصول شكسبير إليها، ثلاثة مسارح فقط، وكان الناس ينظرون إلى الممثلين تظرتهم إلى محتالين متشردين، إلا إذا كان أولئك الممثلون يعملون تحت رعاية أحد النبلاء وفي حمايته. الملكة إليزابث نفسها كانت ترعى فريقا من هؤلاء الممثلين. أما المتزمتون الدينيون فكانو يعتبرون الممثلين أشرارا وخطاة، ويعملون كل ما في وسعهم لإزعاجهم ومنعهم من التمثيل. تجار المدينة الأثرياء كانوا أيضا يحتقرونهم، ويحتجون على الفظاظة التي يبديها جمهور المشاهدين أحيانا، لذا فقد أقيمت المسارح وازدهرت جنوبي النهر، بعيدا عن المدينة، ونمت شعبيتها نموا شديدا مع جمهور العهد الإليزابيثي (ويقصد به ذلك العصر المرتبط بحكم الملكة دودي (١٥٥٨م–١٦٠٣م)، وينظر إلى هذه الفترة كأحد العصور الذهبية في تاريخ إنجلترا. كان هذا العصر هو ذروة مرحلة النهضة الإنجليزية وشهد ازدهارا كبيرا في الشعر والموسيقى والأدب. كان هذا أيضا هو العصر الذي ازدهر فيه المسرح الإليزابيثى).

وفي هذا الوقت أنشأ صداقة مع اثنين من الممثلين المشهورين، هما إدورد ألن الذي أسس كلية دالتش، وريتشارد بوربج. لقد أسس ريتشارد وأخوه كاثبرت في العام **١٥٩٩** "مسرح جلوب" جنوبي النهر، غير بعيد عن "حديقة الدباب". وأسهم شكسبير في هذا المشروع، هو وعدد من الممثلين المشهورين. وفي هذا المسرح مثلت أكثر مسرحياته.

وعندما اعتلى الملك جيمس عرش بريطانيا وضع هذه الفرقة تحت رعايته وأصبحت تسمى ب"رجال الملك"وكانت من أكثر الفرق التمثيلية التي تمثل في القصور الملكية.وظلت الفرقة تعمل في لندن من صيف عام **١٥٩٤** حتى مارس عام **١٦٠٣** وقامت برحلة طافت في خلالها بكثير من البلدان في خريف عام **١٥٩٧** حين أغلقت مسارح لندن لفترة قصيرة من الزمن بسبب تدخل بعض

الممثلين في الشئون السياسية.وفي عام ١٦٠٣ تفشى الطاعون في لندن للمرة الثانية فقامت الفرقة برحلة أخرى.

ويذكر أن شكسبير كان يكتب مسرحيتين تقريبا كل عام لهذه الفرقة، وإن كانت سرعته قد بلغت أقصاها في أيام افتتاح التمثيل.

لغز الاسم

شكسبير Shakespeare هو الاسم المتداول والمعروف لعائلة وليم، لكن المفاجأة أن هذا اللفظ وهذه التهجئة ليسا أمراً مؤكداً، فالمصادر التاريخية أوردت نحو ثمانين صيغة مختلفة لاسم شكسبير، فيها اختلاف بين بعضها نطقاً وكتابة.

المهتمون بهذا الشأن ذكروا مما تم توثيقه من صيغ اسم Shakespeare الألفاظ التالية Shappere، Shaxberd، Shakspere، Shaksper، Shaxxper، Shaxpur، Shappere، وغير ذلك الكثير.

شكسبير في لوحات الرسامين

بعض الملامح التي يبدو بها شكسبير من خلال ما رسم له من لوحات خلال حياته، أنه أصلع، لحية كثيفة، وقرط ذهبي في إحدى الأذنين! إلاّ أن الجزم بصحتها غير ممكن، لأنه من غير المعروف إلى أي حد من الدقة التزم هؤلاء الرسامون بتصوير شكل شكسبير الحقيقي، كما لا يمكن الجزم بأن شكسبير كان أصلاً قد وقف أمام هذا الرسام أو ذاك عند إنجاز لوحته. ورغم ذلك، فإن الشكل العام الذي يبدو به متوافق مع عصره، بما في ذلك الحلق الذهبي في الأذن، الذي كان من أشكال الزينة التي عرفها الرجال في ذلك العصر.

ومن الطريف أن هناك من يجادل بأن شكسبير من أصل عربي خالص، ومن القائلين بهذا الرأي نقاد وأكاديميون، يرى الناقد السورى د.كمال أبو ديب فى

كتابه "سونيتات" أو "تواشيح وليم شكسبير" أن وليم شيكسبر سورى الأصل وهو من قرية صغيرة مجاورة لبلدة "صافيتا" السورية، واسمه الحقيقى "الشيخ زبير".

واقترح " أبو ديب" أن يتم بحث حول المادة المتعلقة بمنطقة البحر المتوسط وبشكل خاص المنطقة العربية فى أعمال شكسبير، مثلاً تدور مسرحية انطونيو وكليوبترا فى مصر، ومسرحية بريكلس حول أمير فى سوريا، وتاجر البندقية فى ايطاليا، وروميو وجولييت فيها، وعطيل وهى شخصية عربية.

وأكد أبو ديب قوله بمجموعة من الدراسات حول اسم "شكسبير" حيث بين في كتابه ان اسم "شكسيبر" مؤلف من قسمين وان له أكثر من طريقة في الكتابة كالتالي:

Shackesper- Shaxpur – Shaxper – Shaxxper – Shaksper - Shak-Sper - Shax-pur

وأوضح " أي أن الاسم كان منقسماً إلى اثنين أو مركباً من اثنين ولقد ظهرت الصيغة المنقسمة أو المركبة هذه (لكن بالصيغة المألوفة للاسم) على صفحة عنوان الكوارتو حين نشر عام ١٦٠٩، كما يقول المؤلف أن رجلاً اسمه (جون شكسبر) تزوج من أسرة نبيلة فقام المشرف على ألقاب النبلاء بتغيير اسمه إلى شكسبير (وصار هذا الرجل طبعاً والد شكسبر) غير أن شكسبير نفسه الشاعر ظل يكتب اسمه بالطريقة السابقة حتى حين رحل إلى لندن ليعمل في المسرح، ثم تغيرت طريقة كتابة الاسم مع الزمن.

وتساءل:"هل كان أمرا عادياً فى إنجلترا فى القرن (١٦)، وقبل بناء الإمبراطورية، أن يملك شاعر إنجليزى كل هذا القدر من المعرفة عن هذه المناطق النائية من العالم؟! ويهتم بها كل هذا الاهتمام ويستخدمها فى شعره ومسرحه الموجهين إلى جمهور إنجليزى يعيش فى جزيرة بعيدة معزولة يغطيها الضباب، حديثة

العهد نسبياً بالخروج من أغوار القرون الوسطى؟

ويؤيد وجهة النظر السابقة د. صفاء خلوصي، حيث يرى أن وليم شكسبير ليس إنجليزيا بل إن جذوره تمتد إلى الشرق وأن والده أو جده من أهالى البصرة واسمه (الشيخ زبير)!! لأن كلمة شكسبير ليس لها معنى فى اللغة الإنجليزية ومعجماتها!! أما إذا فصلنا بين كلمة (شك ـ سبير) فسيصبح المعنى هزاز الرمح إلا إن الكلمة المدمجة (شكسبير) هى التى عرف بها لفظا وكتابة.

ويستدل باحثون نوبيون أن لفظ شكسبير إنما هو منحوت من (شيخ زبير)، حيث تم تحويره في اللغة الإنجليزية إلى شكسبـير. وأن هذا اللقب الحقيقى لعائلة شكسبير حينما كانوا بمنطقة بلاد النوبة فى مصر قبل هجرتهم إلى انجلترا.

نتاج شكسبير المسرحي

ويمكن تقسيم نتاج شكسبير المسرحي إلى ثلاثة أنواع رئيسة هي: المأساة الترجيدية والملهاة الكوميدية والمسرحيات التاريخية.. وعلى سبيل المثال:

من أعماله التراجيدية: (روميو وجولييت، ماكبث، الملك لير، هاملت، عطيل، يوليوس قيصر، أنطونيو وكليوباترا) تدور موضوع مسرحية "هاملت" حول الانتقام والقتل والجنون، ويدور مسرحية "ماكبث" أيضا حول القتل، وشبح بانكو والساحرات الشريرات المشؤومات، وفي مسرحية "عطيل" يقتل الزوج زوجته دزدمونة بصورة وحشية، وتروي مسرحية "الملك لير" قصة الجنون والموت. وفي مسرحية "روميو وجولييت" يموت المحبان موتا مأساويا، وفي مسرحية "أنطونيو وكليوباترة" تقتل البطلة نفسها. قد يبدو من ذلك كله أن تلك المسرحيات تقوم على سفك الدماء والعنف فقط. غير أن فيها، بالاضافة إلى ما تقدمه للجمهور من حب لمشاهد الدماء والعنف، شعرا رائعا وموسيقى ساحرة تمثل العصر

الإليزابيثي خير تمثيل.

ويرى نقاد مسرحيون أن النقطة الغالبة على أعماله، هى أن أشد المآسي قسوة لا تخلو من لحظات تزخر بالهزل المكشوف، حيث يصور الحياة التي تنبض في صوت مكتوم على توقيع العواطف والشهوات، والمتناقضات، بلغة تتسم أحيانا بالغرابة، وأحيانا أخرى بالعاطفة.وبالتالي أكسبت أعماله طابع المأساة التراجيدية.

وقد اعتمد في مسرحه وشعره على العواطف والأحاسيس الإنسانية، مما عزز من عالميته واستمراريته. فأبطال مسرحياته المأسوية شخصيات تتميز بالنبل والعظمة والعواطف الإنسانية، وتؤثر في الجمهور والقراء أينما كانوا ولاتزال الشخصيات الكوميدية تضحك الجمهور لما في تصويرها من ذكاء ودقة وفكاهة. وتترك شخصياته النسائية، مثل كليوباترا وجولييت والليدي ماكبث وروزالند وبورشيا وبياتريس وميراندا، أكبر الأثر عند القراء وجمهور المسرح والسينما أينما كانوا.

ومن أعماله الملهاة الكوميدية:(حلم ليلة صيف، الأمور بخواتمها، تاجر البندقية، جعجعة بلا طحن، ترويض النمرة، كوميديا الأخطاء، العاصفة، كما تهوى، الليلة الثانية عشرة)،و تذخر هذه المسرحيات بروح الكوميدية، وتحفل بالأغاني التي تعبر عن جو تلك المسرحيات، وأغاني حب، وأغان تصور الأحراش والريف. وهنا ينهل شكسبير من ذكريات طفولته التي عاشها في مناطق ساحرة. وتكمن براعته في القصص المثيرة التي يستخدمها، والمخزون الغني من الأشخاص التي يمتزج فيها الخير والشر والعاطفة والعقل، واللغة الشعرية البليغة، والبراعة في التلاعب بالكلمات والألفاظ.

ومن المسرحيات التاريخية التي قدمها:(الملك جون، ريتشارد الثاني، هنري

الرابع).وقد اعتمد في مادته التاريخية على كتاب هولنشد عن تاريخ إنجلترا، الذي نشر في العام١٥٨٧، وفيه الكثير من الحقائق التاريخية التي يحتاج إليها. فقد تمكن، بموهبته الشعرية الفائقة، من تحويل تلك المادة الجافة إلى شعر رائع يجري في مسرحياته كلها، وكأنه شريان نابض بالحياة. لقد أحس شكسبير بشعور العزة الوطنية ذاك وشرع في إرضائه بكتابة المسرحيات التاريخية. وكان أن عرفت هذه المسرحيات، في آخر المطاف، بخلفيات العصر الإليزابيثي العظيم كلها، من أيام الملك جون وحتى هنري الثامن

كما كتب عددًا من المسرحيات التي يصعب إدراجها ضمن هذه التصنيفات المألوفة، واعتاد النقاد إطلاق صفة "المسرحية الرومانسية" أو "التراجيكوميدية" عليها. ويذكر الدارسون مما لم يصل إلينا من أعمال شكسبير: إدوارد الثالث، سير توماس مور، كاردينيو، الحب مجهود رابح.

ولما لم يكن العنصر النسائي يشارك في التمثيل (المرأة لم تدخل عالم التمثيل المسرحي إلا بعد عودة الملكية مع شارل الثاني في العام ١٦٦٠)، فقد كان الفتيان يقومون بالأدوار النسائية،. وكان جمهور العصر الإليزابيثي يستمتع بمشاهد الشخصيات المتنكرة، والمفارقة النابعة من رؤية فتى يقوم بدور امرأة ثم تقتضيه أحداث المسرحية إلى التنكر في زي رجل، كما يحدث في العديد من المسرحيات الكوميدية.

يقول د. مُحَمَّد عناني والذي ترجم نحو ترجم٢٢ مسرحية من أعمال شكسبير إلي اللغة العربية: إن أكثر الملامح التي تدهشك من شكسبير هي إلمامه التام باللغة في زمن لم تكن قد ظهرت فيه المعاجم, إذ إن أول عمل معجمي للناطقين باللغة الإنجليزية قد قام به ناظر المدرسة روبرت كودري في عام١٦٠٤ ورغم نشر بعض رسائل النحو في أيام شكسبير فإن كتب النحو بالشكل الذي نراه اليوم–

لم تظهر حتي بداية القرن الثامن عشر– وبذلك يتضح أنه لم يقم أحد بدراسة لغته في عصره.

ورغم ذلك فإن قاموس أكسفورد يعترف بأنه يدين لشكسبير بنحو ٣٠٠٠ كلمة في اللغة الإنجليزية، منها١٧٠٠ كلمة دخلت اللغة لأول مرة. فعدد المفردات التي تضمنتها أعماله يصل إلى١٧ ألف كلمة. ويصف الباحثون في لغة شكسبير مقدرته الخارقة علي استخدام المفردات بالقول إنه كان قادرا علي استخدام ما يربو علي٧٠٠٠ كلمة دون الحاجة إلي تكرار أي منها.

وتبتعد اللغة الإنجليزية التي كتب بها شكسبير عن اللغة التي يتحدث بها أهلها اليوم مسافة جيل لغوي واحد. فرغم أن لهجة العصر الإليزابيثي تختلف اختلافا طفيفا عن اللغة الإنجليزية الحديثة, فإن المبادئ العامة تكاد تكون واحدة. فهناك بعض الشواذ في استخدامه حروف الجر، وعدم اتفاق الفعل مع فاعله, ناهيك عن تغير بعض معاني كلمات شكسبير, أو اختفائها مع مرور الزمن. وكان ترتيب الكلمات داخل الجملة, مع انتقال اللغة الإنجليزية من المرحلة الوسطي إلي الحديثة, أكثر مرونة مما هو عليه اليوم، كما كان شكسبير يكتب شعرا دراميا لا نثرا مما أعطاه حرية أكبر في التعبير.

هذه السهولة في استخدامه اللغة، فضلا عن الفن الذي استخدمها به, جعلت شكسبير قريبا منا اليوم كما كان قريبا من قرائه في عصره. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن شكسبير لعب دورا كبيرا في تحول اللغة الإنجليزية وانتقالها من مرحلة إلي أخري. ففي الوقت الذي كان يكتب فيه مسرحياته, لم يكن عمر اللغة الإنجليزية الحديثة قد تجاوز مائة عام. فلم تكن المعاجم قد ظهرت وكانت معظم الوثائق تكتب باللغة اللاتينية.

أصالة شكسبير

وهناك فرضيات تشكك في أصالة بعض ما كتبه شكسبير من أعمال خالدة، ويغذي أطروحات التشكيك والتساؤلات قلة المصادر والوثائق التاريخية حول سيرته، فقد نسبت بعض المسرحيات الشهيرة إلى شخصيات، استخدمت شكسبير كاسم أدبي منذ القرن الثامن عشر الميلادي. ومن بين هذه الشخصيات: الكاتب والفيلسوف فرانسيس بيكون والشاعر والكاتب المسرحي كريستوفر مارلو والكونت إدوارد دي فيري، الأديب وأحد أعضاء حاشية الملكة إليزابيث.

يقول الأديب الكبير عباس محمود العقاد في كتابه " التعريف بشكسبير ": بدأ الشك في نسبة الروايات قبل ظهور طبعتها الثانية في سنة ١٦٣٢؛ لأن حصر هذه الروايات في طبعتها الأولى قد فتح الباب لمراجعة العارفين بها، فاستدركوا ما سقط منها وما أُضِيف إليها من غيرها، على حسب علمهم بمصادرها، وربما كان منهم من عرف اسم الرواية ولم يشهد تمثيلها، فالتبس عليه الأمر بين الروايات التي ألفها شكسبير بهذا الاسم وبين الروايات التي سبقتها بأقلام المجهولين أو لمذكورين.

ومن وجهة نظر العقاد: على وجاهة الملاحظات التي توجب هذه الفروض عند نخبة من جلة النقاد، يظل أناس من حذاق القراء مترددين في تسليم هذه الشكوك يعللون الملاحظات أو المفارقات بالعلل الطبيعية التي تعرض للعبقرية في أطوار نموها بين عهد البواكير وعهد النضج والاستواء، ولا يصعب عليهم أن ينسبوا تلك المفارقات إلى قلم واحد في فترة واحدة؛ لأن العبقرية لم تسلم قط من تفاوت النتاج في العمل الواحد، ولا من الإسفاف الذي يقابل الارتفاع النادر ويلازمه في آثار العباقرة من أرفع الطبقات.

ومن أذكى هؤلاء القراء الحذاق وليام بليس **Bliss** صاحب كتاب «شكسبير الحق» أو الرد على الشراح، وهو يقول في الفصل الأول منه: إن الشراح لم يتفقوا على سطر يجوز أن يُنسَب إلى شكسبير ولا على سطر لا يجوز أن يُنسَب إليه، وإن الشاعر لا يؤلف الجيد من كلامه دون الرديء، وإن رديء الروايات المشكوك فيها أشبه برديء شكسبير منه برديء مارلو، وإن عيوب الموضوع أحيانًا تسوق الشاعر إلى عيوب لا فكاك منها ولا حيلة له فيها.

ويضيف العقاد: وصفوة آراء هذا القارئ الحاذق في كتاب زاد على ثلاثمائة صفحة أن شكسبير كتب كل قطعة تبناها، وأنه لا ينفرد بما لُوحِظ عليه من التفاوت في أدوار نموه ولا في دور واحد من حياته، بل يكاد كل مؤلف عظيم أن يخرج منه ثلاثة مؤلفين أو أربعة إذا فصلنا بين أجود ما فيه وأردأ ما فيه وبين وحي التحليق والإلهام من عمله ووحي الهبوط والتكلف المكدود."

ولاشك أن الخلاف على أصالة شكسبير أو الاتهامات الموجهة إليه وإلى نصوصة هو خلاف ليس بالجديد، إنما هو خلاف متجدد حول فروض وآراء سابقة، أنها احتوت كلاما أو نصوصا لغيره نسبها إلى نفسه أو نسبت إليه من آخرين ربما كان الغاية منها التقليل أو النيل من عبقريته الفذة، لكن ربما يكون الخطأ المنطقي – بحكم تقادم الزمن – يلقى على عاتق جامعي رواياته ومسرحياته وأشعاره، فتعرضت لبعض التنقيح أو الاضافات لمناسبة عرضها أو ترجمتها إلى لغات أخرى غير الانجليزية أو تداولها من جديد، وهذا أمر وارد منذ القدم في جمع الأعمال الأدبية والشعرية، فربما نسب بيت شعر لشاعر ليس بقائله أو قصيدة نسبت لغير شاعرها.. لكن تبقى أعمال شكسبير ككيان كلي بما فيها زلل أو خطأ يدل على عبقرية وتفرد كاتبها في الأداء والتعبير والخط الابداعي العام لمسيرته.

أيقونة الوداع

بلغ شكسبير في العام ١٦١١ أوج مجده. فقد قدم، خلال الأربع والعشرين سنة التي قضاها في لندن، نتاجا مذهلا. كتب ستا وثلاثين مسرحية، وقصيدتين قصصيتين طويلتين، ومئة وخمسين مقطوعة شعرية غنائية، وقصائد أخرى. وكان، إلى جانب ذلك كله، يمثل ويسهم في إدارة"مسرح جلوب"، ثم مسرح "بلاك فرايرز" بعد احتراق "مسرح جلوب".

واختار شكسبير، وهو في الخمسين من عمره، أن يتقاعد فقلائل أولئك الذين كانوا، في ذلك الزمان، يعيشون إلى سن الستين. كانت أعمال شكسبير الرائعة قد درت عليه مالا كثيرا، وأنعم على أسرته في العام ١٥٩٦ بشعار النبالة، غير أن المسرة لم تكتمل فقد مات في ذلك العام ابنه الوحيد هامنت.

اشترى شكسبير في العام ١٥٩٧ "نيوبليس" منزلا جديدا، وكان أفخم منازل ستراتفورد. وقد اشترى أملاكا أخرى في لندن. وكان طوال تلك السنين يتردد على ستراتفورد كلما أتيح له الوقت. وبعد أن كتب مسرحية "العاصفة" الحافلة بالشعر البديع والأغاني الساحرة، رأى أنه آن له أن يرتاح في "نيوبليس" إلى آخر أيامه. بقي شكسبير على اتصال بأصدقائه في لندن، وكانوا يزورونه في بلدته.

وقد كتب شكسبير وصيته في ٢٥ مارس عام ١٦١٦ أي قبل وفاته بقرابة شهر، وترك جانبا من ثروته لأبنته جوديت وأختها جوان وبعض التذكارات لأصدقاء له، ولكنه أوصى بضيعته كلها لأبنته سوزانا هول، وكانت هذه الضيعة تدر دخلا كبيرا في ذلك العصر.

استمر شكسبير في التأليف حتى أيامه الأخيرة، بل إنه كتب مقطعاً شعرياً

بعد أن أدرك أن منيته قد حانت، حين تدهورت صحته سريعاً بعد أن سقط متأثراً بالشرب في إحدى الليالي، فيما قيل إنه مات بعد أن عانى من «حُمّى تيفودية». وقد كان لهذه الكلمات غاية مهمة، إذ أراد شكسبير أن يحمي بها قبره من النبش والنهب، كما كان شائعاً في تلك العصور، ويبدو أن ما كتبه شكسبير ونقش على شاهد قبره قد أتى بالنتيجة المرجوة.

«مبارك هو من يحفظ لي حجارة قبري، ملعون هو من يعبث بعظامي».

توفي شكسبير يوم الثلاثاء، في الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) من عام ١٦١٦. بعد أن عاش ٥٢ عاماً، ألف فيها الكثير من الأعمال الأدبية، وصلنا منها ثمان وثلاثون مسرحية، ومئة وأربع وخمسون «سوناتا»، إضافة إلى قصيدتين روائيتين طويلتين.والسوناتات مقاطع شعرية اشتهر بها، وكتبها في مواضيع مختلفة من الحب إلى السياسة، ويستعار لها أحياناً مصطلح الموشحات.

ودفن شكسبير بعد يومين من وفاته في الكنيسة التي عرفها صغيرا. ونقش على ضريحه ما يأتي:

أيها الصديق الصالح،

لا تنبش تراب هذا الضريح!

مبارك من يحافظ على هذه الحجارة،

وملعون من يحرك عظامي!

ولم يفعل أحد ذلك!

في تلك الكنيسة أيضا نصب فريد لشكسبير، يتألف من تمثال نصفي للشاعر في محراب ذي قنطرة وأعمدة رخام. ويبدو الشاعر وكأنه يهم أن يكتب بريشته شيئا من شعره الخالد. ونقش في أسفل النصب:

تمهل أيها العابر، لم العجلة؟

اقرأ اسم من أسكنه الموت الحاسد هذا المكان.

إنه شكسبير الذي مات بموته الطبع المتألق.

في اسم شكسبير زينة لهذا الضريح لا تقدر بثمن،

لأنه في كل ما كتب جعل من الفن الأصيل له عبدا.

ولعل خير ما قيل في شكسبير بعد موته الكلمة التي قالها صديقه وزميله في كتابه المسرحيات، بن جونسن، وفيها: "لم يكن لسان عصره فحسب، بل لسان كل العصور!" يا لها من كلمة صادقة!

وتوجد مقولة شهيرة لرئيس وزراء بريطانيا ونستون تشرشل. «لو خيرونا بين التخلي عن كل مستعمراتنا، وبين مؤلفات شكسبير، لاحتفظنا بما تركه شكسبير»..

تضم الكنيسة التي تظهر في الصفحة المقابلة ضريح شكسبير. ومن المحفوظات الفريدة في تلك الكنيسة السجل الذي يضم السجلات المتعلقة بشكسبير وأسرته.ويظهر في إحدى الصور دار البلدية والمدرسة ومأوى الفقراء. وليس في السجل تاريخ دخول شكسبير المدرسة، وفي مكان ولادته ترى مقعدا من مقاعد التلاميذ يعود إلى ذلك التاريخ. والمدرسة نفسها،أسست في نهاية القرن الثالث عشر، ثم أعاد تأسيسها الملك إدورد السادس في العام ١٥٥٣.

د. خالد محمد غازي

الملك لير

كان لير ملك بريطانيا أبا لثلاث بنات، هن جونريل زوجة دوق الباني، وريجان زوجة دوق كورنوال، وكورديليا، وهي لم تزل عذراء في مقتبل العمر، تقدم لطلب يدها في وقت واحد ملك فرنسا ودوق برغنديا. وسعيا وراء هذا الهدف حضر هذان الاثنان وأقاما في بلاط الملك لير.

وكان الملك قد بلغ من العمر عتيا، فوهنت صحته وثقلت عليه أعباء الحكم، لأنه كان قد أربى على الثمانين، فقرر أن يتخفف من أعباء إدارة المملكة، ويترك شئون الحكم لمن هم أصغر منه سنا وأشد بأسا وأمضى عزما، كي يتفرغ في متسع من الوقت للاستعداد لملاقاة الموت، الذي لم يعد من المنتظر أن يتأخر كثيرا، وعلى هذه النية دعا الملك إليه بناته الثلاث، ليعلم أيهن أشد حبا له من أختيها، فراح يسألهن عن ذلك ويتلقى من شفاههن جواب سؤاله، ليوزع المملكة بينهن انصبة تتفاوت حسب تعبيرهن عن حبهن لوالدهن. وقد بدا له ذلك أقرب للعدل والعقل.

* * *

وكانت أولى المجيبات جونريل، فقالت له أنها تحب أباها حبا تعجز الكلمات عن بيانه، فهو أعز عليها من نور عينيها، وأعز من الحياة ومن الحرية.

واستطردت في جمل مزوقة من ذلك القبيل، من السهل جدا صياغتها حينما لا يكون هناك حب صادق. مع أن الموقف لا يقتضي سوى كلمات قليلة رقيقة تقال بكل هدوء وثقة.. وسر الملك كثيرا لسماع هذا التأكيد البارع لحب ابنته له

يخرج من فمها. وحسب أن ما في قلبها مطابق لما على لسانها. ففي نوبة من التعلق الأبوي أنعم عليها وعلى زوجها بثلث مملكته المترامية الأطراف.

ونادى بعد ذلك ابنته الثانية ريجان، ووجه إليها ذلك السؤال بعينه. وكانت ريجان من معدن اختها الأجوف. فلم تتخلف عن أختها بمقدار شعرة واحدة، بل أنها زادت عليها في التزويق والتنميق، واعت أن كل مسراتها لا قيمة لها، بل تحس بالموت يتسرب إلى نفسها إذا هي حرمت من حب والدها ومليكها العزيز، واغتبط لير بهذه النعمة العظمى التي أنعم بها الله عليه. ولم يسعه بعد الذي سمعه من فم ريجان سوى أن يمنحها هي وزوجها الثلث الثاني من مملكته وهو نصيب مساو في الحجم والقدر لما وهبه إلى ابنته الكبرى جونريل وزوجها، ووجد ذلك مطابقا للحق والعدل.

* * *

وبقيت بعد ذلك ابنته الصغرى كورديليا التي كان يدعوها ريحانة قلبه وقرة عينه فدعاها إليه ووجه إليها ذلك السؤال وهو أشوق ما يكون إلى سماع ردها عليه. ويتوقع أن تشنف أذنيه بعبارات تباري عبارات شقيقتيها في التغني بحبه، بل وتزيد عليهما لأنها كانت على الدوام أقربهن إليه، وكان يؤثرها ويميزها على ابنتيه الاخريين، بيد أن كورديليا كان قد استولى عليها الاشمئزاز من نفاق أختيها، خصوصا وهي تعلم علم اليقين أن ما في قلبيهما كان بعيدا كل البعد عما ورد على لسانيهما. فأدركت أن كل ما كانتا ترميان إليه من هذا الكلام المنمق هو تجريد والدهما العجوز من ممتلكاته، كي تتمتعا مع زوجيهما بأبهة الحكم وسلطته ووالدهما لم يزل على قيد الحياة.

تعففت كورديليا أن تجرى معهما في ذلك المضمار، فاكتفت بأن قالت له أنها تحب جلالته بالقدر الذي يطابق واجبها في ذلك، لا تزيد على ذلك المقدار في

حبه ولا تنقص عنه!

فأصيب الملك العجوز بصدمة من هذا الجحود الظاهري من جانب ابنته المدللة وطفلته المفضلة، فراجعها وطلب إليها أن تزن كلماتها، وتصحح من مقالها، حتى لا يحيق بها من ذلك ضرر يصيب مستقبلها، وعندئذ قالت كورديليا لأبيها أنه رباها أحسن تربية، ومنحها حبه على أحسن وجه، فهي لهذا ترد عليه تلك الواجبات على أحسن وجه مناسب، وتطيعه وتحبه وتجله أعظم الاجلال. ولكنها لا تستطيع أن تروض فمها على التلفظ بهذه الكلمات الضخمة والعبارات الفخمة كما فعلت شقيقتاها، ولا تستطيع أن تعده كما وعدتاه أن تحبه ولا تحب شيئا سواه في هذه الدنيا. ثم أخذت تناقش تلك الدعوى:

إن كانتا صادقتين، وليس في قلبيهما ذرة من الحب إلا لأبيهما، فكيف تعيشان مع زوجيهما؟ ولماذا تبقيان مع زوجين لا يربط الحب قلبيهما؟ إن الزواج بغير حب خيانة لمعنى الزواج وخيانة لمعنى الحب! إنني يا مولاي ان قدر لي أن أتزوج يوما، فأنا أعلم مقدما أن ذلك الزوج الذي ستمنحه يدي سيكون له الحق أن ينتظر من قلبي نصف ما يستطيعه من الحب. ونصف ما أستطيعه من العناية والاهتمام والواجب. ولهذا يا مولاي لا أستطيع أن أعدك بكل حبي وكل عنايتي وكل واجبي. لأني لا أستطيع أن أتزوج كزواجهما إن كانتا صادقتين، زواجا خاليا من الحب والعناية والواجب، لأن ذلك كله كما تدعيان وقف عليك وحدك.

والحقيقة أن كورديليا كانت تحب أباها كل الحب. وكان من الممكن أن تريح قلبه وتدخل السرور عليه وهي صادقة كل الصدق بأن تقول له مثل الذي قالته اختاها متظاهرتين منافقتين. كان في وسعها أن تقول له ذلك في أي وقت آخر، بعبارة أرق وأندى على قلب الشيخ. ومن غير هذه التحديدات التي تبدو في الواقع غير مستحبة، وأقرب إلى الضن والمنع منها إلى الانعطاف والتعلق. لولا أنها

انفت بعد الذي قالته شقيقتاها أن تباريهما، فاختارت لنفسها ما تراءى لها أليق بالكرامة والصدق، وهو أن تحبه في صمت، وأن يكون ما في فعلها وما في قلبها أشد بيانا وأفصح لسانا مما يخرج من شفتيها، كي تترفع بحبها لأبيها عن الغايات النفعية، ولتبين أنها تحبه للحب لا للكسب. وأن كلامها على جفافه وقلة ما فيه من الحرارة، أشد عمرانا وأحفل بالاخلاص والصدق من حديث أختيها المزيف.

* * *

واعتبر الملك لير هذا الكلام الواضح الخالي من التزويق كبرياء من ابنته، فغضب غضبا شديدا. وكان هذا الملك معروفا أن نوبات من الكآبة وحدة الطبع تعتريه وهو في أحسن حالاته، وخيمت سحب الفظاظة والاندفاع على عقله من أثر تقدم السن، حتى التبس عليه الأمر وصار لا يفرق بين الزائف والصادق ولا بين الحقيقة والنفاق، ولا يستطيع أن يفرق بين الحديث المموه بالألفاظ الجوفاء والحديث الذي يخرج من القلب.

لا عجب أن ثورة الغضب التي استولت عليه دفعته إلى ارتكاب حماقة كبيرة، فضن على ابنته الصغرى بثلث مملكته الذي كان قد أبقاه لها، ووزعه بالتساوي بين أختيها وزوجيهما دوق ألباني ودوق كورنوال. واستدعى هذين الزوجين إلى مجلسه بمحضر من جميع وجهاء مملكته ورجال بلاطه، فمنحهما التاج قسمة متساوية بينهما، وخلع عليهما بالتضامن جميع السلطات والايرادات وفروع الحكم، غير محتفظ لنفسه إلا بلقب الملك. أما ما عدا الاسم من شارات الملك وبأسه ونفوذه فقد تنازل عنه، غير مشترط لنفسه إلا شرطا واحدا، أن تستضيفه كل واحدة من بنتيه في قصرها شهرا كاملا مع مائة من الفرسان أعضاء حاشيته، وذلك بالتناوب فيما بينهما، بحيث يقضي ستة أشهر من العام عند ريجان وستة أشهر أخرى عند جونريل، مقسطة على السنة.

ووقع هذا القرار من رجال الحاشية جميعا موقع الدهشة والأسف، لأن الملك وزع به مملكته وسلطته توزيعا أملته ثورة الانفعال لا سداد الرأي وروية الحكمة. ولكن لم يرزق واحد من هؤلاء جميعا الشجاعة كي يحول بين هذا الملك الخرف وبين الجموح في ذلك الطريق الجائر، اللهم إلا ايرل كنت.

وما إن شرع ايرل كنت يثني ببعض ما عنده من شهادة الصدق على كورديليا، حتى هاج الملك الشيخ وأمره أن يكف عن ذلك وإلا أمر باعدامه. فلم تطاوع ايرل كنت نخوته وإخلاصه العميق لمولاه الملك أن يسكت. وقال له:

– إني يا مولاي أضع حبي لك وواجبي في اخلاص النصح واسدائه إليك في مكان أرفع عندي من الحرص على الحياة، وأن حياتي شئ لا أتأخر عن المجازفة به لدفع أعدائك عنك. وإني إذ أتكلم اليوم بما أراه إنما أدفع عنك عدوا لا يقل عن ضراوة جيش مهاجم. فلا ينبغي أن أضن بحياتي أو أحرص عليها في مثل هذا المجال، فإن سلامتك يا مولاي مهددة إذا نفذ هذا الذي ذكرته الآن. فكأنك قد جعلت من الملك لير أكبر عدو للملك لير، فإذا انبريت لمعارضة الملك لير، فدفاعا عن صالح الملك لير الذي يخشى عليه من أفدح الأضرار بذلك التصرف المجانب للعدل وصلاح الأمور. وقد عهدتني يا مولاي في أزمان مضت أشد الناصحين إخلاصا، وأمضي الاتباع ولاء. فثق أنني أصدر اليوم عن هذا القلب المخلص لشخصك ولعرشك. وإني مستعد أن أراهن بحياتي على أن أصغر بناتك ليست أقلهن حبا لك. وأن احلوادث جديرة أن تثبت ما في دعوى الآخريين العريضة من خواء أجوف، هذا هو ما اقتضاه واجبي يا مولاي أن أنفضه بين يديك لتكون على بينة من قرارك.

ولكن هذا القول الجرئ من الايرل الشجاع المخلص لم يزد غضب الملك إلا اضطراما. فأصبح كالمريض المجنون الذي يفتك بطبيبه البارع، ويؤثر بحبه داءه القاتل.

أمر الملك لير بنفي هذا التابع المخلص، ولم يترك له من المهلة سوى خمسة أيام يتم فيها استعداده لمغادرة البلاد إلى غير رجعة.

– وإذا وجد شخصك البغيض في اليوم السادس مقيما في حدود بريطانيا، فإن تلك اللحظة التي يعثر فيها عليك ستكون هي لحظة منيتك!

وودع كنت ملكه قائلا:

– أما وقد كاشفتك بما في نفسي، فكان له عند جلالتك ذلك الأثر، واخترت أن تسترسل في خطتك الضارة بدينك ودنياك، فإني أرى النفي خيرا من المكث بهذا البلاط وقد أصبح على هذه الصورة!

ثم رفع ايرل كنت يديه إلى السماء وطلب من الآلهة أن تبسط حمايتها على النبيلة الطاهرة كورديليا، التي يكن قلبها أعظم كنوز الاخلاص، ويترفع لسانها عن أن يجعل عواطفها سلعة وتجارة!

ولم يفته أن يطلب من السماء كذلك أن تساعد شقيقتيها على أن تبلغا من مراتب الحب مثل الذي اندفع بهما لسانهما في بيانه والإطناب به، وأعلن بعد ذلك أنه ماض من توه ليتخذ لنفسه مقاما جديدا، بعد أن تقدمت به ألسن، في أرض جديدة.

* * *

دعى بعد ذلك ملك فرنسا دوق برغانديا ليسمعا قرار الملك لير بخصوص ابنته الصغرى التي يتنافسان في طلب يدها، وليعرف منهما هل يبقيان على حبهما ويثبتان في خطبتهما لكورديليا؟ بعد أن اتضح أنها لم تعد متمتعة برضاء والدها، وأن سخطه عليها جر الخراب على رأسها، فلم تعد لها بائنة زواج تزكيها في معرض الخطبة سوى شخصها، وأعلن دوق برغانديا انسحابه من الخطبة، وأنه

لا يمكن أن يتخذها زوجة وشخصها هو كل ما تملكه من مرجحات.

أما ملك فرنسا فقد فطن إلى الحقيقة، وأن الغلطة التي اقترفتها ففقدت حب أبيها لم تكن إلا قصورا في اللسان، وعجزا عن حمل فمها على النفاق والملق مثل أختيها.

وتقدم ملك فرنسا فتناول يد هذه الفتاة الشابة قائلا:

إن فضائلها مهر كاف يربو كثيرا على قيمة مملكة كاملة. فودعى أيتها العزيزة كورديليا أختيك، ووالدك أجمل وداع، فمهما يكن ما أظهره نحوك من قسوة، فإنه والدك على كل حال. وبعد ذلك ستأتين معي وتكونين ملكتي وملكة فرنسا الجميلة، وسيكون لك سلطان وأمر على ممتلكات أجمل بكثير مما لأختيك

ثم التفت إلى دوق برغانديا وقال له بازدراء:

– إنك مائي أيها الدوق!

– وأي شبه بيني وبين الماء؟

– بمجرد أن تغيرت الأحوال، سرعان ما رحت تجري مثلما يجري الماء في المنحدر، لأن الماء يصعب عليه أن يرتفع عن المنخفضات.

وبعين باكية استأذنت كورديليا من أختيها، وهي توصيهما أن تحبا والدهن أعظم ما تستطيعان من الحب، وأن تكونا عند وعودهما وبيانهما اللفظي، فكان جوابهما عليها جواب غضب واستعلاء:

– لم نكن يوما في حاجة إلى دروس منك في محبة أبينا. فنحن نعرف واجبنا تمام المعرفة. واقصرى همك أنت على إرضاء زوجك الذي أخذك على سبيل الصدقة!

وهكذا رحلت كورديليا بقلب يثقله الهم والقلق على أبيها. لأنها كانت تعرف ما يضمره قلب أختيها من الخبث والخسة والمكر. وكانت تتمنى أن تترك والدها في أيد أشد رعاية له من أيديهما، وفي كنف أوفر حنانا وترفقا بشيخوخته من كنفهما.

وما إن أقلعت كورديليا إلى مملكتها الجديدة مع زوجها الجليل ملك فرنسا، حتى بدأت نوايا الاختين الحقيقية تكشف النقاب عن نفسها من غير مداراة.

كان قرار التنازل عن السلطة الملكية للبنتين وزوجيهما يتضمن قضاء شهر على التوالي عند كل واحدة منهما. وقبل انقضاء أول شهر عند كبري البنتين جونريل، كان الملك العجوز قد بدأ يحس الفرق الكبير بين الأقوال والأفعال، وبين الوعود والحقائق.

إن هذه المنكودة بعد أن حصلت من أبيها على كل ما يمكن أن يتنازل عنه، فحتى ذلك التاج الذي كان يزين رأسه خلعه على صهريه، راحت تنقم عليه تلك المظاهر القليلة التي احتفظ بها هذا الشيخ لنفسه، كي يرضي خياله بأنه لم يزل ملكا

صارت جونريل لا تحتمل أن ترى والدها وفرسانه المائة. وكلما التقت بهذا الوالد ارتسم على وجهها القطوب والامتعاض. وكلما أراد هذا الوالد العجوز أن يتحدث معها، تصنعت المرض، أو أي عذر آخر، كي تتخلص من منظره. فصار من الواضح أنها تضيق ذرعا بمطالب شيخوخته، وترى حاشيته الكبيرة عبئا باهظا لا لزوم له.

وتمادت في ذلك السلوك العدائي، فأوعزت خلسة إلى خدمها واتباعها أن يقتدوا بها في معاملة هذا الملك بغير مبالاة، ومقابلة أوامره ورغباته بالأعراض والإهمال، وبما هو شر من العصيان الصريح، ألا وهو تصنع الصمم!

ولم يستطع الملك لير إلا أن يفطن إلى هذا التغير الواضح في سلوك ابنته. بيد أنه أغمض عينيه على ذلك القذى ما استطاع. ذلك لأن الناس لا يميلون بطبعهم إلى الاعتراف بسهولة بما كان لأخطائهم وعنادهم من نتائج وبيلة عليهم.

* * *

إن الحب والوفاء لا يمكن أن يحيدا عن استقامتهما بسبب سوء المعاملة. كما أن الغش وزيغ القلب والنفاق لا يمكن إصلاح اعوجاجها بحسن المعاملة، وقد ظهر صدق هذه القاعدة على أتمه في سلوك ايرل كنت الذي لم يأبه لقرار النفي الذي أصدره ضده الملك لير، ولا لعقوبة الإعدام التي تنفذ فيه فورا إذا وجد في أرض بريطانية بعد الأجل المضروب، فبقي متحديا جميع العواقب، على أمل أن يجد فرصة لخدمة مولاه الملك.

وبلغ وفاء ذلك الايرل الطيب به أن فرض على نفسه أقسى أنواع التنكر ورضي أن يعيش في أحط درجات الفاقة والشظف. فتخفى في ملابس الخدم، متخليا عن كل عظمته وفخامة مظهره جانبا. ثم تقدم في ذلك الزي يعرض خدماته على الملك، الذي لم يعرف فيه تابعه القديم ايرل كنت. وأعجب الملك من تلك الجلافة التي تصنعها الايرل في لهجته، فإن الملك كان قد بدأ يسأم العبارات الزئبقية الخادعة التي جربها وجرب نتائجها المخيبة للآمال في كبرى بناته. وسرعان ما تم الاتفاق، والتحق ايرل كنت تحت اسم كايوس بخدمة الملك على أنه رجل فلاح من عامة السوقة.

وتمكن كايوس أن يجد بأسرع وقت الوسائل التي يظهر بها إخلاصه وحبه لسيده الملك. فإن ناظر خاصة جونريل أظهر في ذلك اليوم نفسه الكثير من سوء الأدب مع الملك، وكان ينظر إليه نظرات إزدراء ويخاطبه بلهجة خالية من الاحترام، بايعاز من مولاته ولا شك. فلم يطق كايوس أن يسمع ويرى تلك

الإهانات الساخرة توجه إلى مقام الملك. فلم يضيع وقتا وضرب ذلك الناظر ضربا موجعا. فكان لهذه الخدمة صداها الجميل لدى الملك لير وازداد تعلقه بالخادم كايوس.

ولم يكن ايرل كنت هو الصديق الوحيد للملك لير. بل كان هناك صديق آخر يحبه كل الحب وأخلصه على بعد المسافة بين مكانة الملك السامية ومكانة المهرج أو المضحك. فقد كان من عادة الملوك في ذلك الزمان أن يكون عند كل منهم في بلاطة مهرج يغلب عليه أن يكون مسخا يجترئ على الملك ويرفه عنه من عناء تصريف الأمور الجسام. ولما تخلى الملك لير عن تاجه بقي معه مهرجه، وظل يملأ جوانب حياته بالسرور. وإن لم يجرؤ على السخرية من أعمال مولاه. إلا أنه كان يتهكم في بعض الأحيان على تسرع الملك في خلع نفسه من السلطة وإعطاء كل شئ لبنتيه. وصنع في ذلك الغرض ارجوزة فكاهية يتغنى بها أمام الملك وهو يرن جلاجل طرطوره.

وكان المهرجون دائما يتمتعون بنوع من الحصانة باعتبارهم مخلوقات تافهة مضحكة. وكان مهرج لير يستغل تلك الحصانة في التصريح بآرائه هذه على مسمع من جونريل نفسها. وكان يغمزها غمزات حادة بأغانيه ونكاته. ولا يتورع أن يشبه الملك بالقبرة الصغيرة التي راحت تطعم أفراخ الصقر إلى أن كبرت تلك الأفراخ واستوت صقورا، فجزت القبرة باطاحة رأسها جزاء وفاقا على ما أسدت لها من صنيع.

وفي بعض الأحيان كان يدعو بنت الملك أن تتقدمه، فإن الحصان هو الذي يجر العربة، فلا يمكن أن تأتي العربة قبل الحصان! وإن لير لم يعد لير، وإنما هو شبحه وظله! وكم هدده الملك أن يجلده إن عاد إلى مثل هذه العبارات الجريئة.

واجتزات جونريل أخيرا فجابهت أباها صراحة بأنها لا ترى الحكمة في

احتفاظه بكل هذا العدد من الحاشية وهو مائة فارس، فتلك الحاشية كثيرة النفقات جدا، وتزحم القصر، وتثير الكثير من الشغب والصخب بأعمال القصف والمآدب. فإن كان حريصا على الإقامة في قصرها فعليه أن يخفض عدد هذه الحاشية، وأن يستغني عن جميع الشبان منهم، ولا يبقى حوله إلا كبار السن الذين تتناسب أعمارهم وطباعهم مع سنه.

وذهل لير، فلبث للوهلة الأولى لا يصدق عينيه أو أذنيه، ولا يتصور أن ابنته هي التي تخاطبه بهذه الطريقة. وأنها هي التي تلقت من يده التاج بالأمس القريب، وتحاول اليوم أن تخفض حاشيته، وتنقم عليه الاحترام الواجب لسنه والواجب لمقامه، ولكن جونريل كررت القول بما لم يدع لدى الملك لير شيكا في حقيقة طلبها الجاحد وسلوكها الدنئ. فثار غضب الشيخ ثورانا شديدا، حتى راح يسبها ويدعوها بالقطة البغيضة، وأنها غشاشة مخادعة، ومتجنية متقولة.

والحقيقة أنها كانت متجنية فعلا، لأن المائة فارس كانوا كلهم نخبة مختارة على أعظم حظ من الوقار وأدب السلوك، ولا يميلون إلى الشغب أو الصخب أو القصف كما زعمت.

وأمر الملك في الحال أن تسرج الجياد، لأنه نوى الانتقال للإقامة لدى ابنته الأخرى ريجان، هو وفرسانه المائة. وراح يتحدث عن جحود النعمة، وكيف أنه شيطان حجري القلب، إذا استولى على قلب طفل جعله أبشع من الوحوش الكاسرة والتنانين المفترسة. ثم لعن ابنته الكبرى جونريل أفظع لعنة يمكن أن تصدر من قلب والد. دعا عليها ألا تثمر أحشاؤها طفلا أبدا، ولا يرضع صدرها نسلا من دمها. وأن رزقت نسلا، فليطل عمرها إلى أن تراه ينقلب عليها فيذيقها الغصص والويلات ويحقرها كما اجترأت هي على تحقيره، كي تذوق مرارة جحود الأبناء وتشعر إلى أي حد هذا العقوق أمضي من أنياب الأفاعي.

وتقدم دوق الباني زوج جونريل وشرع يعتذر للملك عما يمكن أن يظنه شارك فيه من ذلك العقوق. بيد أن لير رفض أن يصغى لما يقول، وصاح يستعجل أعداد الخيل، ثم انطلق مع أتباعه إلى منطقة ريجان ابنته الأخرى زوجة دوق كورنوال.

ولم يستطع الملك لير وهو في الطريق أن يمنع نفسه من التفكير في ابنته الصغرى كورديليا. وأن يرى ذنبها – إن كان لها ذنب – لا يكاد يذكر بالقياس إلى جريمة أختها الكبرى جونريل. فلما فكر في ذلك انهمرت من عينيه الدموع. فغاظه من نفسه أن يبكي. وأن تكون مخلوقة مثل جونريل لها السلطان على رجولته والقدرة على أن تبكيه.

* * *

وكانت ريجان وزوجها يعيشان في بلاطهما معيشة باذخة كما يليق بأبهة الملك العريض في قصرهما. وأرسل الملك لير خادمه الجديد كايوس (الذي هو في الواقع ايرل كنت متنكرا) ليبلغ ابنته برسالة منه كي تستعد لاستقباله، لأنه قادم إليها.

ولكن جونريل كانت أسبق من أبيها، فوصلت رسائلها قبل ذلك إلى أختها ريجان، تتهمه فيها باعتلال المزاج وسوء الطبع. وأنها لاقت الأمرين من حاشيته الضخمة المعربدة. وتنصحها ألا تستقبل الحاشية الضخمة التي يصحبها معه.

وتشاء المصادفات أن يصل رسول جونريل في وقت واحد مع كايوس. وأن يلتقيا. وأن يكون رسول جونريل هو عدو كايوس القديم، ناظر قصرها. الذي سبق لكايوس أن ضربه " علقة مليحة " لسوء أدبه في مخاطبة مولاه.

واستراب كايوس من منظر ناظر القصر. وساورته الشكوك من مهمته في هذا الوقت لدى ريجان، فأخذ يتحرش به، ثم تحداه أن يقاتله. فرفض ناظر القصر

التحدي. فاغتاظ كايوس منه وثار غضبه عليه فضربه ضربا موجعا حتى شفي غله منه،فبلغت أخبار هذا الاعتداء إلى مسامع ريجان وزوجها، فأمرا أن يودع كايوس السجن، مع أنه موفد من قبل أبيها الملك، ويستحق بهذه الصفة كل رعاية وأعظم احترام.

وعلى هذا كان أول شئ شاهده الملك عندما دخل القلعة هو خادمه الأمين كايوس مكبلا بالأغلال على تلك الصورة المهينة. فكان ذلك فاتحة سوء، وفألا تطير منه وينم على نوع الاستقبال الذي ينتظره. ولكن لم يخطر بباله أن يصل الأمر إلى ما حدث فعلا. فإنه لم ير لابنته وزوجها أثرا، فلما سأل عنهما، قال له الخدم والاتباع أنهما متعبان من الركوب في اليوم السابق، لهذا اعتكفا ولا يستطيعان مقابلته!

وبطبيعة الحال غضب الملك غضبا شديدا وأصر على أن يراهما فورا، فلما نزلا لاستقباله، فوجئ بأن وجد معهما الملعونة جونريل، وقد حضرت بنفسها لتقص روايتها على هواها، وتثير قلب شقيقتها ضد والدها الملك!

وتأذى الشيخ من هذا المنظر كثيرا، ولاسيما حين رأى ريجان ممسكة بيدها في تضامن واعزاز، فسأل جونريل:

– ألا تشعرين بالخزي وأنت تتطلعين إلى لحيتي البيضاء؟

فإذا ريجان تنصح له أن يعود مع أختها جونريل، ليعيش معها في سلام ووئام، وأن يسرح نصف حاشيته، ثم يسألها الصفح والغفران!

– فإنك يا أبي تقدمت بك السن، وتحتاج إلى مزيد من التواري والاحتشام، ولابد أن تنقاد لمن هم أقدر منك على تصريف الأمور ومعرفة ما يليق بسنك وظروفك!

فهاج لير، وأفصح بأجلى عبارة عن اشمئزازه من ذلك الوضع. وأنه لا يمكن أن يتصور نفسه راكعا على ركبتيه يستجدي من ابنته الطعام والمأوى. فإن ذلك خضوع غير طبيعي. فهو لهذا عزم على عدم العودة معها. بل سيبقى حيث هو مع ريجان، وكذلك المائة فارس أعضاء حاشيته.

– لأني لا أظنك نسيت يا ابنتي نصف مملكتي الذي أغدقته عليك. وإني أرى عينيك يا ريجان ليست فيهما قسوة عيني جونريل، فعيناك وديعتان رقيقتان. وانه لأفضل عندي ألف مرة بدلا من العودة إلى جونريل – وقد اقتطعت نصف حاشيتي – أن أعبر البحر إلى فرنسا، واستجدي معاشا حقيرا من ملك تلك البلاد، التي شاءت شهامته أن يتزوج ابنتي الصغرى من غير مهر على الإطلاق، ومن غير أن يتلقى أي نصيب من مملكتي الواسعة التي قسمتها بينكما مناصفة!

ولكن لير المسكين كان مخطئا حينما توقع من ريجان معاملة أرق مما لقيه من أختها جونريل. وكأنما كانت تأبى الا أن تتفوق على أختها في إظهار العقوق، فأعلنت أنها ليست من التساهل بحيث ترتضي له حاشية من خمسين فارسا كما ارتضت أختها. بل هي ترى أن خمسة وعشرين عدد كاف كل الكفاية لعجوز في مثل سنه.

وبمرارة شديدة التفت لير إلى ابنته جونريل وقال لها:

– سأعود إذن معك. فإن الواقع الملموس شئ لا يمكن المكابرة فيه. والخمسون ضعف الخمسة والعشرين. ومعنى هذا أن حبك لي ضعف حب ريجان!

وعندئذ سنحت الفرصة لجونريل أن تكشف عن أوراقها كلها، فهزت كتفيها وقالت:

– لست أدري حاجة مثلك إلى خمسة وعشرين، أو حتى إلى عشرة أو خمسة؟ ما دام من المستطاع أن يقوم على أداء حاجتك المحدودة في سنك هذه خدمي حين تكون عندي. وخدم أختي حين تكون عندها!

وهكذا تبارت هاتان البنتان في إظهار القسوة على والدهما الشيخ الذي كان في طيبته معهما مثلا نادرا للآباء. وأصرتا على حرمانه من الحاشية كلها، أي من شعائر الاحترام الأخيرة التي كان يحتفظ بها للأشعار بأنه كان يوما ما ملكا على مملكة مترامية!

وليس لب الأمر أن الحاشية الضخمة ضرورية لسعادة الإنسان. ولكن التحول من مقام الملك ومظهره إلى مظهر المتسولين ومن يعيشون عالة وكلا، تغير قاس على النفس. وأقسى منه قطعا أن الذي كان يأمر وينهي الملايين يمسي وليس له تابع واحد يأمره وينهاه!

وأشد ما في الأمر إيلاما لنفسه هو عقوق ابنتيه في الضن عليه بتلك الحاشية وليس افتقاره الحقيقي إليها. هذا العقوق هو الذي حز في قلبه، فرأى نفسه العوبة بين قاسيتين لئيمتين، واشتد خزيه من حماقته حين فرط في تاجه وترك نفسه تحت رحمة الهوان من أيديهما، فتزعزع عقله. وفي ثورة هذا الألم أقسم أن ينتقم من هاتين العاقتين، وأن يجعل منهما أمثولة ترتعد لها فرائص الأرض كلها.

* * *

وبينما هو يطلق هذا الوعيد الذي لا تستطيع ذراعه الواهنة أن تضعه موضع التنفيذ، حل الليل، وقامت معه زوبعة صاخبة من الرعد والرق والمطر، ولما وجد ابنتيه مصرتين على قرارهما بتسريح اتباعه جميعا، دعا بخيله وقرر أن يواجه أشد ويلات العاصفة في الخارج، فهي أحب إليه من البقاء تحت سقف واحد مع هاتين البنتين الناكرتين للجميل. فكان جماهما:

إن الأضرار التي ينزلونها بأنفسهم أو يجلبونها على أنفسهم رجال يسيرون إلى المهالك بأقدامهم، إنما هي في الحقيقة عقاب عادل لهم!

وتركتاه يخرج على هذه الصورة في العاصفة، ثم أغلقتا وراءه الأبواب، غير مكترثتين بما يصيبه.

وكانت الرياح هوجاء شديدة، وقد ازداد هياج العاصفة وغزارة المطر، عندما قرر الشيخ المسن أن يتحدى عناصر الطبيعة، لأنها الين مسا من عقوق ابنتيه.

ولم تكن هناك شجيرة واحدة على مسافة أميال كثيرة. فراح الملك لير يتجول في العراء مكشوفا للمطر والرياح في تلك الليلة المعتمة، متحديا الرعد والصواعق، متوسلا إلى الأعاصير أن تجرف الأرض إلى أعماق البحر، أو تقود أمواج البحر إلى أن تغرق بطوفانها الأرض، حتى لا تبقى باقية من ذلك الحيوان الجحود المسمى الإنسان.

وفي تجواله هذا وجد الملك العجوز نفسه وحيدا، لا رفيق له إلا مهرجه المسكين الذي تبعه كظله، مصرا على تبديد أمواج الكآبة وسوء الطالع بسخرياته ونكاته. وعن كثب منهما كان يسير الخادم الأمين كايوس كلما ضل منه مولاه في الظلام ناداه وبحث عنه. والملك لا يعرف حتى الآن أنه تابعه القديم ايرل كنت. وهذا هو كايوس يقول لمولاه:

إنها ليلة يا مولاي لا تحبها المخلوقات التي تعشق الليل. إن العاصفة المروعة الزمت الوحوش جحورها. وطبيعة الإنسان لا يمكن أن تساعده على احتمال هذا الخوف وهذه القوارع، فجعل الملك لير يقرعه ويقول له أن هذه المتاعب والأضرار لا يمكن أن يحس بها من ألمت به أوجاع أقسى منها وأدهى، فعندما يكون البال مستريحا يا كايوس، يجد الجسم متسعا من الفرصة كي يترفه. ولكن

العاصفة التي في رأسي قد سلبت كل شعور من حواسي وجوارح بدني، اللهم إلا ما أشعر به يضرب جوانب قلبي. وذلك هو عقوق الأبناء. إنه فظيع يا كايوس. لكأني بأسنان الفم تعمل بالتمزيق في يد الجسم نفسه وهي تمتد إلى ذلك الفم بالطعام! فم إنسان يمزق لحم يده. فالوالدان هما اليدان والطعام وكل شئ للأبناء.

ولكن كايوس استمر يلح على الملك ألا يبقى في هدير العاصفة على ذلك النحو الذي يعرضه للهلاك. وأخيرا أفلح في اقناعه أن يدخل وجارا مما تأوى إليه الحيوانات.

وكان المهرج أول من دخل ذلك الكوخ الحقير، ثم خرج صارخا وهو يؤكد أنه رأى بداخله روحا من الجن!

وبالفحص عن الحقيقة تبين أن ذلك الروح من الجن لم يكن سوى متسول أفاق فاجأته العاصفة فلاذ بهذا العش يلتمس فيه المأوى. وهذا المتسول درويش مجذوب يتراوح تفكيره وكلامه بين العقل والجنون. أو لعله يتصنع الجنون ليستدر الشفقة ويستخرج الصدقة من أهل الريف السذج. وأمثال هؤلاء يمرون دواما بالقرى يغرسون في أيديهم المسامير والدبابيس إلى أن تسيل الدماء، وهم يبتهلون بصلوات ودعوات غريبة، فيسرع الفلاحون إلى إعطائهم أي شئ يقع تحت يدهم ليبعدوا لعنتهم عنهم.

ولما رأى الملك هذا المتسول الدرويش بثيابه المهلهلة التي لا تكاد تستر جسده العاري. لم يخطر بباله سوى أن هذا المسكين كان يوما ميسور الحال، ثم ساقه سوء رأيه أو سوء طالعه، فتنازل عن ثروته لبناته معتمدا على حبهن ووفائهن، فطردنه شر طردة!

ورفض الملك المسكين أن يتصور أن بؤس الرجل يمكن أن يكون له أي

سبب آخر. فإن عقوق ابنتيه سلب عقله الاتزان، فبات لا يرى في الدنيا سببا ممكنا للمصائب إلا عقوق البنات!

ومن هذا القول وكثير غيره مما يجري مجراه، أيقن كايوس أن الملك أصابته لوثة، وأن قسوة ابنتيه أفضت به إلى الجنون، وفي هذا الظرف تجلى إخلاص ايرل كنت على أتمه. إذ سنحت له الفرصة أن يؤدي لمولاه خدمة أجل بكثير من كل ما أداه في سالف الزمن، فقبيل الفجر، وبعد أن هدأت العاصفة قليلا، تولى ايرل كنت نقل الملك المجنون، مستعينا بالبقية الباقية من الحاشية، إلى قلعة دوفر التي هي المقر الرئيسي لنفوذ آل كنت.

وفي قلعة دوفر ترك الملك بعد أن أوصى به أتباعه وأهله، ثم ركب البحر وعبر المانش إلى فرنسا، حيث توجه إلى بلاط كورديليا، فأفضى إليها بالحالة التي وصل إليها أبوها، بعبارات مؤثرة تلين الجماد، ووصف لها وحشية شقيقتيها وصفا صادقا حيا، حتى انهمرت الدموع من عيني الملكة الطيبة القلب، وتوسلت إلى زوجها الملك أن يأذن لها فتعبر البحر إلى انجلترا على رأس قوة كافية من الجند لتأديب هاتين البنتين العاقتين وزوجيهما، فتعيد إلى والدها الملك الشيخ عرشه الذي تنازل عنه بغفلته.

ولم يسع ملك فرنسا أمام دموع زوجته سوى أن يجيبها إلى طلبها، وسرعان ما نودي في الجيش وسفن الأسطول فاحتشدت، ونزلت كورديليا على رأس حملة قوية على شأطئ دوفر.

وفي أثناء غياب ايرل كنت في فرنسا، استطاع الملك المجنون أن يغافل حراسه بما في المجانين من قدرة خارقة على المراوغة، وهام على وجهه في البراري والحقول

وتشاء المصادفة أن تعثر حاشية كورديليا بهذا الشيخ المسكين هائما في

المزارع قرب دوفر في حالة يرثى لها، وقد وضع على رأسه تاجا صنعه بيده من القش والأعشاب البرية التي جمعها من حقول القمح!

وكانت كورديليا بطبيعة الحال أشوق ما يكون إلى لقاء هذا الأب، ولاسيما في هذه الحالة. بيد أن الأطباء نصحوا لها ألا تقابله، لأن المقابلة ستحدث له هزة عاطفية عنيفة. ستكون لها أوخم العواقب وهو في هذه الحالة المضنية. فالخير كل الخير أن تؤجل ذلك اللقاء إلى أن تفعل الأعشاب الطبية التي سقوه اياها مفعولها الطيب فينام نوما عميقا، ويستيقظ وقد أصبح أكثر اتزانا وأقرب إلى العقل.

ولم تقصر كورديليا في بذل أسخى الوعود لهؤلاء الأطباء المهرة أن نجحوا في شفاء الملك المسكين. وبفضل جهود هؤلاء الأطباء وصل لير بسرعة إلى حالة يمكنه معها أن يرى ابنته.

* * *

وأنه لمنظر بالغ الأثر في النفس أن نرى ذلك اللقاء بين هذا الأب وتلك البنت. وأن نشهد الصراع الهائل في وجه هذا الرجل الشيخ، بين الفرح بلقاء ابنته الحبيبة بعد ذلك النفور الجائر، والخزي من نفسه وهو يتقبل ذلك الحنان من تلك التي نبذها في ساعة غضب لذنب وهمي مرجعه في الحقيقة إلى متانة خلقها.

وكان لذلك الصراع تأثيره الكبير في نفس الملك الشيخ، فضلا عن بقايا مرضه، مما يجعله يغيب عن صوابه ويتساءل أحيانا أين هو، ولا يتذكر تسلسل الحوادث التي مرت به. بل ولا يتذكر من هي تلك التي تقبله بهذا الحنان وتتحدث إليه بهذه الرقة. وفجأة يلتفت إلى الواقفين من حوله ويتوجه إليهم بالرجاء ألا يضحكوا منه إن هو أخطأ فظن هذه السيدة ابنته العزيزة كورديليا!

وفي اللحظة التالية نراه يخر راكعا على ركبتيه طالبا الصفح من ابنته،

والسيدة الطيبة القلب راكعة طول الوقت تلتمس منه عبثا أن يمنحها بركته فتصرخ فيه أنه لا يليق به أن يركع، وإنما الركوع واجبها هي، لأنها ابنته، ابنته المخلصة كورديليا!

وبعد ذلك تقبله، وهي تقول:

- أبي.. إني أقبلك لامحو بقبلاتي كل عقوق شقيقتي. كان يجب أن تخجلا من نفسيهما فلا تطردان أبا عجوزا رحيما مثلك بلحيته البيضاء في العراء والبرد والمطر. أقسم لك أن كلب عدوي حتى لو كان قد عقرني كنت أتمسك به وأبقيه بجانب نار مدفأتي في ليلة كتلك الليلة!

ثم أخبرت والدها كيف جاءت من فرنسا لتسدي إليه العون. وقال لها هو في انكسار نصف أبله:

- بل يجب أن تنسي وتصفحي. فإني رجل عجوز خرف، ولست أدري خيري من شري. ولا شك عندي أنك غير ملومة إن لم تحبيني. لك عذرك في كراهيتي لما فعلته بك. أما شقيقتاك فلا عذر لهما!

- لا تقل هذا يا أبي. لست أحد سببا يدعوني لكراهيتك، كما أنه لا سبب لديهما أن تبغضاك وتسيئا إليك.

* * *

والآن نترك هذا الملك العجوز وديعة بين يدي ابنته المحبة العطوف، حيث توفق بفضل العقاقير المنومة والمهدئة، وبعد جهد جهيد منها ومن أطبائها، ان ترد إلى الملك المسكين رشده، وتخلصه من الزلزال الذي أحدثته قسوة ابنتيه في عقله. نترك لير هناك ونعود إلى هاتين البنتين القاسيتين لنرى ما كان من أمرهما

إن التي تقسو بهذه الوحشية على أبيها، وتقلب له ظهر المجن، لا نتوقع منها

أن تكون أكثر اخلاصا لزوجها.. وهذا ما حدث من الخائنتين الغادرتين. فسرعان ما ضاقتا حتى بالتظاهر بالولاء والطاعة والإخلاص لزوجيهما. بل أعلنت كل منهما بكل وقاحة وفجور أنها نقلت هواها وحبها من زوجها إلى عاشق تخيرته لنفسها.

وحدث أن كان هذا العاشق الذي تعلق به حبهما الآثم شخصا واحدا هو ايرل جلوستر. وهذا الايرل شخص لئيم شرير استطاع بخداعه وخيانته أن يحرم أخاه الشرعي ادجار الوريث الحقيقي للقب اللوردية، وأن ينصب نفسه بطريق الاحتيال ايرلا في مكانه، فهذا الشخص الخبيث هو الذي يصلح فعلا لمحبة مخلوقتين شريرتين مثل جونريل وريجان.

وفي ذلك الوقت مات دوق كورنوال زوج ريجان. فأعلنت ريجان على الفور عزمها على الزواج من ايرل جلوستر. فأثار ذلك غيرة شقيقتها جونريل. وكان هذا الايرل الشرير قد خدع الاثنتين وزعم لكل منهما أنه يهواها دون سواها.

وعمدت جونريل إلى مؤامرة لدس السم لأختها. ولكن أختها كانت على حذر منها، فافتضحت الخطة، وعرف زوجها دوق الباني حقيقة سريرتها وما تضمره من غرام أثيم بذلك الايرل، فأمر دوق الباني بالقاء القبض على زوجته جونريل وزوجها في السجن.

ووجدت جونريل نفسها هدفا للعار والفضيحة، وقد ضاع عليها غرضها في قتل أختها كما فقدت الأمل في معاشرة عشيقها. فأطبقت الخيبة على بصيرتها، ووضعت حدا لحياتها بيدها. وبذلك حلت عدالة السماء على تلك الشريرة الآثمة.

وفي الوقت الذي كانت فيه عيون الناس جميعا تتطلع بالاعجاب إلى ما في

قصاص السماء من عدل، كانت أحداث أخرى تجرى في جانب آخر من المملكة، حيث كانت عيون الناس تنتظر بكل اعجاب أن ترى العدالة السماوية تتوج بثوابها صفاء نفس كورديليا وكرمها.

ولكن الحقيقة المرة في هذه الدنيا أن الخير والفضيلة لا يجدان دائما جزاءهما العادل في هذا العالم. فإن القوات التي أرسلتها جونريل وريجان تحت قيادة أول جلوستر لمحاربة جيش كورديليا كتب لها النصر. وانتهز الايرل الشرير هذه الفرصة للقضاء على آخر عقبة شرعية تحول بينه وبين العرش، فأمر أن تقضي بقية حياتها في السجن ولكنه في الواقع عمل على قتلها وهي في المعتقل، وبهذا شاءت السماء أن تأخذ إليها تلك السيدة البريئة وهي في زهرة العمر، بعد أن جعل منها لفترة قصيرة مثلا رائعا للحب البنوي.

ولم يستطع لير أن يعمر بعد وفاتها طويلا. وقبل موته حاول ايرل كنت الذي كان مثال الاخلاص لمولاه في محنته، أن يدخل في رأسه أنه هو الذي دخل خدمته تحت اسم كايوس. ولكن الخرف الذي أصاب عقل لير لم يسمح له بتصور تلك الحقيقة، وهي أن ايرل كنت وكايوس شخص واحد، ولم يعمر ايرل كنت طويلا بعد الكوارث التي وضعت حدا لحياة مولاه، فسرعان ما تبعه إلى القبر.

ولم تفلت عدالة السماء الايرل الخائن جلوستر، فاشترك في مبارزة فردية مع أخيه الدوق الشرعي، وقتل الخائن في تلك المبارزة.

أما دوق الباني فكان بريئا من مقتل كورديليا، ولم يشترك أبدا في أعمال زوجته جونريل ولم يشجعها على عقوق أبيها. وكان هو آخر من بقي بعد وفاة لير وبناته، فارتقى عرش انجلترا وأسس بيتا ملكيا جديدا.

ماكبث

الشخصيات

حينما كان الملك الوديع دنكان جالسا على عرش اسكتلنده، كان في تلك البلاد رجل من كبار الأشراف هو اللورد ماكبث. وكان ماكبث هذا من أقرب أقارب الملك دنكان. وله في بلاطه مكانة عظيمة لما كان يتصف به من شجاعة وبراعة في المواقع الحربية.

ومن نماذج تلك البسالة والمهارة ما أظهره أخيرا حين تمكن من سحق جيش من التمردين، وكان هذا الجيش المتمرد معضدا بفرق كثيرة هائلة العدد والعدة من جنود النرويج.

وبعد انتهاء المعركة، التي استغرقت وقتا كبيرا وكانت من أحمى المعارك وأعنفها، عاد القائدان الاسكتلنديان المنتصران ماكبث وبانكو في طريقهما إلى مقر الملك. وكان الطريق يخترق مرجا مترامي الأطراف ملتف الأدغال. فاستوقف القائدين منظر غريب. إذ أبصرا ثلاثة شخوص على هيئة النساء. بيد أن لهن لحي كالرجال. وجلودهن المتغضنة وشكلهن البالغ الغرابة جعلهن لا يشبهن بنات البشر.

وخاطبهن ماكبث يسألهن من يكن؟ فظهر عليهن الغيظ من ذلك السؤال، ووضعن أصابعهن المتجعدة على شفاههن الجافة إشارة إلى التزام الصمت. وبعد ذلك حيث أولهن ماكبث:

– سلاما يا ماكبث. يا لورد جلاميس!

فبهت القائد ودهش دهشة كبيرة لما وجد هاتيك المخلوقات العجيبة يعرفن اسمه. بيد أن دهشته زادت حين صاحت الثانية:

– سلاما يا ماكبث يا لورد كاودور!

فإن ماكبث لم يكن يفكر في الحصول على ذلك اللقب. وإذا بالثالثة تصيح في وجهه قائلة:

– سلاما أيها الملك الذي سيكون عن قريب!

وإنها لنبوءة ينبغي أن تدهشه أشد الدهشة. وهو الذي يعلم جيدا أن للملك أبناء ذكورا، وأن هؤلاء الأبناء على قيد الحياة فليس من حقه الشرعي أن يلي الملك برغم قرابته للملك دنكان.

والتفتت الساحرات الثلاث بعد ذلك إلى القائد بانكو وخاطبنه متنبئات له في عبارات أشبه بالألغاز:

– سلاما يا بانكو العظيم!

– سلاما يا من ستكون أقل من ماكبث وأعظم منه.

– سلاما. لن تكون مجدودا مثله، ولكن أسعد منه كثيرا

تنبأ له أنه سوف لا يلي الملك كما يليه ماكبث يوما ما. بيد أن أبناءه من بعده سيكونون ملوكا على اسكتلنده.. واشتدت الدهشة بالقائدين. فهما أن يهجما على الشخوص الثلاثة بالسيوف. وإذا بها تتلاشى في الهواء. فعلم القائدان إنهن الأخوات الساحرات جنيات الخلاء المتنبئات

* * *

وبينما القائدان في حيرهما يحاولان تأويل تلك الأقوال العجيبة، إذا برسول يقبل على الطريق مسرعا نحوهما، ومن ورائه وفد ملكي أرسله الملك دنكان لينوب عنه في تبليغه سرور جلالته بالنصر الذي حققه في الميدان، وأنه أنعم عليه إزاء ذلك بلقت لورد كاودور!

نبأ سار ولا شك ولكن سرور ماكبث كان مقرونا بالدهشة والحيرة والطمع. فهذا هو أول شطر تحقق بحذافيره من نبوءة الساحرات. لهذا وقف عند سماع النبأ مبهوتا لم يفتح الله عليه بكلمة يرد بها على الناطق باسم الوفد الملكي، حتى ولا بشكر أو تعبير عن الولاء.

إن القائد ماكبث كان مشغول النفس في تلك اللحظة بصور تمثل الشطر الثالث من النبوءة، الذي بمقتضاه سيكون يوما ملكا متوجا على اسكتلنده. بيده المنح والمنع والانعام والاذلال!

والتفت ماكبث إلى بانكو كأنه يستخبره عما يدور في خاطره من رد فعل لتحقق مطلع النبوءة:

– أليس يداعبك الأمل الآن يا بانكو أن يغدو أبناؤك ملوكا، وقد رأيت بنفسك أن ما وعدتني به الساحرات تحقق بهذه الصورة؟

فقطب بانكو الأمين الحصيف جبينه وقال محذرا:

– إن هذا المنطق قد يجرفك إلى الأمل فترنو بعينيك إلى العرش. ولكن أعلم أن قوى الظلام هذه لا تصدق على الدوام. إنها تخبرنا طرفا صغيرا من الحقيقة، تجعله طعما تستدرجنا به إلى أعمال خطيرة شديدة الوبال. فاحذر!

ولكن أقوال الساحرات الشريرات كانت قد غاصت إلى أعماق ذهن ماكبث. وأصبح من المستحيل على تحذيرات بانكو الطيب القلب أن تجدي في

محو آثار تلك الأطماع. فإن الإغراء بالتاج كان أضخم من أن يقاومه تحذير رجل متعقل.

ومن هذه اللحظة وجه ماكبث المحارب المخلص للعرش كل تفكيره وخططه إلى هدف واحد أصبح يحلم به ليلا ونهارا وهو ارتقاء عرش اسكتلنده.

* * *

وكان لماكبث زوجة، وإلى الليدي ماكبث أفضى بتلك النبوءة الغريبة من الجنيات الساحرات، وأخبرها بهذا الجزء الذي تحقق منها على صورة مدهشة مما يدل على أن الباقي أيضا سيتم.. كانت الليدي ماكبث امرأة طموحا سيئة السريرة. وكانت لا تبالي أن تقدم على أي عمل مهما كان خسيسا، ما دام يؤدي في النهاية إلى عظمتها وعظمة زوجها. فانتهزت هذه الفرصة وراحت تستحث ماكبث وتزيد مطامعه اشتعالا ببراعة وحجج مؤثرة.

وبالرغم من اشمئزاز ماكبث من إراقة الدماء ولاسيما دم ملك هو في الوقت نفسه قريبه وصديقه. إلا أنه لم يستطع أن ينفي وجاهة حجة الليدي ماكبث حين قررت له أن قتل الملك مجرد ضرورة عسكرية أو سياسية لابد من القيام بها حتى يتم ما هو مكتوب في لوح القدر، وتلته عليه الساحرات الثلاثاء، واتفق في ذلك الوقت أن الملك كان يقوم بجولة في أنحاء مملكته. يظهر فيها تواضعه وتشريفه لكبار رجال دولته، بالنزول في ضيافتهم أثناء تنقله، فكان من الطبيعي أن يحضر الملك دنكان إلى قصر ماكبث الريفي، وهو قلعة حصينة، يصحبه ولداه مالكولم ودونالبين. وعدد كبير من أفراد حاشيته النبلاء والأتباع. وجعل الملك هذه الزيارة محوطة بالأبهة زيادة في تكريم ماكبث بانتصاراته الحاسمة.

وكانت قلعة ماكبث تقع في مكان بديع الجمال. والجو في تلك البقعة غاية في الحلاوة والاعتدال وأنسب ما يكون للإستجمام والصيد واسترداد الصحة.

وقد عششت العصافير الجميلة المختلفة الألوان والأصوات في طاقات الجدران وتحت السقوف. فإن الطيور لا تألف للإقامة وبناء الأعشاش إلا أحسن المواقع هواء وماء وزرعا.

ودخل الملك القلعة وقد انشرح صدره لجمال الغابات والحقول التي تحيط بالقصر. ثم زاد انشراحه للاستقبال الحافل وعلامات التكريم والتبجيل التي استقبلت جلالته بها ربة القصر الليدي ماكبث. فإن هذه السيدة كانت متفوقة جدا في فن تغطية الأهداف الخسيسة الغادرة بأجمل الابتسامات وأشرقها. كما تغطي الجثة بأندر الأزهار. أو كما تبتسم الوردة على عودها، ومن تحتها تكمن الحية الرقطاء، ولما كان الملك متعبا من رحلته الطويلة، فقد اختصر السهرة ذلك اليوم وأوى في ساعة مبكرة إلى فراشه، وعلى عادة ذلك الزمن نام بجواره في الحجرة وصيفان.

ولما كان جلالته قد سر سرورا عظيما من جمال لمكان وحفاوة الاستقبال وفخامة المأدبة، فقد أرسل قبل دخوله الفراش هدايا وخلعا ثمينة إلى كبار ضباطه. وخص الليدي ماكبث بماسة ثمينة جدا، وهو يصفها أنها كانت أرق مضيفاته وأكرمهن.

والآن وقد انتصف الليل، ونامت جوانب الحذر واليقظة في سرائر الناس، حتى بدا كأن نصف الفطرة البشرية عدا عليه الموت، وأخذت الأحلام الشريرة تدنس عقول البشر وهم نيام. ولم يمكث مفتوح العينين خارج مأواه إلا اثنان: الذئب والقاتل.

في هذا الوقت الفريد بين أوقات الدنيا، سهرت الليدي ماكبث لتدبر مقتل الملك. وما كانت لتتصدى لعمل كهذا ينفر منه بنات جنسها في فزع ومقت، لولا أنها تخاف ما تعرفه في طبيعة زوجها من لين، وأن الحنان الإنساني الذي يفيض به

قلب هذا الرجل خليق أن يعجزه عن قتل صديقه وقريبه ومليكه.

كانت تعرف في زوجها سعة الأطماع. ولكنها تعرفه أيضا كثير الحساب لنفسه. ولهذا فهو ليس متهيئ النفس للإرتقاء إلى مستوى تلك الجريمة الكبرى التي تلازم في العادة المطامع الكبيرة، كانت قد أفلحت في الحصول على موافقته على القتل. ولكنها كانت تشك كثيرا في صدق عزيمته. وكانت تخشى أن رقته الطبيعية التي تجعل منه أكثر إنسانية منها ربما حالت بينه وبين الأقدام فتخفق خطتها ويقضي على مطمعها الجسيم.

لهذا، عمدت إلى خنجر قبضت عليه بيدها، ثم تسللت تقترب من فراش الملك. وكانت قد عنيت أثناء المساء بتقديم خمر بها عقار منوم للوصيفين اللذين يرقدان بجوار الملك، فاستغرقا في النوم لاهيين عن مهمتهما الرسمية، وهناك في الفراش وجدت الملك دنكان نائما نوما عميقا بعد عناء السفر. فلما تفحصت وجهه عن كثب، وجدت في وجهه وهو مستسلم للنوم شبها كبيرا بوجه أبيها. فلم تجد الجرأة على إتمام فعلتها.

* * *

وعادت الليدي ماكبث لتتشاور مع زوجها. وكان تصميمه قد بدأ يتزعزع. وأخذ يتبين عناصر كثيرة تتعارض مع صواب ذلك العمل.

إنه قبل كل شئ ليس رعية عاديا كسائر الرعية، بل يربطه بالملك رباط القرابة العائلية، وصلة الرحم هذه شئ عظيم. ثم إنه في ضيافته ذلك النهار. جلس إلى مائدته وأكل من زاده، وحرمة الضيافة حرمة مقدسة، ومن واجب المضيف أن يحمي حياة ضيفه وماله، حتى ولو كان هذا الضيف ذا ثأر عنده. فكيف إذن يرفع السكين على عنقه؟

وتذكر ماكبث كيف كان هذا الملك دنكان شديد العدل عظيم الرحمة والرفق. وكيف كان يخفف أي ألم عن رعاياه، ويضفي محبته على إشراف مملكته، ولاسيما عليه هو. فمثل هذا الملك نعمة نادرة من نعم السماء. وعلى رعاياه أن ينتقموا لمصرعه مرتين، مرة بحق الولاء، ومرة أخرى بحق الحب وعرفان الجميل!

وتذكر ماكبث انعامات الملك عليه وإشادته به حتى أصبحت له مكانة عالية في نظر جميع طوائف الشعب. وتصور كيف أن هذه السمعة العالية وأوسمة التشريف سوف تتلطخ بوصمة هذا القتل الغادر الشنيع!

في هذه الحالة العقلية المضطربة من أثر الصراع الداخلي، وجدت الليدي ماكبث زوجها، وقد مال عن جانب السوء إلى جانب الخير. ووطن النفس أن يرجع عن إتمام مطمعه الأثيم، ولكن الليدي ماكبث كانت امرأة ليس من اليسير تعويقها عن الوصول إلى هدف زينته لها مطامعها. فأخذت تصب في أذنيه كلمات مسمومة نفثت بها جانبا من روحها في عقله. وجعلت تتبع الحجة بالحجة، وكلها تريد سخافة عدوله عما سبق أن أجمع أمره عليه.

وراحت بعد ذلك تزين له سهولة الفعلة. وكيف أنها لن تستغرق إلا لحظات. ينتهي بعدها كل شئ. ومن الحماقة أن يتردد الإنسان ذو الهمة فيفلت فرصة فريدة، حين يكون أقدام ليلة واحدة كفيلا بمجد يدوم الأيام والليالي ما دامت الحياة!

وانقلبت بعد التحريض إلى الخطة البارعة التي لا تخذل المرأة أبدا، وهي التحقير والازدراء لهذا التذبذب والتردد. فاتهمته بالخور والجبن قائلة أنها تخجل من الاقدام على مثل طراوته:

– إني امرأة عرفت الرضاع، وجربت الحب الدافق الحنون للوليد الذي ترضعه

صدرها. ولكني خليقة وأنا أراه يبتسم ببراءة في وجهي أن انتزعه من صدري انتزاعا وأهشم دماغه وأنثر ما فيها من مخ، لو أنني كنت قد أقسمت قبلها أن أفعل به ذلك كما أقسمت لي أنت أن تنهض بهذا القتل في سبيل غاية تهون بجانبها جميع عواطف البشر.

وبينت له بعد ذلك كيف يمكن بكل سهولة أن يلقي وزر هذا القتل على الوصيفين المخمورين النائمين مع الملك. وراحت بذلاقة لسانها تبدد كل ما كان قد أقنع به نفسه من عناصر الوفاء. حتى عاد إلى موقفه الأول، ووجد الشجاعة على المضي في ذلك الجرم الفظيع.

تناول ماكبث الخنجر في يده، ومضى متسللا إلى الحجرة التي رقد فيها دنكان. وخيل إليه وهو سائر في طريقه أنه يرى في الهواء خنجرا آخر. ومقبضه موجه إليه، وعلى حديه ومن سنه يقطر الدم. ولكن عندما حاول أن يقبض على ذلك الخنجر، لم تقبض يده إلا على هواء، لم يكن هذا التصور إلا تجسيما خارجيا للأفكار الكامنة في تلافيف دماغه، وصدى للهمهمة الفظيعة التي استجمع لها قبضة يده، وضغط ماكبث على نفسه فطرح مخاوفه جانبا، ثم دخل مخدع الملك فقتله بضربة واحدة من خنجره.

وفي تلك اللحظة بالذات سمع أحد الوصيفين النائمين في الحجرة يقهقه وهو نائم. أما الوصيف الآخر فصاح

– قتيل قتيل!

فأيقظت الصيحة الوصيفين معا بعد انزواء ماكبث في ركن مظلم من الحجرة. وتبين الاثنان أنهما كانا يحلمان، ولم ينتبها للحقيقة، فركعا يتلوان صلاة قصيرة لطرد الأرواح الشريرة ثم أخذا مكانهما ليناما من جديد، وأوشك ماكبث وهو

منزو أن يردد معهما في ختام الصلاة كلمة آمين بعد أن قال أحدهما:

– فلتباركنا السماء!

بيد أن كلمة البركة وقفت في حلق ماكبث على شدة حاجته إليها، ولم يستطع أن يخرجها من فمه

وخيل إليه بعد ذلك أنه سمع صوتا يصيح:

– لا تناموا! إن ماكبث قتل النوم. النوم البرئ الهنئ الذي هو مدد الحياة! قتله ماكبث!

وخيل إليه أن تلك الصيحة تعددت في جوانب القصر كله:

– لا تناموا! إن لورد جلاميس قتل النوم. ولهذا فلن ينام لورد كاودور بعد اليوم. أجل لن يستطيع ماكبث بعد اليوم أن ينام!

وبمثل هذه التخيلات عاد ماكبث إلى زوجته المنتظرة المرهفة السمع، التي استبطأته فظنته أخفق في مهمته، وإن الجريمة لم تتم.

دخل عليها وهو في حالة وجوم وشرود، فأخذت تلومه على افتقاره إلى الحزم والعزم. ثم أرسلته ليغسل يديه من الدماء التي تخضبهما. وتناولت من يده الخنجر كي تعود إلى مخدع الملك فتخضب به خدود الغلامين الوصيفين، كي يبدو أنهما الجانيان.

* * *

وطلع الصبح، ومع بوادر الصبح افتضحت الجريمة التي لم يكن في الإمكان كتمان أمرها، ومع أن ماكبث وقرينته أظهرا أشد الأسف والحزن. وكانت القرائن كلها ضد الغلامين الوصيفين قوية قوة كافية، لأن الخنجر وجد معهما كما كانت

خدودهما ملطخة بالدم. إلا أن الشبهة كلها انصبت على ماكبث. الذي كانت مصلحته في عمل خطير كهذا أضخم بكثير من مصلحة وصيفين مسكينين. وكذلك البواعث على الجريمة لم تكن لتتوفر لديهما.

وشعر ولدا دنكان بما وراء تلك المظاهر من حقيقة مرة. فقررا الركون إلى الفرار نجاة بنفسيهما. والتمس أكبرهما وهو مالكولم ملجأ في البلاط البريطاني، أما أصغرهما دونالبين فهرب إلى ايرلندا.

وبهرب ابني الملك وهما الوارثان الطبيعيان لعرشه، أصبح العرش شاغرا. وآلت وراثة العرش بحسب الترتيب الشرعي إلى الوارث التالي لابني الملك في الترتيب، وهو ماكبث، فتوج ملكا، وبذلك تحققت نبوءة الساحرات الثلاث تحققا حرفيا.

وبالرغم من ارتقاء ماكبث إلى مقام الملك. وبالرغم من أن الليدي زوجته صارت الملكة المطلقة على اسكتلنده، إلا أنهما لم يستطيعا نسيان بقية نبوءة الساحرات الثلاث، التي وجهت إلى بانكو، ومضمونها أن أولاد ماكبث لن يكونوا ملوكا من بعده، بل سيكون الملوك أولاد بانكو

وعز على الملكين الجديدين أن يحدث شئ كهذا، فهما لم يخضبا أيديهما بدم الملك ضيفهما، ويقترفا جرائم هائلة، لينصبا ذرية بانكو على العرش بطبيعة الحال. فقررا أن يرتكبا جرائم أخرى تلافيا لذلك الخطر

وكان بانكو قد نأى بنفسه عن معترك البلاط. ومع هذا قرر الملكان الجديدان التخلص من هذا القائد وولده كي يحولا دون تحقق ما تنبأت به الجنيات الساحرات. فإن اعتقادهما في صدق تلك النبوءة صار لا يحتمل أي شك بعد الذي خبراه في موضوعهما من دقة مدهشة

وللوصول إلى ذلك الهدف الإجرامي أقام الملكان وليمة كبرى دعوا إليها

كبار الاشراف والقواد، وعنيا على الخصوص بتوجيه دعوة لوحظ فيها الالتفات السامي والعطف البالغ إلى بانكو وابنه فلينس، ودبرا الأمر بحيث حشد عدد كبير من القتلة المحترفين المدربين في الطريق الذي سيسلكه بانكو وابنه في حضورهما إلى القصر ليلا. واستطاع هؤلاء القتلة أن يقضوا على بانكو. أما ابنه فلينس فاستطاع في ضجة المعركة أن يهرب متسترا بالظلام.

ومن فلينس هذا انحدرت سلالة من الملوك الذين جلسوا فيما بعد على عرش اسكتلنده كان آخرهم جيمس السادس ملك اسكتلندا الذي صار في الوقت نفسه جيمس الأول ملك انجلترا. وفي عهده تم توحيد تاجي انجلترا واسكتلنده.

* * *

ونعود إلى القصر الملكي. فنجد أن الملكة كانت أثناء الوليمة تبدو في أرقى مظاهر الرقة والانشراح والتعطف الملكي على ضيوفها. وتمكنت بلباقتها التامة أن تأسر قلوب جميع الحاضرين، ولما طال غياب بانكو وابنه، قال الملك ماكبث في رياء يحسد عليه:

– كنت أعتبر أن كل ما هو شريف وجليل في بلادي قد تجمع الليلة تحت سقف داري لو أن صديقي العزيز بانكو كان حاضرا معنا.

ولما أشار بعضهم أنه ربما عوقه طارئ يؤسف له ما دام قد تأخر عن تلبية دعوة مولاه الملك، قال ماكبث:

أتمنى على الله ألف مرة ألا يكون قد حدث شئ من ذلك له. فإني أفضل أن ألوم بانكو على إهمال دعوتي، من أن أرثي لكدر يصيبه.

وفي هذه اللحظة بالذات، ظهر شبح بانكو الذي كان ماكبث سببا في قتله، ودخل قاعة الوليمة، ثم جلس على كرسي الصدارة الذي كان ماكبث يتهيأ في

تلك اللحظة للجلوس عليه!

ومع أن ماكبث كان رجلا شجاعا فيه جسارة. رجلا يستطيع أن يواجه الشيطان من غير أن ترتعد فرائصه. إلا أن خديه انقلبا إزاء هذا المنظر المروع إلى بياض الثلج، ووقف مسلوب الرجولة والهمة وقد تعلقت عيناه بذلك الشبح!

ولم يظهر هذا الشبح إلا لماكبث وحده. أما الملكة وسائر النبلاء فلم يروا شيئا سوى أنهم لاحظوا الملك يحملق في مقعده الشاغر. فظنوها نوبة من نوبات الشرود. وأخذت الملكة تؤنبه، فظنوها نوبة من نوبات الشرود. وأخذت الملكة تؤنبه، ثم همست في أذنه أن الذي يتراءى له لا يعدو أن يكون خداعا آخر من خداع البصر كالذي حدث له حين رأى خنجرا معلقا في الهواء وهو ذاهب ليقتل دنكان.

بيد أن ماكبث ظل يبصر الشبح. ولم يستطع أن يعي شيئا مما يقوله له ضيوفه وزوجته. وراح يخاطب الشبح بعبارات متقطعة ولكنها ذات معنى خطير، حتى أن الملكة خشيت أن يفلت السر الفظيع من بين شفتيه، فأسرعت بصرف الضيوف على عجل، وهي تعتذر بمرض ماكبث وتعزوه إلى اضطراب يلم به في كثير من الأحيان لكثرة ما يلقاه من نصب في النهوض بأعباء الدولة والسهر على مصالح الرعية

* * *

بات ماكبث نهبا لمثل هذه التخيلات الفظيعة. وصار نومه ونوم ملكته مجالا للأحلام المخيفة. ولكن دم بانكو لم يؤرقهما كما أرقهما فرار فلينس، الذي أمسيا ينظران إليه باعتباره أبا لسلسلة من الملوك ستمنع ذريتهما من الجلوس على العرش من بعدهما.

وفي غمار هذه الخواطر المضنية امتنع عليهما الشعور بالأمن والسلام.

وصمم ماكبث أن يرحل مرة أخرى للبحث عن الجنيات الساحرات ذوات اللحى ليعرف منهن ما كتب له في لوح القدر، فلئن عرف أسوأ ما ينتظره، فذلك أفضل من التخيل على غير هدى.

وعثر ماكبث على الجنيات الشقيقات في كهف بين الأدغال، في وقت كن مشغولات فيه بأعمالهن السحرية المخيفة التي يستدعين بها الأرواح الشيطانية لتكشف لهن عن المستقبل. كانت الأدوات التي يستعن بها على ذلك خليطا فظيعا من الخفافيش والأفاعي وألسنة الكلاب وأرجل السحالي وأجنحة البوم وأسنان الذئاب وعظام الحوت ومومياء ساحرة وجذور نبات سام من النوع الذي سقي سقراط عصيره القاتل، ومرارة جدي، وكبد يهودي وأصابع طفل ميت. يوضع ذلك كله فيغلي في قدر كبير والساحرات يتلون التعاويذ الشيطانية ويلقين على النار شحما منزوعا من جسد قاتل، ويناشدن الأرواح الشيطانية أن تجيب على أسئلتهن.

وسئل ماكبث وهو يرى هذه المناظر المخيفة هل يفضل أن تتولى الجواب على أسئلته الساحرات أم يتلقى الجواب من الأرواح الشريرة سادتهن.

وليس أدل على جسارة قلب هذا الملك من أن هذه الطقوس الفظيعة لم ترهبه، ولم يخف من ظهور الأرواح الشريرة، فصاح بالساحرات:

– وأين هم هؤلاء الأسياد الشياطين؟ دعني أراهم!

فنادين الأرواح الشريرة أن تظهر. وكان عددها ثلاثة.

ظهر أولها على شكل رأس داخل درع، فنادى ماكبث باسمه وحذره كثيرا من لورد فايف. فشكره ماكبث على ذلك التحذير، لأن ماكبث كان يشعر بحقد ونفور من ماكدف لورد فايف.

وظهر الشيطان الثاني له على شكل طفل مدرج بالدم، ونادى ماكبث باسمه وطلب منه ألا يخاف. بل يضحك ساخرا من قوة جميع البشر، لأنه مكتوب أنه ما من مولود امرأة يستطيع أن يصيبه بسوء. ونصحه أن يكون جريئا حازما دمويا. فصاح الملك ماكبث:

– إذن أتركك تعيش يا ماكدف! فإني لست محتاجا إلى الخوف أو الحذر منك. ومع هذا سآخذ بالحيطة. وسأتركك تعيش، كي يمكنني أن أقول للخوف ذي الوجه الشاحب أنه كذاب. وأتحدى دوي الرعد فأنام!

وبعد انصراف ذلك الشيطان الثاني ظهر الشيطان الثالث على صورة طفل فوق رأسه التاج وفي يده شجرة مورقة. فنادى ماكبث باسمه. وطمأنه من عواقب جميع المغامرات قائلا له:

– لن يتمكن أحد من قهرك إلى أن ترى بعينيك غابة برنام تنتقل إليك وأنت على جبل دنزينان!

فهتف الملك ماكبث مسرورا

– يا للبشارة الجميلة! فمن ذا الذي يستطيع أن ينتزع الغابة ويحركها بعيدا عن جذورها الغائرة في جوف الثرى؟ أراني سأعيش المدة المألوفة لحياة الإنسان، ولا يستعجل منيتي حادث عنيف. ولكن قلبي يخفق بشدة شوقا إلى معرفة أمر واحد.

– سل أيها الملك

– خبرني إن كان فنك هذا يستطيع أن يعرف جواب سؤالي. هل يمكن أن يكون صحيحا ما وعد به بانكو أن يصير أولاده ملوكا على هذه المملكة؟

وعندئذ اختفى الشيطان الذي كان قد ظهر له على شكل طفل متوج في يده شجرة. وغاص هذا الطفل في باطن الأرض، ثم سمع ماكبث أصوات عزف

موسيقى، وتراءت أمام ماكبث ثمانية أشباح، على هيئة الملوك، مروا من أمامه وفي أعقابهم بانكو يحمل مرآة فيها صور أشخاص كثيرين. هم أيضا على هيئة الملوك

ونظر ماكبث جيدا إلى بانكو، فوجده مسربلا بدمه، ولكنه يبتسم لماكبث كالساخر أو الشامت، ويشير إلى الثمانية بأصبعه، فأدرك ماكبث أن هؤلاء هم ذرية بانكو الذين سيتولون العرش من بعده في مملكة اسكتلنده.وعندئذ انبرت الساحرات الثلاث فعزفن موسيقى هادئة ورحن يرقصن كمن يحيين ماكبث بتحية الملك، ثم اختفين في الهواء.

ومن تلك اللحظة أطبق الغم والاضطراب على خواطر ماكبث كلها، وصارت بصوراته جميعا فظيعة ملطخة بالدم.

* * *

وأول شئ سمع به ماكبث بعد خروجه من كهف الساحرات أن ماكدف لورد فايف هرب خلسة إلى انجلترا لينضم إلى الجيش الذي كان يتكون هناك لمحاربته تحت قيادة مالكولم، الابن الأكبر للملك الراحل، بقصد خلع ماكبث عن العرش وتولية مالكولم الوريث الشرعي.

واشتد هياج ماكبث، وفي ثورة غضبه هاجم قلعة ماكدف، فأعمل القتل في زوجته وأطفاله الذين كان اللورد قد تركهم من ورائه. ووضع السيف في رقبة كل إنسان يمت إليه بأقل صلة، سواء في ذلك الرجال والنساء والأطفال.

وفعلت هذه الأعمال الوحشية وما إليها فعلها الرهيب في نفوس الناس، فنفرت منه طبقة النبلاء وكبار الأشراف. وأخذ كل من استطاع يعمل على الفرار نجاة بنفسه، وكان من الطبيعي أن جميع من يلتمسون الفرار يولون وجوههم نحو انجلترا لينضموا إلى مالكولم وماكدف اللذين كانا يقتربان بجيشهما القوي من

حدود اسكتلنده.

أما من لم يستطع الفرار، فكانت قلوبهم تدعو سر لهذه الجيوش بالنصر، وإن كان الخوف من ماكبث قد عقد ألسنتهم عن التصريح بما في قلوبهم أو العمل صراحة على نصرة الزاحفين.

وأمر ماكبث بالتعبئة. ولكن التجنيد كان يسير ببطء شديد. فالجميع يكرهون الطاغية، ولا أحد في المملكة كلها يحبه أو يجله، بل الجميع يتوجسون منه ويحتقرونه.

وبلغ الأمر بماكبث أن انتهى بحسد دنكان الذي قتله بيده، لأنه يرقد في قبره هادئا بعد أن فعلت الخيانة ضده أقصى ما استطاعت. أما الآن فلا الحديد ولا السم، ولا مؤامرات الخدم والأقارب يمكن أن تمسه بسوء، وهو في حماية الموت.وبينما هذه الأمور كلها تحدث، فقد ماكبث الشريك الوحيد الذي كان يسنده في اجرامه ويملي عليه في الشر والأطماع، وفي أحضانه كان يلتمس الراحة الوقتية من أحلامه المفزعة التي كانت تزعج يقظته ومنامه. فقد ماتت الملكة زوجته.

وتردد على الألسنة أنها ماتت منتحرة بيدها. بعد أن عجزت عن احتمال آلام الندم والاثم وكراهية الناس لها

ومهما يكن من أمر فها هو قد صار وحيدا، ليس له في الدنيا صديق واحد يحبه ويهتم بأمره ومصيره، أو يستطيع أن يفضي إليه بمكنونات قلبه ويشاوره في مقاصده الأثيمة.

صار ماكبث بعد وفاة زوجته الملكة مستهترا بالحياة، يتمنى الموت من أعماق قلبه. بيد أن اقتراب جيش مالكولم الزاحف استثار فيه ما تبقى من نخوته القديمة، فقرر أن يموت وقائم سيفه في يده ودرعه على منكبيه

ومن جهة أخرى كانت النبوءات التي سمعها في كهف الساحرات قد ملأته

بالثقة الباطلة. وتذكر ما قاله له الروح الشيطاني أنه ما من مولود امرأة يستطيع أن يصيبه بسوء. كما تذكر أيضا أن هزيمته غير ممكنة إلا حين يرى غابة برنام تسير نحو جبل دنزينان. وذلك أمر استحالته غاية في الوضوح.

واعتمادا على هذه التنبؤات أغلق على نفسه قلعته التي اشتهرت بحصانتها وامتناعها على المهاجمين والمحاصرين. وفي داخل أسوار هذه القلعة قرر أن ينتظر دنو جيوش مالكولم.

* * *

وفي ذات يوم جاءه رسول ترتعد فرائصه من الخوف ووجهه مكفهر، حتى كاد يعجز عن تبليغ ما حضر يحمله من أنباء شاهدها بعيني رأسه.

إن هذا الرجل كان ديدبانا يقف في موضع فوق الجبل، جبل دنزينان. فرأى وهو واقف هناك ينظر إلى جهة برنام منظرا ملأه رعبا. إذ خيل إليه أن غابة برنام أخذت تتحرك من مكانها قاصدة نحو الجبل!

وصرخ ماكبث مرتاعا:

– أنت كذاب ووغد! أقسم إن كنت كاذبا أن أعلقك حيا فوق أقرب شجرة إلى أن تموت جوعا. وإذا كان ما رويت صحيحا. فليس يهمني أن تفعل أنت بي مثل ذلك!

فقد بدأ ماكبث الآن يفقد ثقته في أقوال الساحرات الظاهرية وداخله الريب في أن لها معان خفية، إن وعد الأرواح الشيطانية له أنه لا خوف عليه من الهزيمة إلى أن يرى غابة برنام تتحرك نحو الجبل، وهذا رجل لا يعرف شيئا عن تلك النبوءة جاء يشهد يتحرك الغابة نحو الجبل!

وصرخ ماكبث مرتاعا:

– أنت كذاب ووغد! أقسم إن كنت كاذبا أن أعلقك حيا فوق أقرب شجرة إلى أن تموت جوعا. وإذا كان ما رويت صحيحا. فليس يهمني أن تفعل أنت بي مثل ذلك!

فقد بدأ ماكبث الآن يفقد ثقته في أقوال الساحرات الظاهرية وداخله الريب في أن لها معان خفية

إن وعد الأرواح الشيطانية له أنه لا خوف عليه من الهزيمة إلى أن يرى غابة برنام تتحرك نحو الجبل، وهذا رجل لا يعرف شيئا عن تلك النبوءة جاء يشهد بتحرك الغابة نحو الجبل

واستجمع ماكبث جأشه وقال:

– إن صح ما يقوله هذا الرجل، فهيا بنا نتسلح ونخرج للقاء العدو. فليس أمامنا سبيل للفرار. والبقاء ها هنا مستحيل. فقد بدأت أسأم الشمس وأتمنى أن تنتهي حياتي بأي شكل.

وبهذه الكلمات اليائسة قرر الخروج لملاقاة المحاصرين الذين وصلوا إلى أسوار القلعة.. وسرعان ما اتضح اللغز الذي اكتنف شهادة ذلك الديدبان. فإن الجيش الزاحف عندما اخترق غابة برنام، أمره القائد مالكولم بما فيه من ذكاء وسعة حيلة أن يقتطع الشجيرات. ويحمل كل جندي شجيرة أمامه. كي يخفوا عددهم عن عيون الجواسيس الواقفة فوق الجبل أو المنبثة في الطريق. فلما شاهد الديدبان ذلك الجيش يمشي هكذا عن بعد، خيل إليه أن غابة برنام تتحرك من مكانها زاحفة إلى الجبل.

وعلى هذه الصورة تحققت النبوءة التي نطق بها الروح الشيطاني، ولكن بمعنى يختلف تماما عن المعنى الذي فهمه ماكبث منها إذ كان قد فهم النبوءة على أنها

كناية على المستحيل.. وهكذا انهار ركن عظيم من أركان ثقته في تلك التنبؤات.

وتلت ذلك موقعة هائلة. وبالرغم من أن جنود ماكبث وأنصاره المزعومين كانوا يحاربون معه حربا فاترة ويتمنون انتصار فريق مالكولم وماكدف، إلا أن ذلك الجندي القديم حارب ببسالة فائقة وغضب شديد، فكان يمزق كل من يعترضه أربا، إلى أن وصل حيث كان ماكدف يقاتل. فلما رآه تذكر تحذير الشيطان له أن يتجنب ماكدف دون سائر الناس. ففكر أن يبتعد عنه، لولا أن ماكدف الذي كان يفتش عن ماكبث طول مدة القتال اعترض طريقه متحديا، وتلت ذلك مبارزة وحشية. كان ماكدف فيها يقذفه بأوجع الشتائم لإقدامه على قتل زوجته وأطفاله. ويتهمه بالجبن والإجرام.

وتمنى ماكبث الذي حمل على منكبيه ما يكفي من دماء هذه الأسرة، أن ينسحب من المبارزة حتى لا يسفك دم هذا الرجل أيضا. بيد أن ماكدف ظل يتحداه ويستثيره، وينعته بالطاغية والقاتل وكلب جهنم والوغد والنذل والسافل.. وعندئذ تذكر ماكبث كلمات الشيطان، إنه ما من مولود امرأة يمكن أن يصيبه بسوء. فابتسم بكل ثقة وقال لماكدف:

– عبثا تحاول يا ماكدف عبثا تحاول. إن كل جهد لك ضدي ضائع. وفي استطاعتك أن تجرح بسيفك الهواء قبل أن تتمكن من إراقة دمي. فإني أحمل تعويذة للنجاة، تحميني من يد مولود كل امرأة.

فصاح به ماكدف ضاحكا:

– خابت تعويذتك يا ماكبث. فلو سألت أرواح عفاريتك التي سخرتها في هذه الرقية لقالت لك أن ماكدف لم تلده امرأة. وأنه لم يولد كما ولد سائر الناس. بل أخرج من أحشاء أمه على غير الطريقة المألوفة قبل موعد المخاض!

فلما سمع ماكبث ذلك ارتعدت فرائصه، وأحس أن آخر ذرة من طمأنينته قد تخلت عنه، فصاح:

– لعنة الله على اللسان الذي قال لي هذا. وخاب الرجل الذي يفتح أذنيه يوما لتنبؤات الساحرات التي تخفي بواطنها غير ما تظهره ألفاظها. إن تلك النبؤات تصدق بحذافيرها. ولكنها في الوقت نفسه تخيب آمالنا بما تخفيه من المعاني عن بصائرنا. لست مقاتلك يا ماكدف!

فصاح ماكدف باحتقار وغيظ:

– إذن عش! سنجعل منك أمثولة ولهوا يتسلى بمشاهدته الناس، كما يشاهد الناس الوحوش وأمساخ الطبيعة. وسنعلق لوحة ملونة مكتوب فوقها بخط عريض: " تعالوا إلى هنا لمشاهدة الطاغية "

فصرخ ماكبث وقد أعاد إليه اليأس شجاعته:

– هذا لن يكون! لن أعيش حتى أقبل الأرض بين قدمي مالكولم الصغير، والرعاع يقذفونني بلعناتهم. ومع أن غابة برنام حضرت إلى جبل دنزينان. ومع أنك أنت الذي تتحداني يا من لست مولود امرأة. فإني سأقاتلك إلى آخر رمق!

ثم هجم على ماكدف هجمة صادقة، ودار القتال بينهما أمدا طويلا، إلى أن تمكن ماكدف في النهاية من هزيمته، فاجتز رأسه وقدمها هدية إلى الملك الشرعي الشاب مالكولم الذي ارتقى العرش في موضع أبيه الملك الوديع دنكان بين هتاف النبلاء وعامة الشعب.

الزوبعة

جزيرة منعزلة في وسط البحر، ليس فيها من السكان إلا رجل متقدم في السن اسمه بروسبيرو، وابنته الشابة الجميلة ميراندا.. لم يكونا من سكان هذه الجزيرة أصلا وقد أتى بميراندا والدها الشيخ إلى هذا المكان وهي بعد صغيرة جدا، ولم تكن وقتئذ لتعي وجه أي إنسان سوى وجه أبيها بروسبيرو.

وكان مأواهما في هذه الجزيرة الصامتة كهف، أو صومعة، منحوت في قلب الصخر، وقد قسم إلى بضع حجرات، كان بروسبيرو يضع في إحداها كتبه، ويطلق عليها حجرة المكتب أو المطالعة، وكان في معظم الأحيان يعالج هناك السحر، وهو الموضوع الغالب على تلك الكتب، والسحر يومئذ هو النوع الأثير عند معظم أهل الثقافة.

ولما كان القدر قد ألقى به وبابنته في هذه الجزيرة المقفرة، وهي جزيرة مسحورة بفعل ساحرة عجوز اسمها سيكو راكس ماتت قبل مجيئه بزمن قصير، فقد رأى في الاشتغال بالسحر فنا يجني منه فوائد جمة وهو مقيم في هذه الجزيرة الغريبة! وبفضل حذق بروسبيرو لافانين السحر، استطاع أن يخلص مجموعة من الجن الطيبين، كانت سيكو راكس قد حبستهم داخل جذوع الأشجار الضخمة، لأنهم رفضوا أن يطيعوا أوامرها الشريرة، ووفاء للعارفة التي أسداها إليهم بروسبيرو وألوا على أنفسهم أن يطيعوه في كل ما يأمرهم به.

وكان على رأس هذه الجماعة من الأرواح الطيبة، الجني الظريف أرييل.ولم يكن الجني أرييل ذا طبيعة شريرة، سوى ما كان يشعر به في معظم الأحيان من

سرور عظيم، حينما يعذب عبدا بشع الخلقة اسمه كاليبان، فقد كان يحقد عليه حقدا شديدا لأنه ابن عدوته العتيدة سيكو راكس.

وكان بروسبيرو قد عثر بهذا المسخ كاليبان في غابة من غابات الجزيرة. وهو مخلوق مشوه تشويها غريبا، ضخم الجسم، وقد يكون القرد أدنى إلى البشر شبها منه، وشرع بروسبيرو يعلم كاليبان الكلام، رحيما به أشد الرحمة، مترفقا به أعظم الرفق، بيد أن طبيعة كاليبان الرديئة التي ورثها في دمائه، عن والدته سيكو راكس، لم تسمح له أن يتعلم أي شيء من الأمور الجميلة النافعة الطيبة، فاضطر بروسبيرو اضطرارا أن يتخذه كما يتخذ الناس العبيد، يكلفه قطع الأخشاب وإحضارها، ويسومه الأعمال الشاقة المجهدة، وكان أرييل هو المسؤول عن مراقبته وإلزامه قضاء تلك الخدمات.

وينبغي أن نذكر هنا أن أرييل كان روحا خفيا لا تراه عين أحد من الناس إلا مولاه بورسبيرو، فلما كان كاليبان يتكاسل عن أداء الأعمال المنوطة به، أو يقعد فيها بدافع الإهمال، كان أرييل يتسلل خلسة ويقرصه قرصا وجيعا، وربما دفع به في ظهره فأوقعه على وجهه في طين المستنقع ثم يتمثل له في هيئة قرد، ويأخذ في إغاظته بحركات مضحكة من وجهه، ثم يغير من هيئته تلك، فيترك شكل القرود إلى صورة القنفد، فيعترض طريق كاليبان متدحرجا بين قدميه فيصرخ كاليبان رعبا، خشية أن يخز القنفد بشوكه قدميه العاريتين، وبهذه الأفانين المحيرة، كان أرييل يتعقب كاليبان بالتعذيب، كي يدفعه دفعا إلى إنجاز ما أوكله إليه بروسبيرو من الأعمال.

وبفضل خضوع هذه الأرواح القديرة، وولائها بالطاعة لمشيئة بورسبيرو، استطاع أن يفرض سلطانه على الرياح والأمواج والبحر، وبأمر منه قامت هذه الأرواح بإثارة نوء عنيف من أنواء البحر، وفي جوف هذه الزوبعة العاتية كانت

سفينة عظيمة بديعة الشكل تضطرب مكافحة جبال الموج التي كانت تهددها في كل لحظة بالتدمير والابتلاع.

ووقف برويبسرو على الشاطئ يشير لأبنته إلى ذلك المنظر، ويقول لها أن تلك السفينة المليحة المهددة بالغرق تقل مخلوقات حية من طرازه وطرازها، فصاحت ميراندا:

– يا أبتاه! استحلفك يا والدي العزيز أن تستخدم سحرك وفنونك في رفع هذا البلاء رحمة بهؤلاء، ما دامت هذه الزوبعة الفظيعة قد ثارت بإشارة منك، انظر! إن السفينة توشك أن تتناثر حطاما، يا للنفوس المسكينة! إنهم سيهلكون جميعا. ليتني أملك السلطان على البحر، أذن لأمرته أن يغور تحت الأرض، أول من أن تتحطم سفينة جميلة مثل هذه مع من تقلهم من نفوس غالية!

فقال لها والدها بروسبيرو:

– هدئي من روعك يا ابنتي ميراندا، فلن يصيبهم بأس، هذا ما أمرت به، ولن يلحق بأحد من ركاب السفينة أذى

– لماذا أذن يا أبي أمرت العاصفة أن تهدر؟

– من أجلك أنت يا ابنتي العزيزة أثرت الزوبعة!

– وكيف يكون ثورانها من أجلي يا أبتاه؟

– إنك يا بنيتي تجهلين من أنت، أو من أين أتيت، ولا تعرفين عني شيئا سوى أنني أبوك، وإنني أعيش في هذا الكهف الحقير.

– نعم يا أبي، ذلك مبلغ علمي.

- ألا تذكرين يا ابنتي وقتا سلف قبل أن تسكني هذه الصومعة؟ أظنك لا تذكرين شيئا. ومن أين لك أن تذكري وأنت قد حضرت إلى هنا قبل أن تكملي العام الثالث من عمرك.

بيد أن ميراندا أجابت أباها قائلة:

- بل أني أذكر زمنا قبل ذلك الزمن.

- عجبا؟ وما الذي تذكرينه؟ أهي صورة بيت أم صورة شخص؟ قولي لي يا ابنتي ما تستطيعين أن تذكريه.

فلبت ميراندا لهفته قائلة:

–إن الذي أذكره يتراءى لي وكأنه ما بقى في النفس من آثار حلم، ولكن ألم يكن لي ذات يوم أربع أو خمس نساء يقمن على خدمتي؟

فأجابها بروسبيرو قائلا:

- بل كان لك من القائمات على خدمتك عدد أكبر من هذا..ولكن كيف أمكن لذلك الأمر أن يظل حيا في ذهنك؟ قولي لي أذن هل تذكرين الطريقة التي أتيت بها إلى هنا؟

فقالت ميراندا:

- كلا يا سيدي. لا أذكر شيئا أكثر مما قلت لك.

وعندئذ شرع بروسبيرو يحدثها حديث ذلك الزمن الغابر:

- منذ اثنتي عشرة سنة يا ميراندا كنت أنا أبوك دوق ميلانو، وكنت أنت ابنتي الوحيدة أميرة، والوارثة لعرش الدوقية من بعدي، وكان لي أخ أصغر مني.

- هو عمي إذن.. وما اسمه؟

- هو عمك، واسمه أنطونيو، وكنت أثق به في جميع الأمور، وأوكل إليه كل شأن، ولما كنت شغوفا بالعزلة والانكباب على الدرس، كثيرا ما كنت أترك إدارة شئون الدولة إلى عمك هذا، أخي المخادع – فهذا هو ما اتضح من أمره فعلا – وكنت أهمل كل مصالحي الدنيوية لأدفن نفسي بين كتبي، مخصصا وقتي كله لتثقيف عقلي، فلما وجد أخي أنطونيو نفسه قابضا على جميع سلطاتي، أخذ يعتبر نفسه الدوق حقا وفعلا. كانت الفرصة التي أتحتها له لي يتمتع بالظهور والشهرة لدى رعاياي، أيقظت في طبيعته الخسيسة طموحا وغرورا، ففكر في اغتصاب دوقيتي مني، وسرعان ما أقدم على ذلك بمساعدة ملك نابولي، وهو عاهل قوي البأس من أعدائي.

وقاطعته ميراندا متسائلة:

- ولماذا يا أبي لم يقتلونا في تلك الساعة؟

فأجابها أبوها قائلا:

- يا بنيتي إنهم لم يجسروا على ذلك، لأن شعبي كان يكن لي حبا عظيما جدا.
- وماذا فعل عمي كي يتخلص منا؟
- حملنا أنطونيو على ظهر سفينة، ولما وصلت سفينتنا إلى وسط البحر على بعد فراسخ كثيرة من الشاطئ، أكرهنا على النزول إلى زورق صغير، خال من السكان (الدفة) أو الشراع أو الصاري، وفي ذلك الزورق، تركنا، وفي ظنه أننا هالكان لا محالة.
- وكيف لم نهلك فعلا يا أبتاه؟
- إن نبيلا من أشراف بلاطي الطيبين اسمه جونزالو، كان يحبني كثيرا فتمكن من أن يضع في ذلك الزورق خلسة ماء وزادا وبوصلة وثيابا، وطائفة من الكتب

التي تبحث في السحر، كان يعرف أنني أعتز بها أكثر من اعتزازي بعرش دوقيتي.

فتأوهت ميراندا وقالت:

– يا أبي المسكين لا بد أنني جشمتك مشاقا كثيرة في تلك الظروف!

فقال بروسبيرو بحرارة:

– كلا يا حبيبتي، فقد كنت ملاكا صغيرا صان حياتي، كنت ملاكي الحارس، وكانت ابتسامتك البريئة تدفعني إلى التجلد لمصائبي، وكان الزاد الذي دسه جوانزالو كافيا لغذائنا إلى أن هبطنا هذه الجزيرة المقفرة، ومنذ تلك اللحظة كان مصدر سروري الأعظم هو تعليمك يا ميراندا، وقد حسن انتفاعك بكل ما بذلته من جهد في هذا التعليم.

– أجزلت لك السماء ثوابها، يا أبي العزيز، على ذلك الجهد الطويل، والآن أتوسل إليك أن تخبرني عن السبب الذي دفعك أن تثير هذا النوء البحري العاصف حول هذه السفينة.

فقال أبوها:

– أعلمي إذن أن هذه الزوبعة هي التي ستلقي بأعدائي إلى يدي.

– وكيف ذلك يا أبتاه؟

– إن العاصفة ستقذف إلى شاطئ هذه الجزيرة بركاب السفينة، ومن بينهم ملك نابولي وأخي الظالم.

وقبل أن تفتح ميراندا فمها بكلمة أخرى، كان بروسبيرو وقد مسها بعصاه السحرية مسا رقيقا، استولى عليها نعاس عميق، ثم مثل الجني أرييل أمام مولاه

وقدم إليه تقريره عن مجرى العاصفة، وما فعله بركاب السفينة.

وإنما أقدم بروسبيرو على تنويم ابنته حتى لا تسمع أرييل وهو يحاوره، ذلك أنها لم تكن ترى الأرواح المسخرة في خدمته، فلم يستحسن بروسبيرو أن تراه ابنته يتحدث إلى الهواء فترتا ع..

وبعد أن سمع بروسبيرو تقرير أرييل قال له:

- أواثق أنت أنك أتممت مهمتك على خير وجه؟

فأدلى أرييل بوصف رائع حي للعاصفة، ولألوان الرعب التي استولت على البحارة، وكيف كان فرديناند نجل ملك نابولي هو أول من ألقى بنفسه إلى اليم، حيث حمله أرييل وهو غير منظور، وكيف أن الملك جزع جزعا مجنونا، لأنه خيل إليه أن يرى ابنه العزيز وقد ابتلعته الأمواج فهلك، فسأله بروسبيرو:

- وماذا صنعت به؟

- إنه سليم معافى، في أحد أركان الجزيرة، جالسا وقد عقد ذراعيه على صدره، يولول محزونا، باكيا فقد والده الملك الذي يخاله من المغرقين، لم يصب الأمير بسوء، ولم تمس شعرة من رأسه بسوء، وحتى ثيابه الأميرية لم يؤثر فيها موج البحر، فلئن كانت تقطر ماء، إلا أنها تبدو أجمل وأروع مما كانت.

- هذا عهدي بحصافتك يا أرييل، جئتني به، لأن ابنتي ينبغي أن ترى هذا الأمير الشاب، وأين الملك. وأين أخي؟

- تركتهما يبحثان عن فرديناند، وأملهما في العثور عليه ضعيف فهما يظنان أنه هلك أمام عينهما.

- وبحارة السفينة؟

- لم يغرق منهم أحد، وإن كان كل منهم يظن نفسه نجا من الموت وحده.
- والسفينة؟
- أخفيتها عن عيونهم فظنوها غرقت، ولكنها سالمة في المرفأ!
- لقد قمت بالمهمة يا أرييل بكل دقة وأمانة، ولكن ثمة مزيد من العمل أرغب في إنجازه.
- أتقول يا سيدي أن هناك مزيدا من العمل.. إذن أسمح لي أن أذكرك يا مولاي أنك وعدتني بالعتق، أرجوك أن تتذكر أنني خدمتك خدمة جليلة، ولم أخدعك بالباطل والأكاذيب، ولم أقترف في العمل خطأ، وقمت بخدمتك من غير ضن أو مشاجرة أو ضجر.

فصاح به بروسبيرو قائلا:

- ماذا تقول؟ أتقول هذا الكلام الآن كأنك لا تذكر أي عذاب مرير ذلك خلصتك منه؟ هل نسيت الساحرة الشريرة سيكو راكس التي كادت الشيخوخة والحقد أن تجعلاها من فرط الانحناء شخصا مزدوجا؟ أين ولدت هذه الساحرة؟ تكلم!
- في الجزائر يا سيدي.
- أحقا! يبدو لي أنه من الضروري تذكيرك بالحالة التي وجدت عليها ما دمت قد نسيت، إن هذه الساحرة الشريرة سيكو راكس لم يستطع أحد من الأحياء أن يتحمل جيرتها بسبب فظائع سحرها التي تقشعر لذكره الأبدان، فنفيت من وطنها الجزائر، وفي هذه الجزيرة المقفرة تركها الملاحون.ولما تستطع أنت لرقة قلبك ولطافة روحك أن تنفذ أوامرها الشريرة، حبستك في شجرة، وهناك عثرت عليك تصرخ وتولول، فتذكر يا أرييل أنني أنا الذي خلصتك

من ذلك العذاب.

فخجل أرييل أن يبدو ناكرا للجميل، وقال:

- صفحك يا سيدي العزيز، وسأطيعك في كل ما تأمرني به.

- إنك إن فعلت سأمنحك حريتك.

وبعد ذلك أصدر إليه الأوامر بالتفصيل، ثم انصرف أرييل ليقوم بتنفيذها بكل دقة وأمانة. وكان أول هذه المهام أنه خف إلى حيث كان قد ترك فرديناند في بقعة مهجورة من الشاطئ، فوجده لم يزل جالسا على العشب غارقا في لجة الأحزان واليأس كما كان.

ولما صار أرييل أمامه قال له:

- أيها السيد الشاب، سأنقلك من هنا سريعا فإني مكلف أن أحضرك بين يدي مولاتي ميراندا كي تنظر إلى شكلك الجميل فتعال الآن يا سيدي قم واتبعني.

وشرع أرييل بعد ذلك يغني قائلا:

"على عمق خمس قامات كاملة يرقد أبوك!

"ومن عظامه تكونت أحجار المرجان.

"واللآلئ. هي ما صارت إليه عيناه.

"فلا شيء منه أدركه العفاء.

"وإنما ناله بالتحوير اله البحر

"فجعله شيئا نفيسا عجيبا

"وها هي ذي حوريات البحر تدق أجراس جنازته

"اسمع! أبي اسمعها الآن – دنج دونج دن –"

فكانت هذه الأنباء المذهلة عن والده الفقيد كافية لإخراج الأمير من غيبوبة شروده التي كان مستغرقا فيها، ونهض فتبع وهو متعجب مذهول صوت أرييل الذي لبث على تغنيه ليقود خطواته ما دام شكله غير منظور لأعين الناس ما خلا بروسبيرو.. وهكذا اقتيد فرديناند إلى حيث كان بروسبيرو وميراندا جالسين في ظل شجرة كبيرة.

لم تكن ميراندا قد رأت شكل إنسان من قبل ما عدا والدها، فلما صار فرديناند قبالتها قال بروسبيرو لابنته:

– يا ميراندا. ما هذا الذي ترين هناك؟

فعرت ميراندا دهشة شديدة، وقالت:

– أبي هذا لا شك روح من الجان، إلهي! لماذا يتلفت حوله هكذا كالمأخوذ؟ صدقني يا سيدي أنه مخلوق جميل الصورة، أليس جنيا؟

فقال لها أبوها بجد:

– كلا يا بنية، فإنه يأكل، وينام، وله حواس كحواسنا، فهذا الشاب الذي ترين أمامك الآن كان على ظهر السفينة. وقد غير سحنته الأسى بعض التغير، وإلا لرأيت إنسانا وسيما.

– وفيما أساه يا أبي؟

– لقد فقد رفاقه، وتلفته فيما حوله بقصد البحث عنهم .

وكانت ميراندا تظن جميع الرجال ذوي وجوه متجهمة متغضنة ولحى أدركها المشيب، على غرار والدها، فسر قلبها جدا لمرأى هذا الأمير الشاب الجميل

الصورة. كذلك فرديناند ما إن رأى هذه الآنسة الحسناء في ذلك المكان القفر، وعلى أثر ما ملأ سمعه من أصوات خفية، حتى أيقن أنه وقع على جزيرة من الجزائر المسحورة، ولم يشك في أن ميراندا هي آلهه ذلك المكان السحري، وشرع يخاطبها على هذا الأساس.

وبادرت ميراندا ترد على خطابه في شيء كثير من الحياء، لأنها أول مرة في حياتها تحدث رجلا غير أبيها، فصححت له وهمه.

قائلة إنها ليست من الآلهة ولا من الجان، وإنما هي فتاة من الأنس.

وأوشكت أن تستطرد فتحدثه بجلية شأنها كله، لولا أن بروسبيرو قاطعها وحال بينها وبين الاسترسال.

والحقيقة أن بروسبيرو سر كثيرا لما رآه من آيات وقوع كل من الشابين من قلب الآخر أحسن موقع، وأدرك أن الحب من النظرة الأولى كما نقول بلغة عصرنا قد ربط بينهما، إلا أن الشيخ الحكيم عزم على أن يمتحن إخلاص فرديناند وثباته على حبه الوليد، لهذا قرر أن يضع في طريق حبهما شيئا من العراقيل.

وتقدم بروسبيرو إلى الأمام خطوة، ثم وجه الخطاب إلى الأمير بلهجة صارمة:

- أيها الشاب، إن صدقت فراستي فيك فأنت قد نزلت هذه الجزيرة جاسوسا لأهل مملكتك، بقصد اغتصابها مني أنا مالكها الشرعي، لم تخدعني إمارات تصنعك، فاتبعني، وسوف أشد وثاق رجليك إلى عنقك، ولن يكون شرابك إلا من ماء النهر الأجاج، وأما طعامك فمن الأعشاب المتغضنة والقواقع.

فقال فرديناند وهو يستل سيفه:

- كلا، لن أرضخ لشيء من ذلك، ما لم تجبرني عليه قوة عدو، ولا قبل لي بدفعها.

ولكن بروسبيرو لما رآه يمتشق حسامه حرك عصاه السحرية فسمره في مكانه ويده يابسة في الهواء فلبث في موضعه ساكنا.

وعندئذ أظهر الحب طويته فيما فعلته ميراندا، إذ اجترأت على والدها صائحة:

- لماذا تعامله بكل هذه الفظاظة؟ رفقا به يا سيدي.

وأنا الضامنة له بحياتي، فهو ثاني رجل رأيته في عمري، يبدو لي من أول وهلة أنه رجل صدق.

فصرخ فيها أبوها قائلا:

- صه! لو نطقت بكلمة أخرى فإني قاتلك يا فتاو، ماذا أرى؟ محامية أنت عن مغتصب نصاب؟ أتظنين أن الدنيا قد أقفرت من الرجال الملاح، لأنك لم تري سواه بعد "كاليبان" الممسوخ! اعلمي إذن أيتها الحمقاء أن معظم الرجال يفضلون هذا الشاب، مثلما يفضل هذا الشاب "كاليبان".

وكان بروسبيرو يعني بهذا الزعم أن يختبر حقيقة عواطف ابنته نحو فرديناند، فكان جوابها:

- إن مطامع قلبي متواضعة جدا يا سيدي، فأنا قانعة بهذا الرجل ولا تساورني رغبة إن أرى خيرا منه.

فالتفت بروسبيرو إلى الأمير وقال له:

- ها أنت ذا ترى أيها الشاب أنه لا طاقة لك بعصياني وأن قوتي كفيلة بقهرك على مشيئتي، فاتبعني.

ووجد فرديناند نفسه مسوقا بقوة خفية إلى اقتفاء خطوات بروسبيرو وقد

جرده السحر من كل قدرة على المقاومة، فقال وهو يرى نفسه يدخل إلى الكهف في أعقاب آسره الشيخ:

- ما أعجب هذا حقا! فإني مسلوب القوة فعلا، كأنما كل ما في من حيوية قد احتجز عني، أو كأنني في حلم، ولكن وعيد هذا الرجل، وما أشعر به من الضعف، ليبدون لي كله هينا وأنا في سجني إن استطعت من غيابه ذلك السجن أن أملأ عيني مرة في اليوم من هذه الفتاة الحسناء.

ولم يطل حبس بروسبيرو لفرديناند داخل الصومعة، بل سرعان ما أخرجه إلى العراء وكلفه بأداء مهمة شاقة، متحريا أن تعرف ابنته مبلغ ما في ذلك العمل من مشقة، ثم اصطنع الرغبة في الدخول إلى مكتبه، بيد أنه في الحقيقة كان يرقبهما خلسة.

وكان العمل الذي أمر بروسبيرو فرديناند أن يقوم به، هو تكويم كتل ضخمة ثقيلة جدا من جذوع الأشجار بعضها فوق بعض، ولما كان أولاد الملوك غير مدربين ولا متعودين على العمل اليدوي المضنى، فسرعان ما رأت ميراندا حبيبها يكاد يهلك من فرط الأعياء، فقالت له:

-واحرباه لا ترهق نفسك في العمل فوق طاقتك، فوالدي الآن عاكف على كتبه ومطالعاته، فجانبه مأمون مدى ثلاث ساعات، فأدرك قسطا من الراحة.

فقال فرديناند:

- سيدتي العزيزة، لا جرأة لي على ذلك، وينبغي أن أفرغ من مهمتي قبل أن أخلد إلى شيء من الراحة

فقالت له ميراندا عندئذ:

- اجلس أنت، وسأحمل أنا عنك هذه الكتل برهة ريثما تستريح.

فأبى فرديناند أن يطيعها في ذلك، وبدلا من أن تكون ميراندا عونا له كما أرادت، أصبحت أداة تعطيل، لأن الأحاديث شجرت بينهما مليا، فأصبح نقل الكتل الخشبية يجري بغاية البطء.

وكان بروسبيرو كما نعلم كلف فرديناند بذلك العمل ليبلو مقدار محبته لميراندا، ولم يكن طول ذلك الوقت عاكفا على مكتبه كما خالت ابنته، بل كان واقفا عن كثب منهما، ولكنهما لا يريانه بفضل حيلته السحرية، وكان يسمع كل ما يتفوهان به من أحاديث.

وسألها فرديناند عن اسمها، فاحمر وجهها وقالت:

- ميراندا.. وإن كان والدي أمرني أمرا قاطعا ألا أفضي إليك به.

فابتسم بروسبيرو وهما لا يريانه، ابتسم لهذه البادرة الأولى من بوادر خروج ابنته على طاعته، لأنه رأى في ذلك آية طبيعية من آيات تفتح قلب الفتيات لحب شبان غرباء، ولما كان هو الذي دبر بسحره وقوع ابنته في الحب على هذه الصورة المفاجئة، لم يغضب عندما أذهلها الحب عن نواهي أبيها.وانصت بروسبيرو بعد ذلك وهو في غاية السرور إلى كلام طويل تحدث به فرديناند إلى ميراندا، معاهدا إياها أن يحبها حبا، أشد وأسمى من حبه لكل من رآهن في حياته من النساء

ولما جعل يطرى جمالها، مقسما أنه يفوق جمال كل نساء العالمين، كان جوابها عليه بقولها:

- أنا لا أتذكر وجه أي امرأة، ولا رأيت رجالا سواك أيها الصديق الطيب ووالدي العزيز، فلا علم لي بأشكال الناس وراء هذا البحر كيف عساها أن تكون، ولكن صدقني يا سيدي إني لا أشتهي رفيقا لي من بين أهل الدنيا

جميعا سواك، ومخيلتي عاجزة أن تصور رسما يمكن أن يهفو إليه قلبي غير رسمك. ولكن أخشى يا سيدي أنني انطلقت في الكلام معك أكثر مما ينبغي، غافلة عن تنبيهات أبي وتحذيره.

وعندئذ ابتسم بروسبيرو، وهز رأسه جملة مرات وقال لنفسه:

– إن الأمور سائرة على النحو الذي قدرته تماما، وستغدو ابنتي ملكة متوجة على عرش مملكة نابولي.

وبعد ذلك شرع فرديناند يحدث ميراندا بعبارة بليغة منمقة على أسلوب أهل البلاد والأمراء، فأخبرها أنه الأمير الوارث لتاج نابولي، وأنه يتمنى أن تكون شريكته في ذلك التاج وملكته الشرعية.

فاختلج صوت ميراندا وهي تهتف به في سذاجة واندفاع:

– آه يا سيدي! ما أحمقني أن أبكي مما أنا حرية أن أسر به وأفرح، واغفر لي أنني لا أعرف من أسلوب الكلام إلا ما جرى على السجية من وحي الفطرة البريئة، وأني بهذا اللسان أقول لك أنني زوجتك ما رغبت الزواج مني.

فهم فرديناند أن يتعلق بها شاكرا، لولا أن بروسبيرو حال بينه وبين ذلك بأن ظهر لعينيهما فجأة، وروع الفتي والفتاة.

فقال لابنته:

– لا تخافي شيئا يا ابنتي، فإني سمعت كل ما قلت، وقد شملته بإقراري، وأنت يا فرديناند، لئن كنت قد أخذتك من الشدة بما لا طاقة لك به، فإني معوضك عن ذلك أجزل العوض، وواهبك ابنتي، وإنما كل الذي عانيته لم يكن إلا من قبيل الفحص عن حقيقة حبك، وأشهد أنك صمدت للامتحان أصدق صمود، جائزتي لك على ما برهنت عليه من حب صادق أن تأخذ ابنتي، ولا

تهزأ أن تفاخرت بها فجعلتها فوق الذي تثني به عليها.

ثم أخبرهما بعد ذلك أن لديه أعمالا تقتضي حضوره بنفسه، ورغب إليهما أن يجلسا على سجيتهما للسمر ريثما يعود. وكان هذا الأمر أقرب إلى قلب ميراندا من سائر أوامره، فكانت خفيفة النفس إلى طاعته فيه.

وبعد أن غادرهما بروسبيرو في خلوتها، استحضر الجني أرييل، فسرعان ما مثل بين يديه، متلهفا أن يرفع إليه تقريره عما فعله مع شقيق بروسبيرو وملك نابولي، فقال أنه تركهما وقد كاد عقلهما يذهب ويغشي عليهما من الرعب للأفانين العجيبة التي يمر بها سمعهما وبصرهما..

- تركتهما يا مولاي حتى أعياهما التجوال على غير هدى، وأنهكهما الجوع والعطش، وعندئذ بسطت أمامهما فجأة مأدبة فاخرة شهية، وما إن هما بالطعام حتى تراءيت لهما على صورة وحش خرافي شديد الشراهة كاشر الأنياب له جناحا عقاب، وسرعان ما اختفت المائدة في جوفي. وبعد ذلك أتممت ذهولهما بأن جعلت ذلك الوحش يكلمهما بلسان البشر، فيذكرهما ما اقترفاه من جور وقسوة يوم طردا بروسبيرو من دوقيته، وتركاه وابنته الطفلة يهلكان في البحر، وأن هذا العذاب الشديد قد حق عليهما جزاء وفاقا لذلك الجرم الخطير.
- وعندئذ يا مولاي أظهر أخوك أنطونيو وأظهر ملك نابولي الندم على ما اقترفاه من الجور في حقك، والحق يا مولاي أن الشفقة أخذتني بهما مع أنني من الجن ولست بشرا مثلهما، وأعتقد يقينا أنهما في ندمهما صادقين.

وعندئذ قال له بروسبيرو:

- إذن أحضرهما إلى هنا يا أرييل، فلئن كنت — وأنت الجني— قد أدركتك بهما

الشفقة والرحمة، فكيف لا يرق لهما قلبي وأنا بشر مثلهما؟ أحضرهما على جناح السرعة يا عزيزي أرييل.

وإن هي إلا برهة حتى كان أرييل قد عاد ومعه ملك نابولي، والأخ المخادع أنطونيو، وفي ركابهما الشيخ جونزالو الذي تبع أرييل مذهولا من تلك الموسيقى الرائعة التي كان أرييل يطلقها في الجو ليجتذبهم بها إلى حضرة مولاه.

وجونزالو هذا هو بعينه ذلك الشخص الذي دفعه حبه وإخلاصه المكين أن يزود بروسبيرو بالمئونة وكتب السحر الثمينة خلسة، عندما قام الأخ الخائن الشرير بتركه للمقادير في زورق صغير في وسط البحر، فكانت في ذلك نجاة بروسبيرو وابنته الطفلة.

وكان الأسى والفزع قد غشيا على أذهانهم فلم يعرفوا بروسبيرو، فاهتم أن يكشف حقيقته أولا للشيخ الطيب جونزالو وأخذ يدعوه منقذ حياته، وعندئذ عرف أخوه وعرف ملك نابولي أن هذا هو بروسبيرو المظلوم.

وبدمع هتون وتذلل حزين وندم صادق أخذ أنطونيو يضرع إلى أخيه كي يجود عليه بمغفرته، وعبر الملك كذلك عن ندمه العميق على ما قدمه من العون لأنطونيو كي يخلع أخاه، فصفح بروسبيرو عنهما.وأخذ الأثنان يلحان عليه في استرداد دوقيته، فقال بروسبيرو لملك نابولي:

– إني لا أصفح عنك فحسب، بل وأدخر لك هنا هدية سنية.

ثم فتح بابا فظهر للملك ابنه وولي عهده فرديناند يلعب الشطرنج مع ميراندا!

وما من كلمات يمكن أن تعبر عن فرح الأب والأبن الذي لا مزيد عليه بذلك اللقاء على غير انتظار، فكل منهما كان يظن الآخر ذهب طعمه للبحر في

هدير العاصفة.

أما ميراندا فجعلت تهتف:

- يا للعجب! ما أجمل هذه المخلوقات وأبهاها! لا شك أن عالما يعمره قوم مثل عالم رائع جميل!

وكان إعجاب ملك نابولي وافتتانه بجمال الحسناء ميراندا وبراعة مفاتنها ومزاياها، لا يقل عن إعجاب ولده بها، فصاح قائلا:

- من هذه الحسناء؟ يخيل إلي أنها هي الآلهة التي فرقتنا ثم جمعت بيننا على هذا النحو.

فأجابه فرديناند، ضاحكا من وقوع أبيه في الخطأ عينه الذي أوقعه فيه مرأى ميراندا:

- كلا يا مولاي، إنها ليست من الآلهة ولا الجان، وإنما هي بشر سوي، إلا أن عناية السماء جعلتها من نصيبي، فإني طلبت منها يدها وأنا أحسب أنك لست على قيد الحياة حتى أستأذنك، وهي كريمة بروسبيرو هذا، دوق ميلانو الذائع الصيت الذي سمعت الكثير عن فضائله ولكن لم أراه إلا الآن.وعلى يده كتبت لي حياة جديدة، ونصب من نفسه أبا ثانيا لي، إذ منحني هذه الآنسة الجليلة الحسناء.

فأجابه الملك قائلا:

- إذن يجب أن أكون أباها، وما أعجب أن يتقدم والد إلى ابنته بطلب الغفران!

فقال بروسبيرو:

- دع عنك هذا، فما ينبغي أن نعود لذكر ما فات من متاعبنا، ما دامت قد

انتهت إلى ختام سعيد.

ونهض بروسبيرو بعد ذلك إلى أخيه فعانقه، وكرر عليه مواثيق صفحه، ثم التفت إلى السماء قائلا:

- إن حكمة العناية الإلهية التي لا يسبر لها غور، شاءت أن أطرد من دوقية ميلان الصغيرة كي ترث ابنتي الوحيدة عرش مملكة نابولي، فلولا أنها التقت بالأمير فرديناند في هذه الجزيرة المقفرة ما كتب لقلبيهما أن يربط الحب بينهما برباطة هذا الوثيق.

وقصد بروسبيرو بهذه الكلمات الرقيقة أن يسري عن أخيه، ولكن هذه العبارات ملأت أنطونيو خزيا وألما فبكى وشرق بكلماته وغص بدموعه، وبكى الشيخ العطوف جونزالو فرحا بهذا الصلح الموفق، ورفع كفيه إلى السماء يستنزل البركات على رأي الحبيبين الشابين.

وبعدئذ أخبر بروسبيرو الجميع أن سفينتهم سالمة في المرفأ وأن جميع بحارتها على سطحها، وأنه وابنته سيصحبانهم إلى أرض الوطن في اليوم التالي.

- أما الآن أيها السادة فأرجو أن تصيبوا شيئا من المأكل التي يستطيع كهفي المتواضع أن يقدمها لكم، وأما تسليتكم هذه الليلة فلا أملك لها شيئا أكثر من رواية تاريخ حياتي من مبدأ هبوطي هذه الجزيرة المقفرة.

ودعا بعد ذلك "كاليبان" كي يهيئ شيئا من الطعام، ويرتب الكهف لنزول الضيوف، فدهش الجميع لبشاعة منظر هذا العبد الممسوخ الذي قدمه إليهم بروسبيرو قائلا إنه الخادم الوحيد الذي يقوم على حاجاته.

وقبل أن يغادر بروسبيرو الجزيرة، أعفى أرييل من خدمته ففرح أرييل فرحا لا يقدر، لأنه على إخلاصه الشديد وحبه واعترافه بجميل مولاه، كان حبه لحريته

أعظم واشتياقه إليها أشد، كي يتجول طليق السراح في الهواء كالطيور البرية تحت الأشجار الخضراء، وبين أفانين الثمار وفواح الأزهار.

وقال بروسبيرو للجني الصغير قبل أن يطلق سراحه:

- عزيزي اللطيف الحيلة البارع الماحل أرييل! كم سأفتقدك بعد اليوم، ولكني مجيبك إلى رغبتك ومطلق سراحك.

فقال أرييل:

- شكرا لك يا مولاي العزيز على ما أنعمت به من الحرية.ولكن آذن لي أن أحف بسفينتك في طريقها إلى أرض الوطن، وأرسل عليها ريحا مواتية، ليكون ذلك ختام ما يقدمه إليك جنيك المخلص من عون، وفيه يكون غاية ما يشفي ولائي من وداع لخير السادة، وبعدها أيها المولى أنطلق لأحيا في بحبوبة الحرية أبهج حياة.

وأنشد أرييل هذه الأغنية بصوت ساحر:

"حيث تمتص النحلة رحيق الزهر، أمتص أنا

"في حجر أزهار المراعي يكون رقادي

"وعندما ينطلق نعيق البوم أستلقي وأنام

"وعلى ظهر الخفاش أحلق وأطير

"وأطارد أنسام الصيف في ابتهاج

"بابتهاج أي ابتهاج سوف أعيش الآن

ونهض بروسبيرو إلى كتب السحر وعصاه فدفنهما في أعماق الثرى، وقد عزم ألا يلجأ إلى فن السحر بعد ذلك، فلم يعد يتمنى شيئا تكمل به سعادته

سوى العودة إلى مسقط رأسه ليسترد دوقيته، ويشهد زفاف ابنته إلى الأمير فرديناند، ذلك الزفاف الميمون الذي قرر ملك نابولي أن تدق له الطبول بكل أبهة بمجرد العودة إلى نابولي.

وفي رعاية أرييل الأمينة، وصل الجميع إلى هناك بعد رحلة ميمونة.

حلم ليلة صيف

كان في مدينة أثينا قانون عتيق جائر، يخول المواطنين سلطة مطلقة في إكراه بناتهم على الزواج من أي شخص يختارونه لهن، وكان من حق الوالد بمقتضى ذلك القانون أن يطالب بإعدام ابنته إن هي أبت الزواج من الخطيب الذي ارتضاه لها! ولكن طبيعة الحنان الأبوي أقوى من سلطان القانون، فما من أب كان يسعى إلى إعدام ابنته، مهما بدا من تمردها على إراداته، فظل هذا القانون العتيق حبرا على ورق.. وإن كان الآباء يتهددون به بناتهم لمجرد الإرهاب وحملهن على الرضوخ لمشيئتهم.

وحدث ذات مرة أن طلب أب تنفيذ الشريعة القديمة في ابنته، وكان ذلك حين مثل شيخ اسمه إيجيوس بين يدي ثيسيوس الذي كان دوق أثينا الحاكم، شاكيا إليه ابنته هرميا التي أمرها أن تتزوج شابا سليل أسرة أثينية شريفة اسمه ديمتريوس، فرفضت أن تطيعه في هذا الصدد لأنها تحب شابا أثينيا آخر اسمه ليساندر، وطلب ايجيوس من ثيسيوس تنفيذ القانون الصارم على ابنته العاصية.

ودافعت هرميا عن نفسها، معتذرة عن عصيانها بأن ديمتريوس هذا الذي ارتضاه أبوها خاطبا لها، كان قد أعلن من قبل حبه لصديقتها العزيزة هيلينا، وأن هيلينا تعشق ديمتريوس إلى حد الذهول عن نفسها، فهي مسلوبة اللب بحبه.

وكان هذا المبرر النبيل الذي احتجت به هرميا حريا أن يحرك قلب أي إنسان ويقنع عقله، ولكن ايجيوس القاسي لم يأبه..ومع أن قلب الأمير الرحيم ثيسوس رق للفناة الجميلة، إلا أنه لم يكن يملك سلطان تغيير قوانين بلده، وكل ما يخوله له القانون هو أن يعطي هرميا مهلة أعذار مقدارها أربعة أيام، تراجع فيها

نفسها، وفي نهاية هذه المهلة، لا مناص من ضرب عنقها، إن بقيت على رفضها الزواج من ديمتريوس!

وانصرفت هرميا من حضرة الدوق وقد أسقط في يدها، فتوجهت إلى حبيبها ليساندر، وأخبرته بالخطر الذي أحدق بها، وكيف أنها مكرهة على الاختيار بين أمرين: إما أن تتخلى عنه فتتزوج ديمتريوس، وإما أن تفقد حياتها في مدى أربعة أيام.

واغتم ليساندر غما عظيما عندما سمع هذه الأنباء المشؤومة، ثم تذكر أن له عمة تقيم على مسافة من أثينا، وأن المكان الذي تقيم فيه لا يدخل في دائرة ذلك القانون الجائر، فذلك القانون كان مطبقا على مدينة أثينا فقط ولا يتجاوز حدود أسوارها القديمة. واقترح ليساندر على هرميا أن تتسلل من دار أبيها تحت جنح الليل فتنطلق معه إلى دار عمته، حيث يسعه أن يتزوجها في غير خشية من غضب أبيها أو سطوة قانون المدينة..

واستطرد قائلا:

- وسيكون لقاؤنا يا هرميا في الغابة التي تبعد بضعة أميال عن المدينة، في هذه الغابة البهيجة التي طالما شهدتنا أنا وأنت وهيلينا نتنزه سيرا على أقدامنا أبان الربيع.

فتقبلت هرميا هذا الاقتراح بفرح عظيم، وكتمت نية الفرار عن سائر الناس، عدا صديقتها هيلينا.

ولكن هيلينا فتاة سلب الحب رشدها، وأكثر ما تقدم الفتيات على حماقات هائلة بسبب الحب، فمن غير تبصر أو رعاية لعهد الصداقة والوفاء نبت في رأسها أن تمضي إلى حبيبها ديمتريوس خاطب هرميا فتخبره بذلك السر، مع أنها

لا يمكن أن تغنم شيئا من إفشاء سر صديقتها، اللهم إلا لذة ضعيفة لا غناء فيها، هي لذة اقتفاء أثر حبيبها الهاجر الخائن لعهدها إلى تلك الغابة، فقد كانت موقنة أن ديمتريوس سيذهب إلى هناك في أثر خطيبته المتمردة هرميا.

وكانت الغابة التي أزمع ليساندر أن يلتقي فيها بحبيبته هرميا، هي المتنزه الأثير الذي يرتاده جماعة دقاق الحجم من لطاف الجن، وكان ملك هذه الطائفة من الجن الصغار هو الملك أوبيرون، وكانت ملكتهم زوجته الملكة تيتانيا، وفي هذه الغابة كانا وحاشيتهما من صغار الجن والاتباع يعقدان عند منتصف الليل ندوات المنادمة والقصف.

واتفق أنه كان في ذلك الحين نزاع قائم بين الملك الصغير، والملكة الصغيرة، فلم يكونا كعادتهما يلتقيان في ضوء القمر، وفي المماشي الظليلة من تلك الغابة الجميلة، بل كانا يتعاركان في أنحائها، حتى يدب الخوف والفزع إلى اتباعهم الصغار، فيلوذون بأكمام الزهر احتماء بها من رشاش المعركة.

أما سبب هذا الخلاف المشئوم بين الزوجين الملكيين، فهو إصرار تيتانيا على عدم منح أوبيرون صبيا صغيرا كانت أمه صديقة

لتيتانيا، فلما ماتت اختطفت تيتانيا الطفل من مربيته وأتت به إلى الغابة فربته فيها.

وفي الليلة التي كان مقررا فيها أن يلتقي العاشقان هرميا وليساندر في تلك الغابة، حدث أن التقت تيتانيا وهي سائرة بين وصيفاتها بالملك أوبيرون يحف به أعضاء بلاطه من دقاق الجن، فتحرش بها الملك قائلا:

– ساء هذا اللقاء في ضوء القمر أيتها المغرورة تيتانيا!

فأجابته الملكة قائلة:

- ماذا تقول يا أوبيرون؟ أهذا أنت قد ظهرت؟ أيها الأتباع هيا نبتعد عن هذا الطريق، فإني قد حرمت على نفسي صحبته!

فقال أوبيرون:

- على رسلك أيتها المتهورة! ألست سيدك ومولاك؟ لماذا تجانب تيتانيا زوجها أوبيرون؟ أعطني غلامك الصغير اتخذه وصيفا.

فقالت الملكة بجفاء:

- أرح قلبك يا أوبيرون، فكل مملكتك الجنية لا يمكن أن تكفي ثمنا يغريني بالتخلي لك عن هذا الغلام.

ثم استدبرت زوجها الملك في أنفه، وفارقته نهبا لغضب شديد، فجعل يتوعدها قائلا:

- امضي في طريقك إذن، وقبل أن يبزغ الصبح بأنوار الفجر سيكون قد مسك من جراء هذا التبجح عذاب شديد.

وأرسل أوبيرون على الفور فدعا إليه بمستشاره الخاص، رئيس المجلس الاستشاري، والمشير الأثير إلى قلبه واسمه ياك، وكان ياك خبيرا بسرائر النفوس وطرائف الحيل، بعيد النظر بارع التدبير، وكان يتسلى بعمل الملاعيب المضحكة والمقالب في نطاق القرى المجاورة للغابة، فيدخل أحيانا إلى حجرات اللبن فينزع من خوابي اللبن ما تجمع فيها من قشدة ويترك اللبن مخيضا رائبا لا زبدة فيه، وأحيانا أخرى كان يفاجئ الفلاحة وهي تخض القشدة لتصنع منها زبدا، فيسلط أشعة كيانه الهوائي على قربة الخض ويرقص رقصاته الجنية في القربة، فيطول جهد الفلاحة المسكينة حتى تكاد تتهاوى من طول الخض، ولا تصل إلى ثمرة من تعبها، وتبقى القشدة على حالها لا تتماسك!

أما صانع الجعة في القرية فلم يكن أسعد من القروية حالا، فكما يفسد الزبد، يفسد أيضا قدور الجعة، فيلقي فيها بقرونه فتتخثر. وإذا اجتمع طائفة من الجيران للمنادمة، ووضعوا بينهم خابية الخمر، يتخذ ياك صورة سرطان البحر (أبو جلمبو) ويغوص في الخمر، حتى إذا هم أحد الندامى، أن يعب من الخمر، قفز إلى شفته العليا فقرصها، فينسكب الخمر على ثيابه!

وحينما تجلس الجدة العجوز على كرسيها المنخفض لتحكي لأحفادها الصغار المتجمعين حولها قصة حزينة مؤسية، يجذب ياك الكرسي الصغير من تحتها فتسقط العجوز على الأرض، ويضحك منها أحفادها حتى تكاد تنفجر جنوبهم من شدة الضحك، ويقسمون أنه لم تتفق لهم ساعة سرور كهذه الساعة.

هذا هو كبير مستشاري الملك أوبيرون، وإلى ملاعيبه ومقالبه التي يحيي بها لياليه التجأ كي يلتمس لديه انتقاما يشفي غليله من ثيتانيا.

- اقترب يا ياك. أيتني بتلك الزهرة العجيبة التي تسميها الفتيات "زهرة الحب والكسل" فعصارة هذه الزهرة الأرجوانية الصغيرة لها مفعول سحري، فإذا وضعت منها قطرات على جفن نائم، جعلته متى استيقظ وفتح عينيه، يشغف حبا بأول شيء ينظر إليه، فإني أنوي أن أضع شيئا من عصارة هذه الزهرة على جفن تيتانيا وهي نائمة، كي تغرم بأول شيء تراه حين تفتح عينيها، حتى ولو كان ذلك الشيء أسدا أو دبا أو قردا أو نسناسا، ولن أرفع عن بصرها هذه اللعنة برقية أخرى سحرية أعرف وحدي سرها، إلا بعد أن تنزل لي عن ذلك الغلام فأتخذه وصيفا.

وفرح ياك بهذه المهمة، فهو يحب نزعات الشر والعبث، فما بالك والعبث يصنعه ملك، وضحية العبث ملكة؟

أسرع ياك أذن ليأتي بالزهرة السحرية، ولبث أوبيرون ينتظر أوبته. لمح أوبيرون، وقد طال انتظاره وأصابه ضجر، شبحين يتسللان إلى الغابة، هما ديمتريوس وهيلينا، وطرق سمعه كلام ديمتريوس وهو يلوم هيلينا لأنها تبعته إلى هناك، وكان ديمتريوس عنيفا في ألفاظه قاسيا في تقريعه، وجعلت هيلينا تتقرب إليه بأرق الألفاظ، وتذكره بسابق حبه وعهوده لها أن يبقى مخلصا ما عاش لذلك الحب، فغضب ديمتريوس وصاح بها وهو يبتعد عنها حانقا:

- لأتركك هنا وحدك تحت رحمة الوحوش الضواري!

فنال منها الذعر وراحت تعدو خلفه بأسرع ما استطاعت.. وكانت في ملك الجن أوبيرون رقة شديدة هي تعطفه على المحبين الصادقين، فشعر بإشفاق شديد على هيلينا، وربما كان أوبيرون يذكر ذلك العهد السالف الذي كان فيه العشاق الأربعة يرتادون هذه الغابة للنزهة في ليالي الربيع، فليساندر يصحب هرميا، وديمتريوس يصحب هيلينا، ومهما يكن من شيء فإن أوبيرون اعتزم أمرا، وما إن عاد ياك بالزهرة القرمزية الصغيرة، حتى قال له أوبيرون:

- خذ جانبا من هذه الزهرة، فقد كانت هنا آنسة أثينية حسناء يعذبها حب شاب غادر، فإذا وجدته نائما فاعصر في عينيه شيئا من رحيق الحب، ولكن اجتهد أن تصنع به ذلك وعاشقته بالقرب منه كي تكون هي أول شيء تقع عليه عيناه.

-ولكن أنى لي أن أعرف ذلك الرجل يا مولاي؟

- ستعرفه من ثيابه الآثينية.

فوعد ياك أن يقوم بهذه المهمة بكل لباقة، ثم انصرف أوبيرون ليصنع بتيتانيا ما اعتزمه من العبث، وقد تخفى عن عينيها بوسيلته السحرية وكانت قد تأهبت

للنوم، تحت مظلة عرش عليها الزهر بجانب جدول تنبت فيه الرياحين البرية والبنفسج العطر وأزهار المسك والياسمين، فهناك كانت تيتانيا تحب أن تقضي جانبا من الليل، وتتخذ لنفسها غطاء من جلد ثبان أرقش.

وجد اوبيرون تيتانيا قد أصدرت أوامرها إلى أتباعها وكلفتهم أعمالا يؤدونها أثناء نومها.

- عليكم أن تقتلوا بلا رحمة أكبر عدد من الخفافيش، كي أصنع من أجنحتها معاطفي، وليقم فريق منكم بالحراسة اليقظة، ليبعدوا عني البوم الناعق، فحذار أن يقترب مني هذا الداعي الساهر، ولكن قبل هذا وذاك غنوا لي جميعا حتى أنام، انشدوا لي أعذب الأنغام.

فأخذ الجن يغنون لها هذه الأنشودة:

"أيتها الثعابين الرقطاء ذات اللسان المزدوج

"وأنت أيها القنفد ذو الأشواك. أختفوا عن الأنظار

"أيتها الديدان العمياء لا تخطئي..

"فتقتربي في تخبطك من مليكتنا الحسناء

"وأنت أيها البلبل الغرد

"ترنم بأغاني المهد العذاب

"وهدهد من غير أذى

"ومن غير سحر أو رصد

"نامي يا ملكتنا المحبوبة

"وطاب مساءك"

فلما فرغ الجن من الغناء لمليكتهم النائمة، غادروها ليؤدوا الأعمال الهامة التي كلفتهم بها، وعندئذ اقترب منها أوبيرون متسللا، ووضع شيئا من رحيق الحب على جفنيها وهو ينشد:

"أول من ترينه ساعة يقظتك

"اتخذيه لك معشوقا بلا وناء"

ونعود إلى هرميا التي كان مقررا أن تهرب من دار أبيها تلك الليلة كي تنجو من الموت جزاء رفضها الزواج من ديمتريوس.وتمكنت هرميا من الهرب فعلا، ولما دخلت الغابة وجدت حبيبها الغالي ليساندر في انتظارها كي يصحبها إلى دار عمته، وأخذا في السير مخترقين الغابة، وقبل أن يقطعا نصف الطريق بين أشجارها شعرت هرميا بتعب شديد، ولا عجب أن يجزع ليساندر لشكواها، فهو شديد الاحتفال بهذه الحسناء التي أثبتت شدة وفائها لحبه مجازفة في سبيل ذلك بحياتها، فأقنعها أن تركن للراحة حتى الصباح فوق بساط من العشب الناعم على شاطئ جدول، ثم اضطجع هو على الأرض على مسافة قريبة منها، ولم يلبثا حتى استغرقا في النعاس.

وعلى هذه الصورة وفي ذلك المكان عثر بهما ياك، فلما رأى أمامه شابا وسيما نائما، ووجد الثياب التي عليه مصنوعة على الطراز الأثيني، ورأى بالقرب منه شابة حسناء نائمة، استنتج أن هذه ولا شك هي الفتاة الأثينية وهذا صاحبها الذي غرر بها، كما وصفهما له ملك الجن أوبيرون.

وكان طبيعيا أن يقدر ياك، ما دامت الفتاة نائمة عن كثب من الفتى، أنها ستكون أول ما تقع عليه عينه حينما يستيقظ. فلم يضيع وقتا في البحث، وصب شيئا من عصارة الزهرة القرمزية الصغيرة في عيني الشاب، وتشاء المصادفة أن تمر

هيلينا بعد قليل من هذا المكان، وأن تكون هي أول ما فتح عليه ليساندر عينيه، وليست هرميا..

ومن الغريب أن ذلك العصير السحري كان من القوة حيث تبدد كل ما كان يكنه من الحب لهرميا، وعشق ليساندر هيلينا من كل قلبه.

والواقع أنه لو كانت هرميا هي أول من رآه ليساندر عند يقظته، كما رتب ياك الأمر، لما كانت للعصارة السحرية فائدة، لأنه كان يحبها أصلا حبا عظيما، والزيادة فيه ليست مما يستكثر على فتاة لها فضائل هرميا، ولكن الذي وقع لليساندر من السحر بحيث أجبره على التحول عن حبيبته المخلصة كي يتعلق بفتاة أخرى، فيتبعها تاركا هرميا مستغرقة في النوم بمفردها في غابة موحشة في منتصف الليل، فذلك والحق يقال أمر يؤسف له كثيرا.

وقد حدثت هذه الكارثة على النحو التالي، فإن هيلينا أخذت تجري وراء ديمتريوس بعد أن أغلظ لها القول وابتعد عنها، ولكنها لم تستطع أن تلاحقه في سرعة الجري، فليست للنساء قدرة على الجري الطويل كالرجال، فسرعان ما غاب ديمتريوس عن نظرها، وراحت هي تتجول في الغابة على غير هدى مقهورة محسورة، إلى أن وصلت إلى الموضع الذي افترشه ليساندر، فصاحت:

- عجبا! هذا ليساندر ملقى على الأرض، أهو ميت يا ترى أم نائم؟

ثم لمسته برفق شديد وقالت:

- سيدي الفاضل، إن كنت على قيد الحياة فاستيقظ

ففتح ليساندر عينيه، وفي الحال فعل السحر مفعوله، فأخذ يوجه إليها الخطاب بألفاظ مسرفة في الغزل والهيام

- أي هيلينا! لا تذكري لي هرميا، فإنك تفوقينها في الحسن أكثر مما يفوق جمال

الحمامة المطوقة قبح الغراب! أني مستعد أن أخوض في سبيل جمالك ألسنة النيران، وأتحدى أشداء الأبطال!

وما إلى ذلك من ألفاظ التشبيب والوجد، ولما كانت هيلينا تعرف ليساندر حبيب صديقتها هرميا، وأنه قد تعهد باليمين المغلظة أن يتزوجها، ثار غضبها إلى أبعد الحدود عندما سمعته يكلمها بهذه اللغة، وخطر لها بطبيعة الحال أن ليساندر يعبث بها، فقالت له:

- ويحي! لماذا ولدتني أمي؟ ألكي أكون هدفا للسخرية والزراية من كل إنسان؟ أليس يكفي أيها الشاب أنني لم أعد أستطيع الظفر بنظرة رقيقة أو كلمة لينة من ديمتريوس؟ وهل ينقصني أن تقدم أنت أيضا يا سيدي على النيل مني بهذا الغزل التهكمي؟ صدقني؟ يا ليساندر إنني كنت أخالك قبل اليوم سيدا صادق المروءة.

وما إن ألقت إليه بهذه الكلمات في غيظ شديد حتى أسرعت تجري مبتعدة عنه، فأسرع خلفها ليساندر يتبعها، وقد نسى أتم النسيان حبيبته هرميا التي لم تزل غارقة في نومها!

ولما استيقظت هرميا من نعاسها ووجدت نفسها وحيدة في ذلك المكان الموحش من الغابة، أدركها فزع شديد، وهامت على وجهها في الغابة باكية، لأن القلق استبد بها على مصير ليساندر، لا تدري أين ذهب ولا أين عساها أن تجده؟

وفي هذه الأثناء كان ديمتريوس قد فشل في العثور على هرميا وعلى منافسه ليساندر، وأدركه الكلل من ذلك البحث الذي لا عناء فيه، فلمحه أوبيرون غارقا في النوم في ظل شجرة.

وكان أوبيرون قد عرف من استجواب ياك أنه وضع العصارة السحرية في عين شخص غي الشخص المطلوب، فلما رأى أمامه ذلك الشخص نائما، أسرع يصلح خطأ ياك، ووضع من رحيق الحب في جفني ديمتريوس.ولما فتح ديمتريوس عينيه كان أول شخص بصر به هو هيلينا، ففعل معها ما فعله ليساندر من قبل، إذ راح يطارحها الغزل، وبعد قليل مر من هناك ليساندر ومن ورائه هرميا تطارده وهو يهرب منها، وهكذا اجتمع الأربعة على صورة غريبة. فليساندر وديمتريوس يبثان في نفس واحد وبحماسة متشابهة إلى شخص هيلينا، لأن كليهما كان واقعا تحت تأثير العصارة السحرية القوية!

ودهشت هيلينا بطبيعة الحال، وظنت أن ديمتريوس وليساندر وصديقتها القديمة هرميا، قد اتفق ثلاثتهم وتآمروا على السخرية منها. وفي الوقت نفسه كانت دهشة هرميا لا تقل عن دهشة هيلينا، فعهدها بليساندر وديمتريوس أن الأثنين يتنافسان على حبها هي، فما بالهما الآن وقد انقلبا معا يتنافسان على حب هيلينا؟ وهكذا خيل إليها هي أيضا كما خيل إلى هيلينا أن الثلاثة تآمروا على السخرية منها. وإذا الفتاتان اللتان كانتا من قبل أعز صديقتين، وقد شجر بينهما الخلاف وشرعتا تتبادلان أقبح النعوت وأوخم الألفاظ

قالت هيلينا:

–أيتها القاسية هرميا، أنك أنت التي وسوست إلى ليساندر أن يتصدى لي بالتهكم في قالب الثناء، وأوحيت إلى عاشقك الآخر ديمتريوس الذي كان يركلني دواما بقدمه أن يناديني ساخرا بالحورية والمعبودة الغالية والمخلوق السماوي! فما كان ليخاطبني – وأنا التي يمقتها – لو لم تغره أنت أن يعبث بي أنها لقسوة منك يا هرميا مرذولة، أن تتحالفي مع الرجال في الزاوية بقدر صديقتك المسكينة، أتراك قد نسيت زمالة المدرسة؟ وكيف كنا نجلس في كثير

من الأحيان على وسادة واحدة، نغني معا أغنية واحدة، وأبرتانا تطرزان زهرة واحدة على منسج للتطريز واحد؟ لقد كبرنا معا كما تنبعث زهرتان على عود أو كفلقتين من ثمرة لا يكاد الإنسان يفرق بينهما.

– إن سلوكك هذا يا هرميا ليس فيه شيء من شيم الصداقة أو سجايا العذارى، وأنت تؤازرين الرجال على النيل من صديقتك وهي في محنتها

فأجابتها هرميا قائلة:

– إني لفي دهشة شديدة من كلماتك العنيفة وعباراتك النابية، فما أهنتك قط، إنما أنت التي ترمين فيما يبدو إلى إهانتي والنيل مني.

فصرخت هيلينا قائلة:

– يا للمظهر الخادع الزائف الصدق والجد! وإني لأعلم أنك تخرجين لسانك لي حين أدير لك ظهري، ثم تتبادلين الغمزات مع صاحبيك، لو أن في قلبك ذرة من الرحمة أو الرفق أو الخلق الحميد لما فعلت هذا بي!

وفي الوقت الذي استغرقت هيلينا وهرميا في هذا الحوار المحتدم، انتهز ديمتريوس وليساندر هذه الفرصة فابتعدا عنهما ليحتكما في تنافسهما على حب هيلينا إلى حد السيف..ولما وجدت الفتاتان أن الشابين قد غادراهما، افترقتا هما أيضا، وراحتا تهيمان على وجهيهما حزينتين في الغابة، بحثا عن حبيبيهما.

وطوال المنظر السابق كان أوبيرون ملك الجن ومستشاره ياك مختفين عن الأنظار يستمعان إلى ذلك الشجار، فلما انصرفت الفتاتان قال الملك أوبيرون لمستشاره ياك:

– أعن إهمال أحدثت هذه الوقيعة والاضطراب، أن تراك فعلتها عمدا، وصدرت فيها عن سوء طويتك؟

فقال ياك معتذرا مضطربا:

- صدقني يا ملك الأشباح الخفية إنها كانت غلطة جاءت عفوا، ألست جلالتك قد ذكرت لي العلامة التي أعرف بها ذلك الشاب، وأنها ارتداؤه ثيابا آثينية؟ والرجل الذي وضعت في جفنيه العصارة السحرية فيه هذه العلامة، ومهما يكن من أمر فإني لست أسفا لما حدث، لأن ذلك الحرج والالتباس يتيح لنا تسلية من طراز فذ ممتاز، فلا تأسف أيها الملك.

- إنك قد سمعت كما سمعت أن ديمتريوس وليساندر ذهبا ينشدان مكانا يصلح للمبارزة، وأن تضلل هذين العاشقين المتنافسين في غيابه الظلام والضباب حتى لا يستطيع أحدهما أن يعثر بصاحبه، وأمرك أن تزيف صوت كل منهما للآخر، وتستثيرهما كي يتبعا تلك الأصوات الزائفة وتستدرجهما بعيدا حتى يبلغ بهما الكلال مبلغا لا يستطيعان بعده نقل القدم

- كل هذا هين علي كما تعلم يا مولاي.

- ومتى استغرقا في النوم، صب هذه العصارة المضادة للحب في عيني ليساندر حتى إذا أفاق ألقى نفسه قد شفي من غرامه الحديث لهيلينا فيعود إلى غرامه القديم بهرميا، وبهذا نهدي السعادة والهناء إلى كل من الحسناوين، فتفرح بالرجل الذي تعلق به قلبها، وستظنان أن المحنة التي مرتا بها كانت من أضغاث الأحلام، عجل يا ياك بما أمرتك به، وسأذهب أنا لأرى أي مخلوق جميل وفقت إلى الابتلاء بحبه عزيزتي تيتانيا، أذهب.

وانطلق أوبيرون إلى حيث كانت تيتانيا نائمة، فوجدها لم تزل غارقة في النعاس، ثم أبصر بالقرب من موضعها مسخا من المهرجين، كان قد ضل طريقه في الغابة، فاستسلم للنوم.

فقال أوبيرون في نفسه:

- ما أحرى هذا المخلوق أن يكون هو الذي تبتلي بحبه تيتانيا، فتضحي أضحوكة لشعوب الجن أجمعين.

ثم ألبس المهرج النائم رأس حمار ميت، فكأنما هي من شدة ملاءمتها لشكله قد نبتت من بين كتفيه حقا! ومع أن أوبيرون كان محاذر جدا في حركته وهو يثبت رأس الحمار للمهرج، أيقظته الحركة فنهض، ولكنه لم ينتبه إلى ما فعله به أولبرون، وتوجه إلى العريشة المزهرة التي كانت الملكة تيتانيا نائمة تحتها.وفتحت تيتانيا عينيها، فأخذت العصارة السحرية تفعل فيها على الفور فعلها، وإذا بها تصيح في روعة الإعجاب والتولف:

- أي ملك كريم هذا الذي أرى؟

ومدت إليه ذراعيها متوسلة كالمتعبدة وسألته:

- ألك من الحكمة مثل الذي تتمتع به من الجمال؟

فأجابها المهرج المعتوه بغير اكتراث:

- وما حاجتي للحكمة يا سيدتي؟ لئن اتفق لي من الذكاء ما يكفيني للخروج من متاهة هذه الغابة، لحسبتني نلت فوق مطمعي من العقل.

ارتاعت الملكة العاشقة المتيمة لما سمعته من تفكير معشوقها في الخروج من الغابة بأي ثمن وصاحت في وجهه:

- إياك! إياك! لا تفكر في الخروج من هذه الغابة، فأنا لست جنية من غمار الجن، وإني أحبك، فتعال معي وسأنعم عليك من الجن بعبيد وخدم وحشم.

ثم نادت الملكة أتباعها بأسماء غريبة منها زهرة البسلة ومنها نسيج العنكبوت

ومنها بذرة الخردل ومنها السوس! ثم قالت لهم:

–قفوا أنفسكم على خدمة هذا الشاب الوسيم، اقفزوا بين يديه وحفوا بقدميه، وأطعموه العنب والمشمش، واسرقوا أقراص الشهد من خلايا النحل!

والتفتت إلى المهرج وقالت:

– تعال الآن اجلس معي، هنا بجانبي، ودعني أداعب خديك الجميلين المكسوين بهذا الشعر الناعم، يا جحشي الجميل! ودعني أروي هيامي بتقبيل أذنيك الجميلتين الطويلتين يا بهجة قلبي!

فلم يلتفت المهرج المعتوه لغزلها الحار، ولا لجمال الملكة البارع، وإنما كان الذي يشغل نفسه كلها هو الفرح الساذج الغامر بجيش أتباعه وخدمه، فصاح:

– أين هو المدعو زهرة البسلة؟

فأجابه زهرة البسلة، وهو ينحني بقامته الصغيرة أمام مولاه الحماري الرأس:

– لبيك يا مولاي!

فأومأ إليه المهرج برأسه فاهتزت أذناه وقال:

– قم فاهرش لي رأسي!

ثم التفت مرة أخرى إلى الباقين وقال:

– وأين المدعو نسيج العنكبوت؟

فقفز الجني الصغير منفردا عن رفاقه وقال:

– أفندم يا مولاي

فغمز له المهرج بعينه الكبيرة وقال:

- كلف نفسك يا خيط العنكبوت أن تقتنص لي هذه النحلة الشغالة الحمراء التي أراها على قمة هذه العوسجة، ثم احضر لي حقيبة العسل التي تحملها على ظهرها، كلا يا خيط العنكبوت لا ترهق نفسك في المطاردة هكذا واحذر أن تتمزق حقيبة العسل، شكرا لك على همتك.

ثم التفت مرة أخرى إلى الحاشية وقال:

- وأين هو المسمى حبة الخردل؟

فانبرى حبة الخردل واقفا، وقال:

- ها أنا ذا يا مولاي، ما هي رغبتك السامية؟

- لا شيء، كل ما أريده يا حبة الخردل أن تتكرم فتساعد زهرة البسلة في إجراءات الهرش!

ثم مسح بيده على وجهه فلم ينتبه إلى التغيير الذي حدث له، بل قال ببلاهة معلقا على الملمس الغريب الذي وجده:

- يبدو يا حبة الخردل أنه يحسن بي أن أذهب إلى الحلاق، فقد بدأ الشعر يغطي صفحة وجهي.

ومرة أخرى بذلت الملكة جهدها لتسترعي أنتباهه إلى عواطفها فقالت:

- يا حبيبي الجميل ماذا تحب أن نقدم لك لتأكل؟ إن عندي من الجن ذوي الجسارة من ياتونك بقطعان السنجاب أو بشيء من الجوز الطازج.

بيد أن المهرج عندما لبس دماغه رأس الحمار، أصبحت له أيضا شهية الحمير، فأشاح بوجهه عن هذه المآكل الفاخرة مستاء وقال:

- كلا، أفضل أن يأتوني بحفنة من الشعير المجفف، أو الفول المجروش، وأريد

أيضا من فضلك أن توصي أصحابك هؤلاء كي لا يزعجوني، لأني أريد أن أنام..

وأدار للملكة ظهره، ولكنها أسرعت تقول:

- نم يا حبيبي نم، ولكني سأريحك بين أحضاني، استقر هكذا بين ذراعي لتنام مستريحا، كم أحبك! كم أنا متيمة بك!

فلما رأى ملك الجن ذلك المهرج الممسوخ نائما بين أحضان ملكته، أظهر نفسه لها، وتقدم منها فوبخها لأنها تمنح محبتها بهذا الإسراف لجحش!

ولم تحاول أن تنكر التهمة، لأن المهرج كان نائما بين ذراعيها فعلا، وقد توج رأس الحمار بأزهار نسقتها له بيديها!

ولبث أوبيرون يغيظها ويسخر منها برهة طويلة، ثم طلب منها مرة أخرى ذلك الغلام ليتخذه وصيفا، فلما وجدت نفسها متلبسة بالجرم بين يدي مولاها، خجلت ولم تجرؤ هذه المرة على الرفض..

وإذ حصل أوبيرون على الغلام الذي طالما رغب في الحصول عليه، أخذته الشفقة على تيتانيا من هذا المأزق السخيف الذي دفعها إليه بيده، فألقى شيئا من العصارة للحب في عينيها، وعلى الفور استردت الملكة رشدها، وعجبت أشد العجب من إقدامها على ذلك الحب الشاذ، وامتلأ قلبها بالنفور الشديد من ذلك المهرج الممسوخ.

وعلى الأثر نزع أوبيرون رأس الحمار عن دماغ المهرج، وتركه يتم نومه برأسه التي جعلها الله له، وتم الصلح الكامل بين أوبيرون وتيتانيا، فأخذ يقص عليها حكاية العشاق الأربعة وما نشب بينهم في منتصف الليل من نزاع، فقررت أن تذهب معه ليريا بنفسيهما خاتمة تلك القصة..

وانطلق الملك والملكة، فوجدا العشاق الأربعة وقد ناموا على ربوة معشبة لا يبعد أحدهم عن سائرهم كثيرا، لأن ياك استطاع ببراعته أن يكفر عن خطئه السابق، فدبر الأمر بكل اجتهاد بحيث أتى بكل واحد على حدة إلى البقعة نفسها من غير أن يدعه يشعر بوجود الآخرين.

وبعناية وحرص توصل أيضا إلى انتزاع السحر من عيني ليساندر بتلك العصارة المضادة للحب التي أعطاه الملك أوبيرون إياها. وكانت هرميا أول من استيقظ، فرأت حبيبها ليساندر المفقود نائما بالقرب منها، فحبسته قد فعل ذلك عمدا، وجلست تنظر إليه متعجبة أشد العجب من تقلب أهوائه.

وفي تلك اللحظة فتح ليساندر عينيه، فلما رأى أمامه حبيبته هرميا، ثاب إلى رشده، وبعودة رشده إليه، عاد إليه ما كان يملأ جوانب نفسه وفكره من حب هرميا.

وأخذ الأثنان يتحدثان عما وقع من المغامرات الغريبة في تلك الليلة، وتطرق إليهما الشك أن تكون هذه الأشياء قد حدثت فعلا، أم تراهما كلاهما كانا يحلمان حلما واحدا محيرا مزعجا؟

وعند ذلك استيقظت هيلينا وديمتريوس، وكان النوم العميق قد أتى على غضب هيلينا، فنفثأ وتبدد، وهدأ ما كان ثائرا لديها من لواعج الغيظ، فأخذت تصغي بسرور إلى اعترافات ديمتريوس بحبه لها، وكم أدهشها وسرها أن تشعر في نفسها بصدق حديثه.

وبذلك تلاشى ما كان هناك من تنافس بين الحسناوين في غضون تلك الليلة، وعادتا إلى ما كانتا عليه من قبل، صديقتين حميمتين. أما ما تطاير بينهما في غضون ذلك الخلاف من قوارص الكلم فسرعان ما غفرتاه، وجلستا تتشاوران

بكل صفاء وهدوء فيما ينبغي أن تفعلاه في موقفهما هذا.

وبعد أخذ ورد استقر الرأي أخيرا على الحل الموفق السعيد، فما دام ديمتريوس قد عدل عن طموحه إلى عقد زواجه على هرميا، فمن واجبه أن يسعى إلى أبيها ليقوم ذلك الوالد القاسي بإسقاط عقوبة الموت الجائرة التي كان قد استصدرها من الدوق.واستعد ديمتريوس للعودة إلى أثينا كي يقوم بذلك السعي المحمود، الذي أضحى بحكم الوضع الجديد ضرورة محتومة، وإذا بالجميع يفاجئون بأمر لم يخطر لهم بالحسبان..

ولم تكن هذه المفاجأة إلا قدوم ايجيوس والد هرميا الشيخ، إلى الغابة يتعقب آثار ابنته الهاربة.ولما عرف ايجيوس من لسان ديمتريوس أنه لا ينوي الآن أن يتزوج من ابنته، لم يجد داعيا للمعارضة في زواجها من ليساندر، ولكنه جعل موافقته على ذلك الزواج مشروطة بشرط واحد وهو أن يتم الزواج في اليوم الرابع من ذلك التاريخ.فذلك هو الموعد الذي كان محددا لتنفيذ حكم الإعدام على هرميا، لإصرارها على الزواج من ليساندر!

وإزاء ذلك الحرص، قبلت هيلينا أيضا أن يكون زفافها إلى حبيبها ديمتريوس العائد إلى حظيرة الوفاء في ذلك اليوم الرابع، كي يكون حفلا مشهودا وزواجا مزدوجا.

وكان ملك الجن والملكة يشهدان هذا المنظر من غير أن يراهما أفراده من البشر، فلما رأيا تلك النهاية السعيدة لقصة هؤلاء العاشقين، وما كان للملك أوبيرون من سعي مشكور، واحتيال مبرور، في الوصول إلى ذلك الختام الطيب، فرحا فرحا عظيما وقررا أن تشترك مملكة الجن بأسرها في إحياء هذين العرسين بأبداع الألاعيب وأبرع ألوان القصف التي يحينها مهرة الجن

وإذا كان أحد يضيق صدره بحكاية كهذه تسيطر عليها ألاعيب الجن، ويرفض تصديق تلك الأعاجيب، فلا عليه أن يحسبها مما يراه النائم في هجعة بليلة من ليالي الصيف صافية السماء رائقة الهواء.

قصة الشتاء

كان على جزيرة صقلية في سالف الأزمان ملك اسمه ليونتس يعيش في أتم وفاق مع ملكته الجميلة الفاضلة هرميون، وبلغ من سعادة ليونتس بحب هذه السيدة الممتازة، أنه لم يكن يشتهي من دهره رغبة تنقص لكمال هنائه، إلا ما كان يساوره أحيانا من الشوق إلى مرأى رفيقه القديم في المدرسة بولكسينيس ملك دولة بوهيميا، وأن يقدمه إلى ملكته المحبوبة.

وكان ليونتس قد تربى مع بولكسينيس منذ نعومة الطفولة، إلى أن توفي والدهما فدعيا لتسلم العرشين في مملكتيهما، ولم يلتقيا بعد ذلك أمدا طويلا من السنوات، ولكنهما كثيرا ما كانا يتبادلان الهدايا والرسائل والسفارات الودية.

وأخيرا، وبعد دعوات متكررة ملحة، قدم بولكسينيس من بوهيميا إلى بلاط صقلية ليزور صديقه القديم الحميم ليونتس ملكها. سوفي البداية لم يكن لهذه الزيارة من أثر إلا ما أسدته من سرور خالص في نفس ليونتس، فذكى صديق شبابه لدى الملكة وأوصاها أن ترعى شأنه رعاية خاصة، لأنه يشعر وهو بين ملكته وصديقه القديم أن نعمة الله قد تمت عليه من كل وجه.

وجعل الملكان يتحدثان عن الأيام السالفة وعهود الدراسة، وما كان يصدر منهما في يفاعتهما من عبث الغلمان وألاعيب الصبية ومرح الشباب وقصفه، ثم يقصان حديث ذلك كله على هرميون، التي كانت تشترك دائما في أحاديثهما منشرحة الصدر.

وبعد أن أقام بولكسينيس ردحا طويلا لدى صديقه ليونتس، أخذ يعد عدته

للعودة إلى بلاده، فانضمت هرميون إلى زوجها - بإيحاء من ذلك الزوج - في الإلحاح على بولكسينيس أن يؤجل السفر ويمنحهما الأنس بصحبته مزيدا من الوقت.

ومنذ هذه اللحظة بدأت متاعب هذه الملكة الطيبة القلب، فإن بولكسينيس الذي كان قد رفض البقاء رغم توسلات صديقه ليونتس، رضخ لكلمات هرميون الرقيقة، وقبل أن يمد ضيافته جملة أسابيع.وبالرغم مما يعهده ليونتس منذ عهد بعيد من استقامة ونزاهة مبادئ صديقه بولكسينيس، ومن طهارة ذيل ملكته العفيفة الفاضلة، إلا أنه أضحى نهبا لغيرة جامحة.

وصارت كل لفتة من المجاملة تبديها هرميون لضيفها بولكسينيس ولو بإيحاء مشدد من زوجها، وبدافع من إرضائه ليس إلا، كانت هذه اللفتة كفيلة أن تزيد نيران غيرة الملك اشتعالا!

وهكذا تغيرت أحوال ليونتس، فبعد أن كان أصدق الخلان مودة وإخلاصا، وأفضل الأزواج وأكثرهم شغفا، انقلب فجأة، فإذا به وحش ضار لا سمة فيه من سمات البشر!

وتحت تأثير هذه الغيرة المشوبة أرسل ليونتس في طلب كاميلو، وهو أحد نبلاء بلاطه البارزين، وأفضى إليه بما يعتمل في نفسه من الشكوك، ثم أمره أن يحتال في دس السم لصديقه وضيفه بولكسينيس..

وكان كاميلو رجلا فاضلا صالحا، وهو عالم تمام العلم أن غيرة لونتس لا سند لها من الحقيقة، فلم يجنح إلى تنفيذ ما أمره به ملكه من تسميم بولكسينيس، بل سعى إليه وأنبأه بجلية ما أنتواه مولاه، ثم اتفق معه على الهرب خارج حدود صقلية.وبمساعدة كاميلو تمكن بولكسينيس من الوصول سالما إلى مملكته بوهيميا،

حيث أقام كاميلو بعد ذلك في بلاط الملك، وأضحى أقرب صديق لدى بولكسينيس.

ولما علم ليونتس بفرار بولكسينيس ازدادات نيران غيرته استعارا، وذهب وهو في ثورة الغضب إلى جناح الملكة، حيث كانت تلك السيدة الصالحة جالسة مع ابنها الصغير مامليوس، والصغير في تلك الساعة آخذ في سرد قصة من أحسن أقاصيصه بلسانه اللاثغ ليدخل السرور على قلب أمه.وإذا بالملك يدخل مندفعا في هياج، فيأخذ الطفل بعنف ويأمر بإبعاده، ثم يلقي بهرميون في غيابة السجن!

ولئن كان ماكليوس لم يزل طفلا صغيرا جدا، إلا أنه كان يحب أمه حبا على أقصى درجة من الرقة والحنان، فلما رآها وقد كسيت بالهوان، ووصمت بالمذلة، واكتشف أنهم انتزعوها منه ليلقوا بها في السجن، وقع الأمر منه موقعا شديدا، وحز في قلبه الصغير حزا عميقا، فوجم وهزل هزالا بطيئا، وفارقته الشهية للطعام والرغبة في النوم، حتى ظن أن الأسى لا شك قاض على حياته الغضة.

أما الملك فإن شكه الجائر في حكمه على عفة زوجته، فإنه لم يستطع أن يطفئ بصيصا بقى في نفسه للتقوى، فبعد أن ألقى بملكته في السجن لم يشأ أن يستعجل القضاء عليها كما نازغته غضبته، بل تمهل وأمر كليومينيس وديون، وهما نبيلان من أشراف مملكته الصغيرة، أن يتوجها إلى جزيرة دلفي، فهناك معبد أبولو المشهور، ليستنطقا كاهنة الوحي فيه، هل كانت ملكته خائنة لعهده يوما أم هي طاهرة الذيل؟

وبعد أن ظلت هرميون في سجنها أمدا قصيرا، رزقت طفلة، فوجدت فيها هذه السيدة المنكودة الحظ راحة نفس لا تقدر، وعزاء في بلواها. وخاطبتها قائلة:

- أيتها السجينة الصغيرة المسكينة، أني لبريئة مما رميت به، كبراءتك أنت منه سواء بسواء!

وكانت لهرميون صديقة محبة عطوف القلب هي السيدة النبيلة بولينا، وهي زوجة نبيل من نبلاء صقلية اسمه انتيجونس.. ولما سمعت النبيلة بولينا أن مولاتها الملكة رزقت طفلة، توجهت إلى السجن الذي أودعت فيه هرميون، وقالت للوصيفة القائمة على خدمة الملكة هناك، واسمها أميليا:

- أرجوك يا أميليا أن تكوني سفيرة خير بيني وبين ملكتنا الصالحة.

- لك هذا، أما الدخول عندها فلا سبيل إليه.

- لا أرب لي في الدخول بنفسي، وإنما كل مرادي أن ترفعي إلى جلالتها التماسا من قلبي، وأن تتلطفي في الإلحاح عليها

- أفعل ذلك ما وجدت الملتمس مناسبا لظروف الموقف

- إني فكرت لو تفضلت جلالتها فعهدت إلي بوليدتها الصغيرة

- ولماذا تعهد جلالتها بالوليدة إليك؟

- لا تظني سوءا، ليس مرادي أن أحرمها منها، بل فكرت أن أجازف فأحملها إلى والدها الملك، فمن أدرانا إلى أي حد سيلين قلبه لمرأى هذه الطفلة البريئة.

فاقتنعت أميليا على الفور بكلام بولينا وقالت:

- أيتها السيدة الفضلى، سأرفع إلى مسامع الملكة تطوعك هذا النبيل، فإنها في هذا النهار بالذات، قالت لي أنها تتمنى لو أن لها صديقة تبلغ بها الجرأة أن تجازف بتقديم الطفلة إلى والدها الملك.

– سأفعل ذلك، وبلغيها أيضا أني سأخاطب ليونتس بكل جسارة دفاعا عن جلالتها.

– شملتك بركة السماء إلى الأبد، جزاء عطفك على ملكتنا

ثم دخلت أميليا إلى هرميون، وأفضت إليها بمراد بولينا، فأعطتها هرميون الطفلة بكل سرور، لأنها كانت تخشى ألا يجسر أحد على تقديم الطفلة إلى والدها.

ولم تخضع بولينا النبيلة لاحتجاجات زوجها، الذي سعى جهده ليمنعها من الإقدام على تنفيذ ما اعتزمت عليه، خوفا من غضب الملك، واقتحمت بولينا الطريق إلى حجرة العرش، حاملة بين ذراعيها الوليدة الجميلة، إلى أن وضعتها تحت أقدام أبيها، ثم خاطبت الملك بكلام بليغ نبيل القصد والصياغة دفاعا عن هرميون، ووبخته بعنف على تجرده من الشعور الإنساني، وناشدته أن تأخذه الرحمة بزوجته البريئة وابنته.

بيد أن دفاع بولينا الحماسي اللاذع لم يفعل في نيران غضب ليونتس إلا فعل أنفاس الهواء تزيد اللهب وتذهب الرماد، فعظم استياؤه منها، وأمر زوجها انتيجونس أن يأخذها من حضرته.

وسبق إلى ظن بولينا عندما أبعدت عن المجلس الملكي أن الطفلة الصغيرة التي أودعتها تحت أقدام أبيها ستكون أبلغ منها بيانا في مخاطبة فؤاد ذلك الملك القاسي حين يخلو إليها، ويتفحص ملامحها، فتأخذه الرأفة بعجزها وبراءتها الطفلية وربما رحم من أجلها تلك التي ولدتها.

ولكن بولينا الطيبة القلب كانت في ذلك جد مخطئة، فما إن غادرت قاعة العرش حتى عاد زوجها انتيجونس، ليمثل بين يدي ليونتس معتذرا عما بدر من

طيش زوجته، حتى أمره ذلك الطاغية القاسي أن يأخذ الطفلة التي أتت بها امرأته، فيحملها إلى البحر ويمخر بها فيه، ثم عليه بعد ذلك أن يتركها على شاطئ مقفر حتى تهلك!

وكان انتيجوس من طينة معظم أتباع الملوك، وليس من طراز كاميلو الكريم النفس، فاجتهد في طاعة أوامر ليونتس بحذافيرها، فحمل الطفلة على ظهر سفينة، وأقلع بها، وفي نيته أن يتركها على أول شاطئ مهجور يعترض طريقه، ليعود سريعا فيبلغ مولاه ويظفر برضاه.

وانتجت ضراعة أميليا ثمرة أخرى مرة الطعم، إذ جمح غضب الملك، فتجاهل ما كان قد أخذ به نفسه من الأناة حتى يحضر رسولاه كليومينيس وديون بحكم الإله أبولو صاحب معبد دلفي في عفتها، فأمر أن تنتزع الملكة النفساء من فراش المخاض، ولما تبرأ بعد من الجزع على فقدان وليدتها المحبوبة، ويؤتى بها إلى محاكمة علنية اختار لها قضاة من أذنابه النبلاء ورجال حاشيته وأعضاء بلاطه.

وفي اليوم الوعود أتوا بهرميون في لباس الذل وأغلال السجن، فمثلت أمام أشراف المملكة الذين حشرهم زوجها الباغي لمحاكمتها وهم رعاياها بحكم الحقيقة والشريعة.

وما فتحت الجلسة حتى تصايح الناس، أن الفلك الذي يحمل حجيج دلفى قد وصل إلى الميناء، وانشقت الجموع عن كليومينيس وديون يدخلان قاعة المجلس المعقود، فيقدمان إلى الملك نص وحي أبولو في رسالة مختومة بخاتم معبد دلفي، وللوحي حكمه الأسمى عند أهل ذلك الزمان، ولحامليه قداسة لا تتطاول إليها يد السلطان.

واشرأبت الأعناق إلى حكم الإله الذي يجب أحكام النبلاء، وألجمت ألسنة

القضاة رهبة وتطلعا، ثم شق الصمت الخاشع صوت الملك يأمر باختمام المعبد المقدس أن تكسر، ثم بسطت الورقة، فأمر منادي البلاط أن يقرأ سطور الوحي بصوته الجهوري، فإذا هذا فحواه:

- هرميون بريئة، وبولكسينيس لا تثريب عليه، وكاميلو من أخلص الرعايا وأصدق التابعين، أما ليونتس فطاغية جامح الغيرة، وسيعيش الملك بلا وريث إذا لم تسترد المفقودة.

وتعالت همهمة بالعجب والروعة والتسليم بقضاء الوحي المقدس، بيد أن الملك أبى أن يصدق عبارات الوحي، وصرخ في غضب يتهم أنصار الملكة وأصحابها بتلفيق هذا الوحي المزعوم، متحديا الإله أن كان هذا وحيه أن يثبت في صفحة الغيب ما أدعاه.والتفت بصوت كالزئير إلى رئيس قضاته أن يستمر في إجراءات محاكمة الملكة، وقبل أن يفرغ ليونتس من إلقاء هذا الأمر دخل قاعة المجلس رجل من خدم القصر، فأعلن بصوت مختلج أسيف، أن الأمير مامليوس عندما بلغه أن والدته تحاكم لتؤدي حياتها كفارة عن التهمة الموجهة إليها، صعقه الأسى والخزي فمات لساعته..

وسرت الضجة بين الحاضرين لذلك الجواب السريع الذي رد به أبولو على تهجم الملك على وحيه ورميه بالتزييف.

أما هرميون فما إن سمعت نبأ وفاة ذلك الصبي الحبيب الحنون، حزنا على نكبتها وخزيا من فضيحتها، حتى سقطت مغشيا عليها، أما ليونتس فقد اخترم النبأ الصاعق فؤاده، وشعر بالندم وأخذته الرأفة بالملكة المنكودة، فأمر بولينا والسيدات القائمات على خدمتها أن يحملنها بعيدا ويعملن على إفاقتها، وصدعت بولينا بالأمر، بيد أنها لم تلبث أن عادت فأبلغت الملك أن سهم القضاء قد نفذ في هرميون!

ولما سمع ليونتس أن الملكة ماتت، أخذه الندم على ما بدر من قسوته عليها، وأيقن وقد حطم قلبها جوره عليها، إنها كانت بريئة مما رماها به، وعلم أن كلمات الوحي كانت صادقة لا يأتيها الباطل، وأخذ يتلو تلك السطور بإمعان، فلما قرأ العبارة الأخيرة "ما لم تسترد المفقودة" أدرك أن ابنته الصغيرة هي المقصودة بهذه العبارة، وأنه ما لم يجدها سيظل بغير وريث يلي الملك من بعده، ما دام ولي عهده الصغير ماميليوس قضى نحبه.

وتمنى ليونتس لو نزل عن مملكته الآن ليسترد ابنته الضائعة، واستبد به الندم على سوء فعله، ولكن لات ساعة الندم، فهيهات ترجع الهالكة.وقضى بعد ذلك سنوات طويلة غارقا في الأحزان متخذا الحداد، عسى أن يكفر بذلك عما اقترفه بطيشه.

وشاءت المقادير أن تهب عاصفة على السفينة التي أقلت انتيجونس والأميرة الصغيرة، فتدفع بها إلى ساحل مقفر مجهول لربانها الصقلي، وكان هذا الشاطئ من شواطئ مملكة بوهيميا، التي صاحبها الملك الصالح بولكسينيس. وعلى ذلك الشاطئ ألقت السفينة مراسيها، حيث ترك انتيجونس الوليدة المسكينة، وعاد من حيث أتى.

ولكن لم يقدر لأنتيجونس أن يعود إلى صقلية ليخبر ليونتس أين ترك ابنته، إذ فيما هو عائد من الشاطئ إلى ظهر السفينة، خرج عليه من الغابة دب عظيم الجثة فافترسه ومزقه أربا، فكان ذلك عقابا معجلا له على ما بادر به من طاعة لأمر جائر من ملك باغ.

وكانت الطفلة متدثرة بثياب غالية وحلي ثمينة، لأن هرميون تعمدت أن تغالي في زينتها حين أرسلتها إلى ليونتس على ذراعي بولينا، وكان أنتيجونس قد شبك في ثيابها ورقة كتب عليها اسمها "برديتا" ومعناها المفقودة، وأردف ذلك بكلمات

تلمح إلى نسبها العريق وقدرها المشئوم، وعثر على الطفلة المسكينة المتروكة رجل من الرعاة، حباه الله قلبا عامرا بالرحمة والتقوى فحمل برديتا الصغيرة إلى زوجته، فأرضعتها ورعتها خير رعاية.

وأغرى الفقر ذلك الراعي أن يبالغ في كتمان الغنيمة الثمينة التي وجدها على الشاطئ، فرحل وامرأته عن تلك البقعة من البلاد، حتى لا يفطن أحد إلى تغير أحواله من الفقر المدقع إلى بحبوحة اليسار.وفي موطنه الجديد اشترى بجانب من مجوهرات برديتا قطعانا من الأغنام، وأصبح من أثرياء الرعاة، وأتخذ من برديتا ابنة له، فنشأت وهي لا تعرف عن نفسها سوى أنها ابنة راع مستور الحال.

وشبت برديتا الصغيرة عن الطوق، فغدت غادة مليحة، ولئن لم تظفر بتعليم أرقى مما يتاح لبنات الرعاة، إلا أن رهافة فطرتها التي سرت إليها من جهة أمها الملكة كانت تضيء لها عقلها الذي لم يتول صياغته المؤدبون، حتى أنه ما من أحد كان يمكن أن يعرف من سلوكها أنها لن تنشأ في بلاط أبيها الحقيقي.

وكان لبولكسينيس ملك بوهيما ولد واحد، اسمه فلوريزل وفيما كان هذا الأمير الشاب يصطاد بالقرب من مسكن الراعي، إذ به يرى ابنة الشيخ المزعومة، فكان جمالها ووداعتها ومالها من هيبة الملكات، سببا لوقوعه في حبها على الفور!

وأراد الأمير ألا يكون لنسبه وسامي مقامي دخل في حظوته بقلب هذه الغادة، فتخفى في زي السواد من السادة وأوساط الناس، وتسمى باسم دوركلس، وأخذ بهذه الصفة يكثر من التردد على منزل الراعي الشيخ.وانزعج بولكسينيس لتكرار نوبات غياب وحيده فلوريزل، وخامرته في أسباب ذلك الظنون، فأطلق الأرصاد وبث العيون على ولي عهده، ليأتوه بأخبار حركاته، وبوادر فلتاته، وبذلك وسعه أن يكتشف حب فلوريزل لابنة الراعي الحسناء.

وعلى عادة بولكسينيس كلما حز به الأمر واحتاج إلى رأي النصيح الأمين، أرسل يدعو ماميلو، ذلك النبيل الوفي الذي صانه من الموت ونجته من الهلاك بالسم على يد ليونتس، ونفض إليه جلية المسألة، ثم رغب إليه أن يصحبه إلى بيت الراعي، وهو المزعوم أبا لبرديتا.

وتخفى الملك بولكسينيس والشريف كامليو في زي عابري السبيل، ثم قصدا إلى مسكن ذلك الراعي في أوان الاحتفال بجز الأغنام من كل سنة، وقد أقيمت في الدار لهذه المناسبة وليمة حافلة.

والعادة الجارية في تلك البلاد أن كل عابر سبيل، مهما كان مجهول الطوية، يدعى إلى وليمة الموسم بكل ترحاب.. وهكذا كان دخولهما إلى مكان المأدبة داخل البيت طبيعيا بدعوة من رب الدار، وأخذا يشاركان في ذلك القصف العام بين جموع المحتفلين.

كان الجو كله جو مرح وهزل ودعابة وبهجة، فالموائد مبسوطة، والاستعدادات قائمة على قدم وساق لنجاح هذا الحفل الريفي التقليدي، وأخذ فريق من الفتيان والفتيات يرقصون على بساط العشب في الرحبة الواسعة أمام باب البيت وانصرف فريق آخر إلى شراء القفازات وأربطة الشعر واللعب من بائع متجول وقف بالباب.

كان الجميع في حركة دائبة ونشاط لا يفتر، إلا فلوريزل وبرديتا، فقد جلسا بكل هدوء في ركن منعزل، يبدو عليهما أن لذة الحديث الخافت فيما بينهما أقرب إلى نفسيهما من الاشتراك في سائر الألعاب وضروب التسلية والقصف التي انغمس فيها سائر الحاضرين. وكان تنكر الملك غاية في الإتقان حتى أنه من المستحيل على ابنه أن يعرفه، فاقترب وهو مطمئن حتى صار على مرمى السمع منهما ليصغى إلى حديثهما ونجواهما.

ولم تأخذ الملك بولكسينيس الدهشة مما بدا في أسلوب حديث برديتا إلى ابنه من رشاقة راقية على الرغم من بساطته وسذاجته، فقال لكاميلو:

- إن هذه أيها الصديق أبدع صبيه متواضعة المولد رأيتها في حياتي، فما من شيء تفعله أو تقوله إلا وتبدو وكأنها أسمى من حقيقتها، وأشرف من أن تنتمي إلى هذا الموضع الذري.

فأجاب كاميلو قائلا:

- إنها حقيقة يا مولاي زبدة الزبدة من كل هذا المخيض الريفي.

فقال الملك عندئذ:

- سأتخذ يا صديقي خطوة إيجابية في التو واللحظة، أطرق بها الحديد وهو بعد ساخن هين التشكيل.

وتقدم الملك بعد ذلك من الراعي العجوز رب الدار فقال له:

- عفوك أيها الصديق الصالح، من هذا الفتى الأشقر المليح الذي أراه هناك يتحدث مع ابنتك على انفراد؟

فقال الراعي بغير احتفال:

- إنه يدعى دوركلس، ويقول أنه يحب ابنتي، وإن أردت الحق أرى الحب بينهما متعادلا، حتى ما تدري أيهما أشد من صاحبه صبابة، وإن قدر لهذا الفتى دوركلس أن يظفر بها، لتأتين بما لم يكن يخطر على بال، ولو في معرض الأحلام.

وكان الراعي الشيخ السليم الطوية يعني بهذا التلميح ما تبقى من جواهر برديتا التي أخفى ما فاض منها عن ثمن القطعان ليكون بائنة تهديها إلى بعلها في

عقد الزواج.ولما سمع بولكسينيس هذا الكلام من الراعي، توجه بالخطاب إلى ابنه:

- عجبا لأمرك أيها الشاب! إني أرى قلبك طافحا بهموم تصرف نفسك عن هذه الوليمة الحافلة، ومع أنني حينما كنت في مثل سنك، في معية الصبا، كنت أحيل على محبوبتي الهدايا والألطاف، رأيتك الساعة تترك البائع ينطلق منصرفا بتحفه، ولم تبتع منه لفتاتك طرفة مما يبيع.

ولم يفطن الأمير الشاب إلى أن الذي يحدثه هو أبوه الملك، ومن أين كان يخطر له ذلك بوهم، لذا أجابه قائلا:

- أيها السيد المسن، إنها لا تقيم وزنا لمثل هذه الترهات، فالطرائف التي تنتظرها برديتا مني مكنوزة لها في طوايا فؤادي.

ثم التفت إلى برديتا وقال لها:

- اسمعي ما أقوله لك الآن يا برديتا أمام هذا الشيخ الوقور، الذي يبدو أنه عرف العشق وبلا الحب في إبان حياته، فهو أحرى أن يكون شهيدا على ما أقر به لك الآن.

ثم ناشد فلوريزل الغريب العجوز أن يكون شاهدا على ما سيألوه على نفسه بالقسم المغلظ من الزواج لبرديتا، وختم كلامه لبولكسينيس بهذه العبارة:

- وأناشدك يا سيدي أن تشهد بانعقاد هذا العقد.

فكشف الملك عن أدوات التنكر وهو يصيح:

- بل أشهد انفصامه أيها الفتى!

ثم انحنى بولكسينيس على ابنه باللائمة، لأنه اجترأ أن يربط ذاته بصبية

وضيعة النسب، ونعت برديتا بسليلة الرعاة، وخادمة المواشي، وما إلى ذلك من أوصاف التحقير، وتوعدها إن هي يسرت لابنه أن يراها بعد ذلك، أن يقتلها ووالدها الراعي العجوز أبشع قتلة!

وغادر الملك بعد ذلك الوليمة وهو في قمة الغيظ، وأمر كاميلو أن يتبعه مصطحبا الأمير فلوريزل. ولما انصرف الملك بعد أن استثار الطبيعة الملكية الدفينة بقوارع كلماته في نفس برديتا، قالت:

- مع أنه قضى على كل شيء، وبهرنا جميعا بمحضره المفاجئ إلا أنني لم أكن خائفة منه كثيرا، هممت مرة أو مرتين أن أتكلم وأجابهه بغير مواربة أن الشمس التي تشرق على قصره، هي بعينها الشمس التي لا تزود بوجهها عن كوخنا، وأنها في إشراقها على الأثنين سواء.

وبعد ذلك قالت في يأس:

- إني الآن قد استيقظت على كل حال من هذا الحلم، وسوف لا أسترسل فيه أكثر مما فعلت، والآن دعني يا سيدي الأمير، كي أذهب إلى نعجاتي فأحتلبها، ومع در ألبانها استرسل في ذرف دموعي.

وأخذ كاميلو الطيب القلب بما في سلوك برديتا من نخوة وأنفة وسلامة، وفطن أيضا أن الأمير الشاب قد بلغ به الحب غاية لا يستطيع معها أن يتخلى عن حبيبته نزولا على أمر والده الملك، ففكر في وسيلة يساعد بها الحبيبين، وفي الوقت نفسه ينفذ خطة طالما اختمرت في ذهنه.

وكان كاميلو يعلم منذ زمن طويل أن ليونتس ملك صقلية صدقت توبته من ذنبه وندمه على ما سلف من إساءاته، ولئن كان كاميلو قد غدا الآن صاحب الحظوة والصديق الأثير لدى الملك بولكسينيس. فهو لا يتمالك نفسه من

الشوق لمرأى مولاه الملك السابق، ومن الحنين إلى وطنه ومسقط رأسه.

فاقترح كاميلو على فلوريزل وبرديتا أن يفرا معه إلى بلاط ملك صقلية، حيث يحمل الملك ليونتس على بسط حمايته عليهما، إلى أن يسعى سعيه للحصول على عفو ملكي عنهما من بولكسينيس موافقته على زواجهما.

ولقى هذا المقترح قبولا من الفتى والفتاة، وفرحا بتلك الفرصة فرحا عظيما، وأعد كاميلو في الحال كل ما يلزم لذلك الفرار، ثم تنبه إلى أن الراعي الشيخ والد برديتا سيكون هدفا لغضب بولكسينيس وانتقامه حين يكتشف الحيلة فحفز الراعي على الرحيل معهم. ولم يستطع الراعي أن يأخذ معه قطعانه، بيد أنه كان حريصا بطبيعة الحال أن يحمل معه ما كان قد تبقى من جواهر برديتا.

وأخذ أيضا الثياب الفاخرة التي كانت ترتديها يوم عثر عليها طفلة، وتلك الورقة التي كانت مشبوكة بدبوس إلى دثارها وهي راقدة في المهد على الشاطئ المهجور.

وبعد رحلة مواتية الريح، وصل الأمير فلوريزل والراعية الحسناء برديتا والنبيل كاميلو والراعي العجوز سالمين إلى بلاط ليونتس ملك صقلية، وكان ليونتس لم يزل غارقا في الحزن على وفاة هرميون، وهلاك طفلته الضائعة، فاستقبل صديقه القديم كاميلو بكل مودة، ورحب بالأمير فلوريزل ابن صديق الدراسة أجمل ترحيب.

كل هذا كان طبيعيا ومفروضا بحكم آداب المجاملة والعلاقات العاطفية القديمة، أما ما لم يكن منتظرا فهو استقبال الملك ليونتس باهتمام شديد للفتاة برديتا، التي قدمها إليه فلوريزل على أنها الأميرة خطيبته، فإن الملك فطن على الفور إلى وجه شبه كبير بينها وبين الملكة المتوفاة هرميون، فنكأ ذلك جراح أحزانه

وجددها، وانهمرت الدموع على خديه تبلل لحيته وهو يقول:

- كان يمكن أن تكون ابنتي في مثل جمال هذه المخلوقة الجميلة، وشبابها الآن، لو أنني لم أهلكها بقسوتي الفاحشة.

ثم التفت إلى فلوريزل وقال له:

- لقد فقدت زوجتي وابنتي، وفقدت كذلك عشرة والدك الشهم وصداقته وما أشد شوقي الآن إليه، بل إني لأشتهي أن أراه ثانية أكثر مما اشتهي الحياة بكل ما فيها.

وعندما سمع الراعي العجوز بمبلغ الاهتمام الذي شمل به الملك ليونتس وبرديتا، وعرف أيضا أن الملك فقد بنتا تركها في العراء على شاطئ مهجور، وهي في بداية الطفولة الأولى، أخذ يحسب في ذهنه الوقت الذي عثر فيه على الصغيرة برديتا، ويقارن ذلك التاريخ بتاريخ ضياع ابنة الملك، ويسترجع في ذهنه فخامة ثيابها وجواهرها التي تدل على نسب رفيه ومقام سام، وكل هذه الدلائل جعلت من المستحيل عليه ألا يستخلص من الملابسات المجتمعة أن برديتا هي بعينها ابنة الملك الضائعة.

واستأذن الراعي العجوز بعد ذلك على الملك، وكان فلوريزل وبرديتا وكاميلو والنبيلة بولينا، حاضرين جميعا في المجلس عندما سرد الراعي العجوز على المسامع الملكية الحالة التي وجد عليها الطفلة، وظروف مقتل انتيجونس الذي كان قد رآه والدب المتوحش يثب عليه.وقدم الراعي بعد ذلك دثار الأميرة الفاخر، الذي تذكرته النبيلة بولينا على الفور، لأنه هو الذي كانت الملكة هرميون قد لفت فيه الطفلة حين أعطتها إياها لتذهب بها إلى أبيها الملك..

وبعد ذلك أخرج الشيخ حلية من الجوهر تذكرتها كذلك بولينا، لأن الملكة

هرميون كانت قد وضعتها بيديها حول عنق برديتا، ثم أبرز الراعي الورقة، فعرفت بولينا فيها خط زوجها، ولم يعد هناك أدنى شك أن برديتا هذه هي ابنة ليونتس التي كان يظنها هلكت.

(وهنا وقفة من أروع ما كتب هذا الساحر شكسبير) إنها لحظة يجتمع فيها أشرف صراع ورد على نفس امرأة، فالنبيلة بولينا مقسمة النفس يتنازعها وقع الفجيعة بموت زوجها، ومفاجأة الفرح لأن وحي أبولو صدق وتمت آخر كلمة فيه، فوجد الملك وريثته إذا استرد ابنته المفقودة.

أما ليونتس فلما سمع أن برديتا هي ابنته، كان الشعور الغالب على نفسه في تلك اللحظة حتى غطى على شعور الفرح، هو الأسى البالغ لأن هرميون لم تكن على قيد الحياة، لترى بعيني رأسها وحيدتها وقد ردت إلى الحياة، بعد طول يأس وقنوط. فلم يحر كلاما، ولبث برهة طويلة لا يخرج بالصمت إلا عن هذه الكلمة يرددها:

- يا لأمك المسكينة! ويحي على أمك المسكينة!

ألجم كل لسان، وأخذ الحاضرين الوجوم أمام ذلك الموقف الإنساني الفريد، فما اجتمع قط مثل هذا الحزن بمثل ذلك السرور، إلى أن تمالكت بولينا نفسها مما يجيش في صدرها من نقائض العواطف، وخفت لنجدة الملك من سطوة أحزانه، قائلة له:

- سيدي يعلم كم كنت أحب سيدتي الملكة هرميون ولبثت مخلصة بعدها.
- علمنا ذلك فيك أيتها النبيلة بولينا، وكل ما نالك من نعم الدنيا جزاء لك على تلك الخلة النادرة.
- وأحب أن أقول لمولاي أن عندي تمثالا كنت قد كلفت الفنان الإيطالي

جوليو رومانوكي صنعه ذكرى لولاتي الملكة، وقد فرغ الفنان منه حديثا، وجاء صورة مطابقة الشبه لجلالة الملكة، فلو تفضل مولاي جزاء لي على تاريخي المتواضع في الوفاء لبيته وعرشه، فشرف بيتي المتواضع بالزيارة، لشاهد هذا التمثال، ولوجد في شدة الشبه شيئا من بلسم تهدأ به سورة حزنه، بل إن مولاي سيظن التمثال جلالة الملكة هرميون بلحمها ودمها.

- ليس هذا فضلا منه أو شرفا نضيفه عليك أيتها النبيلة بين النبيلات، وإنما هو صنيع آخر تسدينه إلينا بتهيئة ذلك العزاء الفريد في هذا اليوم المشهود، وكي ترى ابنتنا التي استعدناها أي حشد رائع من الجمال والوداعة والسماحة والنبل والهيبة كانت والدتها العزيزة.

وأظهرت برديتا غاية اللهفة على مشاهدة ذلك التمثال الذي كان بالحجم الكامل لأمها التي لا تذكر عنها شيئا، وخف الموكب الملكي إلى دار بولينا، وعندما كشفت بيدها الستار الذي يخفي ذلك التمثال العتيد، بدا شبهه بالملكة هرميون تاما من جميع الوجوه، حتى إن جميع لواعج الملك تجددت عليه في الحال، ووقف برهة طويلة لا يجد في نفسه قدرة على الكلام أو الحركة من شدة الأسى.

ولبث الجميع صامتين، إلى أن قالت بولينا:

- لكم أحب صمتك هذا يا مولاي، فهو أوضح دليل تعبر به عن عجبك وإعجابك، أليس هذا التمثال شديد الشبه بالملكة حقا؟

فصمت الملك لحظة، ثم أجابها قائلا:

- بلى، فهكذا كانت تقف، وبمثل هذه المهابة تماما، عندما طلبت إليها يدها أول مرة، ولكن يخيل إلي يا بولينا أن هرميون كانت أنضر شبابا مما تبدو في هذا التمثال الرائع الصناعة.

فأجابته بولينا على الفور:

- بل إن هذا فضل آخر يضاف إلى حذق صانع التمثال، فقد جعل تمثالها يبدو كما كانت تبدو تماما لو أنها عاشت كل هذه السنوات حتى اليوم، والآن اسمح لي يا مولاي أن أسدل الستار، حتى لا يخيل إلى مولاي أن التمثال سيتحرك.

فرفع الملك يده وأهاب به قائلا:

- لا تسدلي الستار! ويحي! انظر يا كاميلو. ألا يخيل إليك أن التمثال يتنفس؟ وعيناه يخيل إليك أن فيهما اختلاجة الحياة!

فقالت بولينا بهدوء وإصرار:

- بل يجب يا مولاي أن اسدل الستار فإنك مستثار النفس جدا، حتى لربما خيل إليك أن التمثال دبت فيه الحياة.

- – أي بولينا الرحيمة، لقد لبثت أبكيها عشرين سنة، ومع هذا يخيل إلي أن نفسها يهب من فمها على وجهي، وأي أزميل ساحر ذلك الذي ينحت التنفس في الحجر الصلد؟ لا تسخروا مني كلكم، فإني مزمع أن الثمها

فقالت بولينا مستسلمة

- أي مولاي الصالح، ترفق بنفسك، فإن الطلاء الأحمر الذي لونت به الشفاه لم يزل نديا، فتتلوث شفتاك بدهان الزيت، هلا سمحت لي بأسدال الستار؟

فقال الملك بإصرار:

- كلا..كلا، لعشرين عاما قادمة!

وكانت برديتا طيلة هذا الوقت راكعة تتمعن في إعجاب صامت في تمثال

أمها التي لم يكن لها نظير، فلما سمعت الملك يقول أنه مزمع أن يقضي عشرين عاما لا يحول ناظريه عن التمثال، قالت:

- وليتني أقضي أنا أيضا هذه الأعوام في هذا المكان أتطلع إلى والدتي المحبوبة.

فقالت بولينا لليونتس:

- أما أن تحملوا أنفسكم على شيء من الصبر والتجلد وتتركوني أسدل الستار، وأما أن تهيئوا أنفسكم لمزيد من العجب العجاب.

- أي مزيد؟

- إن في وسعي أن أجعل التمثال يتحرك فعلا..

- يتحرك؟

- أجل.. وينزل من فوق قاعدته ويأخذ بيدك في يده، لولا أنني أخشى أن تظن جلالتك عندئذ بي ظنا أربأ بنفسي عنه، وهو أن لي سندا من قوى الشياطين.

فقال الملك وقد أخذ منه العجب مأخذه:

- ما استطعت أن تجعليها تفعل فافعليه، فإني قانع النظر، مهما كان في استطاعتك أن تجعليها تنطق به، فإني مستعد أن أسمعه، وأحسب إنطاق تمثال ليس أعصى من جعله يتحرك.

وعندئذ أمرت بولينا فصدحت الموسيقى هادئة رهيبة، وكانت قد أعدت عدتها لهذا الغرض من قبل، لتزيد من وقع المفاجأة.

وبهت الجميع إذ رأوا التمثال يهبط عن قاعدته فعلا، ويلقي بذراعيه حول عنق ليونتس، ثم شرع التمثال يتكلم، مستنزلا من السماوات وآلهتها اليمن

والبركات على الزوج وعلى الأبنة التي كانت مفقودة فولدت، ولا عجب أن يتعلق التمثال بعنق ليونتس، ويستنزل البركات عليه وعلى برديتا، لا عجب في ذلك مطلقا، لأن التمثال لم يكن في واقع الأمر سوى هرميون نفسها، هرميون الحقيقية الملكة، حية تتنفس وتتحرك.

واتضح الأمر الذي كان خافيا سنوات طويلة، فعرف الملك أن النبيلة الوفية بولينا موهت عليه نبأ وفاة هرميون، لأنها قدرت أن تلك هي الوسيلة الوحيدة لحفظ حياة مولاتها الملكة من مغبة محاكمة، أعد حكم الإعدام فيها مقدما.

ولبثت هرميون مقيمة مع صديقتها الوفية بولينا منذ ذلك الحين، وقد أخفتها في حرز حريز، تخدمها وتطعمها بنفسها، حتى لا يراها الخدم والعبيد، وبذلك حفظت سر حياتها عن الملك، ولم يغرها ما أبداه من حزن أن تذكر له الحقيقة، إلى أن علمت بعودة برديتا المفقودة، ففرحت الملكة أعظم الفرح.

وأمكنها أن تروض نفسها على العودة إلى زوجها، ذلك أنها على الرغم مما علمته من حزنه على إساءته إليها، حتى رق قلبها وغفرت له تلك الإساءة منذ زمن طويل، إلا أنها لم تستطع أن تغفر له الميتة الشنيعة التي أنزلها بابنتها الصغيرة، أما والميتة قد بعثت، والمفقودة قد عادت، فلا ذنب يستعصي على الغفران، ولا حائل يمنعها من عودتها إلى أحضانه وقد تمت سعادتها بعد شفاء طويل.

وهكذا وجد ليونتس نفسه فجأة وقد خرج من الظلمات الدامسة إلى النور الساطع، فملكته الميتة عادت إلى الحياة، وابنته المفقودة عادت من وادي الضياع، فإذا به لا يكاد يتمالك نفسه، فيقوى على احتمال هذا الطوفان الغامر من السعادة.

وماجت الدولة كلها بأهازيج الأفراح وآيات التبريك والتهنئة من كل صوب، وتقدم الوالدان الملكيان بخالص الامتنان إلى الأمير فلوريزل لما حبا ابنتهما به من حبه

الشريف العفيف، مع ما كان ظاهرا للجميع من وضاعة نسبها ورقة حالها.وبارك الوالدان والأمير ذلك الراعي الشيخ الصالح لما قام به من حفظ حياة برديتا، والقيام على رعايتها بكل حنان وإخلاص.

وأما ابتهاج كاميلو وبولينا فكان بالغا الغاية، لأن العناية الإلهية أتاحت لهما أن يعمرا حتى يشهدا هذا الختام السعيد لخدماتهما المخلصة.

ولم يبق شيء تتم به هذه الفرحة الشاملة النادرة، سوى ما تم فعلا من دخول الملك بولكسينيس بنفسه في تلك اللحظة إلى بلاط الملك ليونتس، فإن الملك بولكسينيس لما افتقده وحيده فلوريزل وصديقه كاميلو، وكان يعلم أن كاميلو لبث زمنا يحن للعودة إلى صقلية، أدرك على الفور أنه سيجد الهاربين في بلاط ملك صقلية، فلم يضع وقتا في تعقب آثارهما، واتفق وصوله في تلك اللحظة التي كانت أسعد لحظة في حياة ليونتس كلها، فأسهم بولكسينيس في هذا الابتهاج العام، وأعلن صفحه الصادق عن تلك الغيرة الظالمة العمياء التي أجرم بها ليونتس في حقه حتى كاد يفتك به.

ومرة أخرى عاد الحب والصفاء بين الخلين، وجددا عهد صداقة الصبا، ولم يعد هناك أدنى خوف من اعتراض بولكسينيس على زواج ابنه من برديتا، فهي ليست خادمة أغنام ولا حالبة نعاج كما نعتها سابقا، بل هي وريثة تاج مملكة صقلية.

وجزى الله هرميون التقية العفيفة على عذابها الطويل، بحياة مديدة بين زوجها ووحيدتها، كانت فيها أسعد الأمهات، وأسعد الزوجات، وأحب الملكات إلى قلوب رعاياها المخلصين.

ضجة بلا طائل

كانت تعيش في قصر مسينا سيدتان، تدعيان هيرو وبياتريس، وهيرو هي ابنة حاكم مسينا ليوناتو أما بياتريس فهي ابنة أخيه، أي أنها ابنة عم هيرو. وكانت بياتريس ذات مزاج فائض بالحيوية والمرح، تحب أن تدخل السرور والتسلية على نفس ابنة عمها هيرو، وأما هيرو فكانت أقرب في مزاجها إلى الجد، وفيها شيء كثير من الوداعة تهتم بكل شيء يعترضها، في حين أن أي شيء يتفق حدوثه لم يكن يعني لدى بياتريس الخفيفة الروح أكثر من مناسبة للابتهاج والطرب.

وفي الوقت الذي وقعت فيه حوادث هذه الرواية، حضر لزيارة ليوناتو حاكم مسينا نفر من الشبان ذوي النسب العالي والرتب الرفيعة في الجيش، وهم في طريقهم مخترقين مسينا عائدين من حرب وضعت أوزارها، وكانوا قد أبلوا فيها ببسالتهم الفائقة بلاء عظيما ومن بين هؤلاء النفر من الفرسان الشجعان كان الدون بدرو العظيم أمير أراجوان وصديقه كلوديو من أشراف مدينة فلورنسا، وفي صحبتهما الشاب الفكه الحاضر النكتة بنديك وهو من نبلاء بادوا.

وكان الشبان الثلاثة قد سبق لهم القدوم إلى مسينا، ولهذا قدمهم الحاكم إلى ابنته وابنة أخيه في هذه المرة باعتبارهم أصدقاء قدماء، وبمجرد دخول الحجرة التي بها الأنستان، شرع بنديك يخوض محادثة شائقة مع الحاكم ليوناتو والأمير دون بدرو فغاظ ذلك بياتريس الخفيفة الروح، لأنها كانت لا تحب أن تظل بعيدة عن أي حديث يدور أمامها، وقاطعت بنيديك قائلة:

– عجبا لأمرك يا سنيور بنيديك. أراك لم تزل مسترسلا في الحديث، مع أنه لا

أحد يلتفت إليك!

ومع أن بنيديك كان يضارع بياتريس في المزاج المرح وحب النكتة، إلا أنه لم يشعر بسرور بالغ لهذه التحية، واعتقد أنه ليس مما يليق بسيدة مهذبة أن يكون لسانها لاذعا بهذا الشكل، ثم تذكر أنه عندما كان مارا بمسينا في المرة السابقة درجت بياتريس على أن تتخذ منه هدفا لعبثها وسخرياتها الضاحكة.

ومن المشاهد أنه ما من أحد يكره أن تناله السخرية مثل هؤلاء المغرمين باستخدامها مع الناس وهكذا شأن بنيديك وبياتريس، فكلاهما لاذع النكتة، وما من مرة حدث أن التقيا من قبل إلا وشجرت بينهما حرب حقيقية مستمرة قذائفها من النكات الجارحة، ثم يفترق الأثنان وكل منهما شديد السخط والاستياء من صاحبه.

ولهذا عندما قاطعته بياتريس في وسط كلامه لتقول له أن لا أحد يلقي إليه بالا أو يهتم بحديثه، تصنع بنيديك أنه لم يلحظ وجودها في الحجرة قبل ذلك، وقال بدهشة:

- عجبا يا عزيزتي السيدة المتعالية. أما زلت على قيد الحياة؟

وبدأت الحرب من جديد بينهما، على شكل محاورة حامية طويلة.وفي خلال المبارزة اللفظية هونت بباتريس من شجاعته الحربية مع أنها كانت تعلم تمام العلم عظيم إقدامه وحسن بلائه في الحرب.

ولما لاحظت أن الأمير بدرو يطرب لحديث بنيديك، نعتته بمهرج الأمير، فغاصت هذه الطعنة التهكمية في ذهنه أكثر من كل ما رمته به، فهو لا يأبه لادعائها أنه جبان، لأنه لا شك لديه في شجاعته، أما تهمة التهريج فهي أشد ما يكون إيلاما لشخص حاضر البديهة فكه التعبير، إذ أن التهمة في هذه الحالة

تقترب في أحيان كثيرة من الصواب، ولهذا السبب ضاق بنيديك بهذا التهكم ومقت بياتريس مقتا شديدا لأنها رمته بأنه مهرج الأمير.

أما النبيلة هيرو الخجولة فلزمت الصمت في حضور هؤلاء الضيوف النبلاء. وفيما كان الأمير بدرو مستغرقا باهتمامه كله في تتبع المبارزة الكلامية بين صديقه بنيديك، وبياتريس، كان ملوديو يرقب بإعجاب آيات الفتنة التي استحدثها الزمن في هيئة هيرو الجميلة، لأنها كانت حقا آنسة بديعة الجمال.وفي أثناء الحديث مال الأمير بدرو على أذن الحاكم ليوناتو وقال له:

- إن ابنة أخيك يا سيدي شابة خفيفة الروح جدا، ما أحراها أن تكون زوجة فائقة الامتياز لصديقي بنيديك.

فأجفل الحاكم وأجاب قائلا:

- عفوك يا مولاي، إن أسبوعا واحدا يقضيانه زوجين تحت سقف واحد كاف جدا كي يخرج كل منهما عن صوابه.

بيد أن وجهة نظر ليوناتو هذه لم تحمل الأمير على تغيير رأيه أو العدول عن نيته في العمل على الربط بين هاتين القدرتين المتكافئتين في الفكاهة برباط الزواج.

ولما انصرف الأمير وكلوديو من قصر الحاكم، اكتشف الأمير أن الذي فكر فيه من أمر زواج بنيديك وبياتريس لم يكن مشروع الزواج الوحيد الذي نبت في تلك الزيارة، فهذا هو كلوديو يتحدث إلى الأمير في عبارات تنم عن حماسة شديدة لجمال هيرو، ففطن الأمير إلى ما يجول بخاطره، ولم يجد في ذلك بأسا، فقال لكلوديو:

- هل يميل قلبك إلى هيرو؟

فأجاب كلوديو على ذلك السؤال قائلا:

- مولاي الأمير، عندما مررنا في المرة السابقة بمسينا في طريقنا إلى خوض الحرب، نظرت إلى هيرو بعين الجندي الذي يعجب ويميل، ولكن ليس لديه متسع من الوقت للحب، أما الآن، ونحن في هذه الفترة السعيدة من السلم، فأرى شواغل الحرب وقد تركت مكانها في ذهني شاغرة، فتسللت إلى ذلك الموضع الخالي من نفس شواغل أخرى تتصف بالرقة والعذوبة، تراودني كلها على التشبع بجمال هيرو الشابة، وتذكرني أنني ملت إليها قبل أن أخوض الحرب، فما أحراني أن أزداد بها اليوم شغفا.

ووقع اعتراف كلوديو بحبه لهيرو موقع القبول من الأمير بدرو، فلم يضيع وقتا في التسويف، فبادر بالذهاب إلى ليوناتو يطلب منه أن يقبل كلوديو صهرا له فيزوجه من ابنته.

ولم يجد الأمير بدرو صعوبة تذكر في إقناع ليوناتو بقبول تلك الخطبة، وكذلك لم يجد عناء في إقناع الحسناء هيرو نفسها على الإصغاء لتودد النبيل كلوديو إليها، فقد كان كلودية متمتعا بشمائل نادرة، وشريف النسب مكتمل المحاسن.وبوساطة الأمير تمكن كلوديو من حمل ليوناتو على تحديد موعد قريب لإجراء زواجه من ابنته.

ومع أن المدة التي كانت تفصل كلوديو عن يوم الزفاف إلى حبيبته الحسناء لم تكن تتجاوز بضعة أيام، إلا أنه كان يشكو من ملالة الانتظار، وهذا دائما شأن الشبان، ينفذ صبرهم كلما كان عليهم أن ينتظروا إتمام أمر عقدوا العزم عليه.ولكي يهون الأمير على صديقه العزيز وطأة الانتظار، اقترح على كلوديو أن يقطعا الوقت في تسلية سارة، بأن يبتدعان حيلة محكمة التدبير تؤدي إلى وقوع كل من بنيديك وبياتريس في حب الآخر.

ولشدة ضجر كلوديو، أقبل بهمة على المشاركة في تلك النزوة التي طرأت

على بال الأمير بدرو، ولما أخبر الأثنان الحاكم ليوناتو في نيتهما وعدهما بالمساعدة على نجاح التدبير.وحتى هيرو نفسها أبدت استعدادها للقيام بأي دور يكون في وسعها عسى أن يؤدي ذلك إلى ظفر ابنة عمها بزوج صالح مثل بنيديك.

وكانت الحيلة التي اهتدى إليها تفكير الأمير، هي أن يتواطأ كلوديو وليوناتو وهو على إيهام بنيديك بأن بياتريس تكن له في الواقع حبا جارفا، وأما هيرو فكان عليها أن تحمل بياتريس على الاعتقاد بأن بنيديك في الواقع متيم بها رغم الظواهر الخادعة.

وشرع الأمير بدرو وليوناتو وكلوديو في القيام بأدوارهم المرسومة أولا، وانتهز الثلاثة فرصة كان فيها بنيديك جالسا يقرأ بهدوء في ظل أجمة من الأشجار، فتسلل الأمير وصاحباه وراء تلك الأجمة بحيث يصل كلامهما إلى أذني بنيديك، وتصنعوا الانهماك في حديث عرضي كأنهم لا يعلمون بوجوده بقربهم، وبعد أن تحدثوا في أمور أخرى، قال الأمير فجأة:

- اسمع يا ليوناتو، ما هذا الذي قلته لي ذاك اليوم.. من أن ابنة أخيك بياتريس مغرمة بحب صديقي السنيور بنيديك؟

- هي الحقيقة يا مولاي

- لا تقل هذا يا رجل. فإنه لم يخطر لي مطلقا أن هذه الآنسة الحادة اللسان يمكن أن تشغف حبا بأي رجل؟

- وكذلك أنا يا مولاي لم يكن يخطر لي هذا على بال. فمن العجيب حقا غاية العجب أن تحل ابنة أخر السنيور بنيديك من دون الناس جميعا، وهي التي تبدو من سلوكها الظاهري دائما أنها تكرهه وتنفر منه.

وأدلى كلوديو بكلاك أكد فيه هذا المعنى، راغما أن هيرو كاشفة بما تعرفه

يقينا من هيام بياتريس بحب بنيديك وأنها حقيقة أن تموت غما إن لم تسعفها الأقدار فيبادلها بنيديك حبا بحب. وعندئذ انبرى الأمير بدرو والحاكم ليوناتو يؤكدان أن هذا أمر مستحيل تماما لما يعرفانه من نفور بنيديك من سائر الحسان، ولا سيما الآنسة بياتريس، فهو يزدريها ويمقتها

وعقب الأمير بدرو على ذلك كله بإظهار رثائه الشديد لحالة الآنسة بياتريس، ثم أردف قائلا:

- ليتنا نحيط بنيديك علما بالحقيقة التي يجهلها.

فقال كلوديو

- وما الفائدة يا مولاي؟ إنه سينتهزها فرصة ويستغل حب الآنسة المسكينة له في تعذيبها والنيل منها.

فقال الأمير بحدة:

- إنه أن فعل ذلك، لاستحق أن يشنق، فبياتريس آنسة عريقة النسب جميلة ذات صفات عالية وخلق فاضل، ولست أرى فيها ما يعاب عليها سوى اندفاعها في حب بنيديك..

وبعد ذلك أشار الأمير على رفيقيه أن يتمشوا قليلا في أرجاء الحديقة، وكان قصده من ذلك أن يتركوا بنيديك يخلو إلى نفسه ويعيد التفكير في كل ما فرضوه على أذنيه فرضا. كان بنيديك قد أصغى باهتمام شديد إلى تلك المحادثة، فلما سمع أن بياتريس تعلق قلبها به قال:

- وهل هذا ممكن؟ إنه لأمر من أعاجيب القضاء!

ولما انصرف الأمير وصاحباه، أخذ يقلب الأمر على شتى وجوهه بينه وبين نفسه:

- لا يمكن أن يكون هذا ملعوبا مدبرا! قد سمعتهم يتحدثون بكل جد، ثم تأكد النبأ عن طريق هيرو التي يبدو أنها تعطف على بنت عمها وترثي لحالها، وما كانت لترثي لها لولا أن حالها بلغ من السوء مبلغا لا يستهان به، فهيرو رزينة متعقلة بياتريس تحبني أنا؟ إن هذا لعجيب إني لم أفكر مطلقا في الزواج، وكنت أؤكد دائما أنني سأموت أعزبا..

ثم هم يؤكدون أن الفتاة عفيفة فاضلة وجميلة، وأنها كذلك فعلا، ولا يرون فيها عيبا أو حماقة سوى حبها لي من دون الناس، ولست أنا على كل حال الذي يمكن أن يرى هذا أية حماقة أو سوء رأى.. ولكن ها هي بياتريس قادمة تتمشى في الحديقة.

وجعل يتفحصها بنظرة خلسة من وراء الشجر:

- إنها حسناء حقيقة، وإني لألمح على وجهها اليوم إمارات الحب، وما يتركه على السحنة من آثار العذاب..

واقتربت بياتريس منه، وقالت له بما درجت عليه من خشونة وإساءة كلما خاطبته:

- جئت على غير إرادة مني، مكلفة بدعوتك إلى المائدة

وعلى خلاف عادته، أجابها بنيديك بكل أدب وتهذيب:

- يا باتريس الحسناء، أشكر لك ما تجشمت من تعب لأجلي!

بيد أن بياتريس لم تعدل عن فظاظتها، ووجهت إليه عبارتين أو ثلاثا محملة بالاستفزاز، ثم تركته عائدة إلى القصر، فجعل بنيديك يقلب تلك العبارات، ونجح في تأويل معانيها واستخراج دلائل الميل والانعطاف من تحت مظهرها القاسي.

وعندئذ قال لنفسه:

- لئن لم تأخذني الرحمة بها، لأكونن وغدا سافلا، ولئن لم أجزها بحبها حبا لأكونن من بني صهيون، لابد أن أحصل على رسمها.

أما وقد وقع بنيديك في الشرك الذي نصبوه له، فقد حان أوان الخطوة الثانية، وهي من نصيب هيرو، كي تقوم بدورها المرسوم لدى بياتريس كما هو مقرر من قبل. وتنفيذا لهذه الخطة، أرسلت هيرو فدعت إليها وصيفتين من فتيات الشرف الملحقات بحاشيتها، وهما أورسولا ومرجريت.

فقالت لمرجريت:

- يا عزيزتي أرجوك أن تسرعي إلى حجرة الجلوس، حيث تجدين ابنة عمي بياتريس تتحدث إلى الأمير بدرو والسنيور كلوديو، فأسري في أذنها أنني وأورسولا نتمشى في البستان وأن حديثنا كله يدور عنها، ثم أشيري عليها أن تسرع الخطو إلى تلك الأجمة المعهودة في نزهتنا لطيب هوائها وامتداد ظلها، كي تعرف ما يدور بشأنها.

وكانت هذه الأجمة التي ترغب هيرو إلى مرجريت أن تستدرج إليها بياتريس، هي بعينها تلك الأجمة التي كان بنيديك جالسا فيها حين سمع ما دار بشأنه من حديث بين الأمير وكلوديو وليوناتو.

وقالت مرجريت لهيرو:

- اعتمدي علي، فأنا ضامنة أن أجعلها تذهب إلى هناك حالا

وبعد ذلك أخذت هيرو أورسولا معها وذهبتا إلى تلك الأجمة في طرف البستان، وقالت لها:

- اسمعي جيدا يا أورسولا ما سأخبرك به ونفذيه بكل دقة

- إني مصغية يا سيدتي. اعتمدي علي.

- عندما تأتي بياتريس سنأخذ في التمشي في هذا الممر ذهابا وإيابا، ويجب أن يكون حديثنا كله عن بنيديك، وعندما أذكر لك اسمه، فعليك أن تبادري في الثناء عليه ثناء لم يظفر به رجل من قبل.

- هذا أمر ميسور يا سيدتي.

- وأما أنا فسأحدثك عن بنيديك، وكيف أن هذا الرجل الذي يتمتع بمزايا نادرة بين الرجال، حوله حب بياتريس إلى شقي القلب لما يراه من صدها له ونفورها منه، والآن ابدئي في الكلام، فأني ألمح هناك بياتريس تتسلل منحنية لتتوارى عن أنظارنا وهي قادمة نحونا لتسمع حديثنا.

وشرعت هيرو تقول كأنها ترد على كلام وجهته إليها أورسولا:

- كلا قطعا يا أورسولا، فهي شديدة التعالي، وفي طبعها حدة، تنفر من الناس، نفور الطيور الضارية التي تعيش في الجبال.

فقالت أورسولا:

- ولكن هل أنت واثقة يا سيدتي إن هذا الفارس الوسيم المقدام بنيديك متيم بحب بياتريس إلى هذا الحد؟

فأظهرت هيرو الدهشة لشك أورسولا وقالت بحماسة:

- هذا ما يؤكده الأمير بدرو وخطيبي كلوديو، وقد ألحا علي أن أتوسط لدى بياتريس حتى تعلم حقيقة شعور بنيديك نحوها.

- وهل تنوين الاستجابة لرغبتيهما في ذلك؟

- كلا، فقد أوضحت لهما وأقنعتهما أنهما إن كانا يحبان بنيديك حقا، فيجب أن يتحاشيا وصول الخبر إلى بياتريس.

– معك حق كل الحق، فليس من الخير مطلقا يا سيدتي أن تعرف أمر حبه لها، حتى لا تتخذ نفطة ضعفه هذه وسيلة للنيل منه بتهكمها اللاذع وسخريتها العابثة.

فقالت هيرو متصنعة غاية الدهشة:

– الحق أقول لك يا أورسولا أني لم أر في حياتي رجلا يفوق بنيديك في العقل والنبل والشباب ووسامة الشكل. ولكن ابنة عمي لا هم لها إلا التنقص منه ورميه بالمثالب والذم.

فقالت أورسولا:

– إن طريقتها في التجريح غير مستحسنة قطعا.

– كلا بالتأكيد، ولكن من الذي يجسر أن يقول لها هذا؟ إني إن فاتحتها في ذلك لجعلت تهزأ بي حتى لا تبقي مني شيئا

– أحسبك يا سيدتي تظلمين ابنة عمك، إذ لا يمكن أن تكون مجردة من بعد النظر وصواب الحكم إلى حد أن ترفض سيدا نبيلا عزيز المثال مثل السنيور بنيديك.

– كلامك في موضعه، فالسنيور بنيديك يحمل اسما شهيرا عريقا، ويعتبر في الواقع السيد الأول في إيطاليا، بعد عزيزي كلوديو طبعا.

وعندئذ أشارت هيرو إشارة خفيفة إلى أورسولا، أنه قد حان الوقت لتغيير موضوع الحديث، فقالت أورسولا:

– دعينا من هذا يا سيدتي وخبريني متى سيتم الزواج؟

فأخبرتها هيرو أنها ستتزوج كلوديو في اليوم التالي، ورغبت إليها أن تذهب

معها لتتفرج على الثياب الجديدة، ولتأخذ رأيها فيما ينبغي أن ترتديه في الغد، وانصرفت الغادتان على الأثر.

وما إن انفردت بياتريس بنفسها، حتى تنفست الصعداء لأنها كانت تصغي باهتمام شديد، وقد حبست أنفاسها حتى لا تنم عنها، ثم قالت:

- أي نار هذه التي صبت في سمعي؟ أمن الممكن أن يكون هذا صحيحا؟ وداعا إذن للازدراء والإساءة وكبرياء العذارى!

وامض في حبك يا بنيديك قدما! فسوف أجزيك حبا بحب، وسأروض قلبي الشرود الجامح حتى أضعه هادئا وديعا بين يديك الحانيتين..

ولا شك أنه كان من المطرب جدا أن يشاهد الإنسان هذين العدوين القديمين يعدلان إلى مودة شديدة وحب حنون، وأن يرى الإنسان على الخصوص أول لقاء لهما بعد أن انطلت عليهما الخديعة المزدوجة التي دبرها الأمير بدرو.ولكن للأسف الشديد دخل في الموقف عنصر جديد شاب بالكدر صفو هيرو، فإن الغد الذي كان محددا ليوم زفافها، جلب لها الأحزان ونغص أيضا والدها الطيب الحاكم ليوناتو، فقد كان للأمير بدرو أخ غير شقيق اسمه دون جون، عاد من الحرب مع أخيه ونزل معه بمسينا، وكان دون جون هذا رجلا سوداوي الوجه منقبض السحنة متبرما بالحياة، يبدو دائما وكأنه مشغول النفس بالتفكير في أفاعيل السوء والمؤامرات.

وكان دون جون يكره أخاه الأمير بدرو، ويكره أيضا كلوديو لأنه صديق الأمير، فقرر أن يبذل ما في وسعه ليحول دون إتمام زواج كلوديو من هيرو، لا لمغنم يرمي إليه سوى تكدير صفو كلوديو والأمير بدرو، فهو يعلم أن الأمير هو الذي سعى لذلك الزواج، وإن إتمامه يعينه ويهمه كما يهم كلوديو نفسه.

وتوسل لإتمام هذا الغرض الوبيل الدنيء استعان برجل يضاهيه في الشر اسمه بوراشيو، واشترى خدماته السافلة بمبلغ طائل.

وفي الوقت نفسه كان بوراشيو هذا يعشق مرجريت وصيفة هيرو، فلما عرف دون جون ذلك كلفه أن يجعل مرجريت تتعهد بالتحدث إليه من نافذة مخدع هيرو في نصف الليل، بعد أن يكون هيرو قد نامت، وبشرط أن ترتدي ثياب هيرو حتى تتهيأ أركان الخديعة ويسهل على كلوديو الاعتقاد بأن هيرو هي التي تكلم بوراشيو على تلك الصورة المريبة، فإن ذلك كان هو الهدف الذي يسعى دون جون للوصول إليه.

وذهب دون جون بعد ذلك إلى أخيه الأمير بدرو وكلوديو وأخبرهما أن هيرو فتاة عديمة الحياء فاسدة الخلق، وأنها تتحدث إلى الرجال الغرباء من نافذة حجرة نومها في منتصف الليل.وكانت هذه الليلة بالذات هي الليلة التي سيعقبها يوم الزفاف ولها بطبيعة الحال مكانة خاصة في نفس كل عروس.فأقدامها فيها على مزاولة العبث يكون أدعى لبشاعة الفعل ووخامة التهمة.

وعرض دون جون على الأمير وعلى كلوديو أن يأخذهما تلك الليلة بالذات إلى حيث يسمعان بنفسيهما هيرو تتحدث إلى رجل غريب من نافذة مخدعها، فوافقا على الفور أن يذهبا معه.

وقال كلوديو:

- أقسم لئن رأيت هذه الليلة ما يدعوني إلى العدول عن الزواج منها، أن أصبر حتى يلتئم الجمع في الغد للاحتفال بالعقد، وعندئذ أشهر بها على رؤوس الأشهاد.

وقال الأمير أيضا:

– ومن حيث أنني أنا الذي ساعدتك وأيدتك على طلب يدها، فسأنضم إليك وأؤيدك في فضيحتها.

ولما قادهما دون جون إلى قرب حجرة هيرو في تلك الليلة، شاهدا بوراشيو واقفا تحت النافذة، ثم رأيا مرجريت تطل من نافذة مخدع هيرو، وسمعاها تتكلم مع بوراشيو، ولما كانت مرجريت مرتدية الثياب عينها التي شاهدا هيرو من قبل فيها، اعتقد الأمير بدرو وكلوديو أن المتحدثة هي بلا شك هيرو وبلغ غضب كلوديو غاية لا مزيد عليها عندما وقع على ذلك الاكتشاف الخطير، وعلى الفور انقلب حبه لهيرو المسكينة المفترى عليها بغضا وكراهية، وعزم أن يفضحها في الكنيسة كما أقسم من قبل، متى اجتمع الناس لمناسبة الزفاف، ووافق الأمير على ذلك، لأنه وجد مثل هذه الآنسة المخادعة السيئة السلوك التي تحدث الرجال الغرباء من نافذة مخدعها عشية زواجها، لا تستحق عقابا أهون من ذلك العقاب.

وفي اليوم التالي، وقد أن يلتئم الجمع للاحتفال بالزواج، ووقف كلوديو وبجواره هيرو أمام الكاهن، واستعد الكاهن لينطلق بمراسم الزواج، وسأل كما هي العادة العريس هي يتخذ هيرو ابنة الحاكم ليوناتو زوجة أمام الله والناس، إذا بكلوديو يجيب بانفعال شديد وبأسلوب عنيف، معلنا على الملأ جرم هيرو الطاهرة الذيل، فذهلت هيرو من تلك الألفاظ الغريبة، بيد أن وداعتها الفطرية غلبت عليها فقالت:

– هل سيدي مريض حتى يدلي بمثل هذه الأباطيل؟

وأما والدها الحاكم ليوناتو فاستولى عليه رعب فظيع، واتجه بنظره إلى الأمير بدرو يستنجد به لينقذ الموقف الذي جهم إليه صديقه وتابعه:

– مولاي الأمير، لماذا لا تقول شيئا؟

– وماذا عساي أقول، فإني أشعر بخزي شديد، لأني أوشكت أن أربط شرف صديقي واسمه بامرأة غير جديرة به

– ما هذا الذي تقول يا مولاي؟

– أقسم لك يا ليوناتو بشرفي، إنني أنا وأخي وهذا الشاب المجني عليه كلوديو رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا في الليلة الماضية، قرب منتصفها، سمعنا ابنتك هذه تكلم رجلا غريبا من نافذة مخدعها.

فاستولت الدهشة على بنيديك وصاح:

– إن هذا ليس عرسا..

فقالت هيرو صديعة الفؤاد:

– صدقت. انقذني يا إلهي!

ثم سقطت مغشيا عليها، حتى ظن الجميع أنها ماتت غما وخزيا. وانصرف الأمير بدرو مع كلوديو من الكنيسة من غير أن ينتظرا ليريا ماذا حل بهيرو وهل تفيق أم لا؟ ولم يكترثان كذلك بالأسى الفاجع الذي ألقيا فيه بالمسكين ليوناتو، فإن الغضب والغيظ حجرا قلبيهما. ولم يشأ بنيديك أن ينصرف مع صاحبيه، فبقى وساعد بياتريس في إفاقة هيرو من إغمائها:

– ماذا حدث لها؟

– أظنها ماتت، يا لبنت عمي المسكينة!

فإن بياتريس كانت تحب بنت عمها كثيرا، وتعرف أخلاقها القويمة، فلم تصدق حرفا مما سمعته يعزي إليها. أما أبوها المسكين فلم يكن هذا حاله، إذ

صدق ما قيل عن عار ابنته، فكان نواحه على الكارثة التي حلت بشرفه وشرفها يفتت القلوب، وهي ملقاة أمامه كالميتة، ويرفع يديه إلى السماء أمام الهيكل صارخا بالدعاء إلى الله أن يلطف به فلا يقدر لها أن تفتح عينيها!

بيد أن الراهب العجوز فرنسيس كان رجلا عاقلا حصيفا، واسع الدراية بالطبيعة البشرية، وكان قد راقب باهتمام سحنة هيرو وهي تسمع الاتهام الفظيع يلقى في وجهها بصوت جهير، فرأى ألف علامة من علامات الاستياء والخجل ترتسم على وجهها، ثم غاصت تلك الدماء كلها فغدا وجهها أبيض ناصعا كوجوه الملائكة وفي عينيها لمح وميضا هو أقطع تكذيب للخطأ الذي تردى فيه الأمير بتوكيد التهمة ضد صهارتها، فقال الراهب لأبيها المحزون كل ذلك، ثم أردف قائلا:

- لأكونن مغفلا لا يوثق له برأي أو فهم أو إطلاع، ولا أستحق ما ينبغي لسني من توقير، إن لم تكن هذه الآنسة بريئة مما رميت به، وضحية خطأ شائن.

ولما أفاقت هيرو من غشيتها قال لها الراهب:

- من يا سيدتي هذا الرجل الذي اتهموك به؟

فأجابته على الفور:

- يعرفه من يتهمونني، أما أنا فلا أعرف أحدا

ثم التفت إلى والدها ليوناتو وقالت له:

- أي والدي العزيز، إن استطعت أن تقيم البرهان على أن أي رجل تحدث إلي في يوم من الأيام أو ليلة من الليالي في ساعة غير لائقة، أو أنني في الليلة الماضية تبادلت الكلام مع أي مخلوق أثناء الليل، فلك أن تتبرأ مني، وتمقتني، وتعذبني حتى الموت.

فقال الراهب العجوز:

- هناك لبس وقع فيه الأمير وكلوديو، لاشك في ذلك عندي.

- ثم نصح الراهب لليوناتو أن يشيع نبأ وفاة هيرو، وسيساعد على تصديق ذلك شدة الغيبوبة التي شوهدت تسقط فيها بغيبوبة الموت، وأن يرتدي الحداد عليها ويقيم شاهدا فوق قبر يحمل اسمها، ويتخذ سائر المراسم التي تتصل بالجنازات

فسأله لوناتو:

- وما الغرض من ذلك؟

فأجابه الراهب قائلا:

- إن شائعة نبأ وفاتها ستحول الشماتة إلى رثاء، وهذا في حد ذاته خير وكسب، ولكن ليس هذا هو كل الكسب الذي نرمي إليه، فإنه حينما يسمع كلوديو أنها ماتت من تأثير كلماته، سيدب إلى قلبه الندم، وستبعث محاسن حياتها واضحة في مخيلته، فإن كان قد حمل لها في قلبه ذرة من الحب والاهتمام فسوف يحزن عليها ويتمنى لو لم يقذفها بتلك التهم، مهما كان اعتقاده أن تلك التهم مطابقة للحقيقة.

وعندئذ قال بنيديك:

- اتبع يا ليوناتو مشورة الكاهن الفاضل، وثق أنه مع حبي للأمير وكلوديو، إلا أنني أقسم بشرفي ألا أفشي لهما هذا السر.

فاقتنع ليوناتو على مضض، وخضع لذلك الرأي وهو يقول بانكسار:

- لقد أطاش الغم صوابي، وهدم إرادتي، حتى يستطيع غلام صغير أن يقودني حيث يشاء.

وبعد ذلك أخذ الراهب ليوناتو وهيرو إلى خارج الكنيسة ليسري عنهما، وبقيت بياتريس وبنيديك وحدهما. وكان بينديك هو أول من تكلم، ويجب ألا ننسى أن هذا أو اجتماع لهما بعد تنفيذ الخدعة المزدوجة، فقال:

- سيدتي بياتريس، هل بكيت كثيرا في هذه الفترة؟

- أجل، وسأبكي فيما يلوح أمدا طويلا

- إنني اعتقد كل الاعتقاد أن ابنة عمك مفترى عليها ومظلومة

- أجل وإن الرجل الذي يفلح في إنصافها ليكونن أهلا مني لخير كثير.

- ليتني أستطيع ذلك، ولكن هل من سبيل إليه؟ فإني لا أحب شيئا في الدنيا كما أحبك، أليس هذا غريبا؟

- كان في استطاعتي أن أقول لك أيضا أنني لا أحب في الدنيا شيئا كما أحبك، ولكني لا أؤكد ذلك ولا أنفيه في الوقت الحاضر لأنني متداعية النفس حزنا على ما أصاب ابنة عمي زورا وبهتانا.

- لعمري أنت تحبينني، وأنا أؤكد أني أحبك، فهيا مريني بما شئت أصنعه من أجلك مهما كلفني.

فقالت بياتريس على الفور:

- أقتل كلوديو!

- ها ها! ألا هذا فلا أفعله ولو للظفر بالدنيا بما رحبت!

فقد كان بنيديك يحب صديقه كلوديو ويعتقد أنه ضحية احتيال.

- أليس كلوديو هذا سافلا، حتى لقد أقدم على التشهير بابنة عمي وتلويث شرفها؟ ليتني كنت رجلا!

- على رسلك يا بياتريس، اصغ لي..

ولكن بياتريس لم تشأ أن تصغي لأي دفاع عن كلوديو، وواصلت استفزاز بينديك لينتقم لابنة عمها المظلومة.

- يا لها من تهمة! يا له من إفك وبهتان! هيرو تكلم رجلا من النافذة؟ هيرو الوديعة العفيفة؟ أنها مظلومة، مفترى عليها، كم أتمنى لو كنت رجلا كي ألقاك يا كلوديو وانزل بك ما تستحق! أو ليت لي صديقا يرضى أن يكون رجلا من أجلي! ولكن النخوة ضاعت في هذه الأيام معالمها وانحطت فاتخذت صورة ألفاظ منمقة وتحيات، لا تكفي الرغبة كي أكون رجلا، ولهذا سأموت بحسرة أنني امرأة!

- أقسم لك يا بياتريس، أقسم بذراعي ويدي أني أحبك

فأجابته بياتريس ساخرة:

- استعمل يدك في حبي بصورة أخرى سوى اتخاذك إياها وسيلة للقسم، إن كان ذلك في مقدورك

فقال بنيديك يسألها:

- أتقسمين بروحك أن كلوديو ظلم هيرو؟

- أجل ظلمها، إني واثقة من ذلك ثقتي من عقلي وروحي

- كفى! قبلت المهمة. سأتحداه للمبارزة، والآن سأقبل يدك ثم أتركك، وإني لأقسم بهذه اليد أن كلوديو سيؤدي لي حسابا عسيرا! وعندما تصلك الأنباء اذكري أنني قمت بما طلبته مني، والآن اذهبي للتخفيف عن بنت عمك.

وفي الفترة التي انقضت في المشهد السابق، وبياتريس تحفز بنيديك كي ينتقم

لشرف بنت عمها المثلوم، وينتصف لحقها المهضوم بمنازلة صديقة الحميم، كان ليوناتو والد هيرو يتحدى الأمير بدرو والسنيور كلوديو أن يبارزاه ردا للإهانة التي ألحقاها بابنته، تلك الأبنة التي أكد لهما وفاتها غما وكمدا لذلك الاتهام الظالم.بيد أن الأمير وكلوديو راعيا تقدمه في السن، ووقوعه تحت تأثير سورة الحزن، وأبيا أن يقاتلاه حتى لا يقتلانه.

وفي هذه اللحظة أقبل بنيديك، فإذا به يتحدى كلوديو أن يحتكم معه إلى السيف في الإهانة التي ألحقها بالآنسة هيرو، ولا عذر لكلوديو في التقاعس عن مبارزته، فهو شاب ورفيق في الفروسية والسلاح.وتبادل كلوديو والأمير بدرو النظرات، وقال كل منهما للآخر:

- لا شك أن بياتريس هي التي دفعته إلى هذا المسلك

ولم تكن هناك مفر أمام كلوديو من قبول تحدي بنيديك، لو لم تشأ عدالة السماء في تلك اللحظة أن تبعث برهانا ليس بعده برهان، أقوى وأقطع من برهان الاحتكام إلى السيف، على أن هيرو شريفة عفيفة بريئة كل البراءة مما رميت به. ففيما كان الأمير وكلوديو يتداولان بشأن تحدي بنيديك، إذا بشرطي قد أتى ببوراشيو سجينا أمام الأمير، فقد سمع بوراشيو يتحدث إلى صاحب له عن التدبير السيء الذي أغراه الدون جون باقترافه.

واعترف بوراشيو اعترافا كاملا بين يدي الأمير بدرو، وعلى مسمع من كلوديو، مقرا أن مرجريت تخفت في ثياب مولاتها وتحدثت إليه من نافذة مخدع هيرو، حتى تلقي التهمة على تلك السيدة، فتلاشى من ذهن الأمير وكلوديو كل شك في براءتها. وحتى لو أنه بقي لديهما أثر من شك، فقد كان كفيلا بتبديده فرار الدون جون من مسينا عندما علم افتضاح تدبيره الوضيع، حتى لا يحيق به غضب أخيه الأمير بدرو.

تلاشى الشك من فؤاد كلوديو، ولكنه طفح بالندم والغم لما وصم به هيرو ظلما وعدوانا، حتى ماتت كما توهم، وبعث لديه حبها أشد مما كان في بداية الأمر. أما الأمير بدرو فكان نهبا للحزن والاستياء والخجل، جعل يسأل كلوديو:

- ألا تشعر أن ما سمعته كأنه سيف من الفولاذ اخترق صدرك حتى المقبض؟

- بل شعرت كأنني تجرعت السم مع كل كلمة تفوه بها بوراشيو.

ثم اتجه كلوديو إلى الشيخ ليوناتو يتوسل إليه أن يغفر له ما أصاب به ابنته، ويقسم أن يقدم على أي كفارة يطلبها منه ليوناتو ويراها كافية لمحو ذلك الذنب الذي اقترفه في حق خطيبته المحبوبة.

وكانت الكفارة التي فرضها ليوناتو عليه غريبة في بابها. فقد ختم عليه أن يتزوج في اليوم التالي ابنة عم هيرو، أصبحت وريثته من بعدها، وتشبه هيرو من جميع الوجوه.

ولم يجد كلوديو مفرا من الإذعان أمام التعهد الذي ارتبط به سلفا، فقال أنه مستعد أن يتزوج تلك الآنسة المجهولة، حتى لو كانت حبشية. وانصرف كلوديو منكس الرأس محطم النفس، فقضى الليل بطوله لا يرقأ له دمع، ولا يستقر له رقاد من لواعج الندم والأسف، فاستقر سائر ليلته قائما على شاهد المقبرة التي أقامها ليوناتو لهيرو!

ولما طلع الصباح صحب الأمير بدرو صديقه كلوديو إلى الكنيسة مرة أخرى، ليبر بالوعد الذي آلاه على نفسه بالأمس. وفي الكنيسة كان الراهب فرنسيس الصالح ومعه ليوناتو وابنة أخيه بياتريس، ثم قدم ليوناتو إلى كلوديو عروسه الجديدة، وقد ألقت على وجهها خمارا كثيفا وطلب من كلوديو ألا يكشف النقاب إلا بعد الزواج.

وقال كلوديو للسيدة المقنعة:

- امنحيني يدك أمام هذا الكاهن المقدس، فإني أريد أن أكون زوجا لك إذا قبلت الزواج مني.

فأجابته السيدة المجهولة:

- ولكني عندما كنت على قيد الحياة كنت زوجتك الأخرى! ثم أماطت اللثام عن وجهها، فتبين فيها كلوديو على الفور هيرو بلحمها ودمها لا ابنة عم لها كما كان يظن.

وما من شك أن هذه المفاجأة كانت أبهج ما يمكن لقلب كبوديو المسكين الذي كان يظنها ماتت، ويظن نفسه مسؤولا عن وفاتها بظلمه وغفلته، فلبث برهة طويلة لا يصدق عينيه وحواسه.. أما الأمير بدرو فكان وقع المفاجأة عليه لا يقل عن وقعها على صديقه، فراح يهز ليوناتو صائحا:

- أليست هذه هيرو؟ هيرو التي ماتت؟

فقال ليوناتو باسما:

- ولكنها لم تمت يا مولاي ألا ريثما تموت الفرية التي رميت بها.

وابتسم الراهب فرنسيس ووعد الأمير وكلوديو بتفسير شاف لهذه المعجزة بعد أن تتم مراسم الزواج. وأوشك أن يقدم على إتمام ما هو بسبيله، لولا أن قاطعه بنيديك ملحا أن يتم في نفس الوقت زواجه من بياتريس.

وشاءت بياتريس أن تظهر شيئا من التمنع على عادة الفتيات ولكن بنيديك تحداها فواجهها أنه يعرف هيامها به، وأن هيرو هي التي نقلت إليه ذلك فلا محل للمراوغة.

وبطبيعة الحال انكشفت الحيلة، وأعقب ذلك توضيح للمسألة من جميع أطرافها، ولكن بياتريس وبنيديك بعد أن اكتشفا أنهما كانا ضحية عبث مزدوج، اكتشفا كذلك أن تلك الأكذوبة أتت ثمارها وجعلتهما عاشقين حقا وصدقا. ومع ذلك لم تفارقهما طبيعة المرح والمشاغبة اللاذعة، فتصنع بنيديك التورط، وقال:

- أعلمي أنني لا أتزوجك إلا شفقة عليك أن تموتي وجدا!

فانتفضت بياتريس متصنعة الغضب، وقالت:

- وأنا لم أنزل على رغبتك إلا لأنقذ حياتك، بعد الذي سمعته من إصابتك بسهم لحاظي في مقتل!

وهكذا اجتمع الندان، وبعد أن تم زواج كلوديو وهيرو تم زواج بياتريس وبنيديك على الفور. كي تتم عدالة السماء، أدرك المطاردون دون جون في فراره وجيء به ليتم الانتقام منه بأن يشهد الولائم والاحتفالات ومعالم الابتهاج والسرور تملأ مسينا، حيث دبر أن يسود الوجوم والعار.

كما تريد

في العهد السالف الذي كانت فيه فرنسا مقسمة إلى مقاطعات تسمى دوقيات، كان يحكم إحدى تلك المقاطعات مغتصب خلع عن عرش الدوقية أخاه الأكبر ودوقها الشرعي ونفاه خارج الحدود.

واعتزل الدوق المخلوع هو وحفنة ضئيلة من أتباعه المخلصين في غابة أردن، وهناك عاش هذا الدوق الصالح مع أحبائه الذين ارتضوا لأنفسهم حياة الغربة والمنفى بمحض إراداتهم حبا في هذا الدوق، تاركين إيرادات أملاكهم نهبا لذلك المغتصب الأثيم.

وسرعان ما تعودوا هذه الحياة الهينة السهلة الخالية من المراسم والتكاليف، وعاشوا على فطرة الطبيعة، فأصبحت أحب إلى نفوسهم من حياة البلاط الضخمة، التي تكتنفها المتاعب، وتتحكم فيها نصوص البروتوكول، فهم في تلك الغابة الفرنسية، يحبون تلك الحياة التي كان يحيياها روبين هود في الزمان الغابر في بريطانيا، وإلى هذه الغابة كان يقصد في كل يوم كثير من الشباب أبناء النبلاء فارين من البلاط، ليعيشوا تلك المعيشة المنطلقة الفطرة من غير حساب للزمن، ففي الصيف يستلقون في ظل أشجار الغابة الضخمة، يرقبون الغزلان الوحشية في مرحها، وقد أحبوا تلك الوحوش الرشيقة الجميلة حتى كانوا يتألمون لأقدامهم أحيانا على قتل شيء منها ليحصلوا على الطعام الضروري.

وحينما تهب رياح الشتاء الباردة، كان الدوق يتذكر مصيره المظلم الذي أبعده عن الحرارة أمام مواقد قصره، بيد أنه كان يتجلد في صبر ويقول:

– إن هذه الرياح القارصة التي تهب على بدني بمثابة مستشارين صادقين لا يخدعونني بالتملق، بل يصورون لي حالتي بأمانة، ولئن كانوا يعضونني بأسنان حداد، فأسنانهم ليست شيئا مذكورا بالقياس إلى أنياب الجحود والبغضاء والحسد، ومهما طال الناس في الكلام عن تقلبات الزمان، فهناك ولا شك منافع كثيرة يمكن استخلاصها من تلك العقبات كما تستخلص مادة الترياق من لعاب الأفعى.

وعلى هذا النحو كان الدوق الشجاع الصبور يستنبط المواعظ النافعة من كل شيء تقع عليه عيناه وبفضل هذه المزية استطاع أن يجد للأشجار لسانا، وأن يطالع في تموجات الجداول كتبا، وأن يتلو في الصخور عظات!

وكانت لهذا الدوق المنفي ابنة وحيدة اسمها روزالند احتجزها عمها المغتصب فردريك في بلاطه لتكون رفيقة لابنته سيليا، فنشأت صداقة وطيدة بين الفتاتين، لم يؤثر فيها ما بين والديهما من خصومة وخلاف، حتى إن سيليا كانت تنتهز كل فرصة لتبذل كل ما في وقدورها تعويضا لروزالند عن جور أبيها حين خلع عن عرش الدوقية والد روزالند.

وكلما طاف طائف الحزن بروزالند إذ تتذكر والدها المبعد، وحياتها في كنف هذا المغتصب الجائر كانت سيليا تجتهد كل الاجتهاد في الترفيه عنها وتعزيتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

وفي ذات يوم، كانت روزالند واجمة كما يحدث لها أحيانا كثيرة، فقالت لها سيليا بحنان ورفق:

– أتوسل إليك يا ابنة عمي العزيزة أن تبتهجي وتتركي الحزن.

وإذا برسول من الدوق يدخل عليهما ليدعوهما إن أرادتا إلى مشاهدة مباراة

في المصارعة ستقام فورا في الساحة الواقعة أمام القصر، ووجدت سيليا في هذه المباراة فرصة لإدخال السرور والسلوى على قلب روزالند، فوافقت على الذهاب لمشاهدتها.

وكانت المصارعة في ذلك الزمان هي الرياضة المفضلة في بلاط الأمراء، وتشهدها الأميرات والنبيلات، وإلى تلك المباراة توجهت سيليا وروزالند فاكتشفا أن المباراة اليوم توشك أن تتمخض عن مشهد فاجع جدا، ذلك أن مصارعا ضخما محترفا، طويل الخبرة بفنون تلك الرياضة، وسبق له أن قتل في مباريات من هذا النوع رجالا كثيرين، كان اليوم سينازل شابا صغيرا جدا ليست له أية خبرة في ذلك الفن، فاعتقد الجميع أنه مقتول في هذا اليوم لا محالة.

ولما رأى الدوق وسيليا وروزالند قال لهما:

– هل أتيتما لتشاهدا المصارعة؟ إنكما لن تسرا بمباراة اليوم لأن الفرق بين الرجلين هائل، وكنت أتمنى شفقة بهذا الشاب أن يعدل عن المنازلة، فكلماه أنتما في هذا الشأن عسى أن يلين لوساطتكما.

وراق للأنستين أن تقوما بهذه المهمة الإنسانية، وبدأته سيليا بمناشدته أن ينسحب من المباراة، ثم بعد ذلك كلمت روزالند الشاب الغريب برقة شديدة، وباعتبار دقيق للخطر الذي أوشك أن يتردى فيه، بحيث أتى كلامهما بعكس الغرض منه! فبدلا من أن يقتنع بكلامهما العذب فينسحب، أصبح كل همه موجها إلى إظهار تفوقه وشجاعته ليظفر بالإعجاب في نظر هاتين الآنستين الحسناوين، ولذلك اعتذر عن إجابة رغبة سيليا ورزوالند اعتذارا لبقا مهذبا، زادهما قلقا به وهما عليه، وختم اعتذاره قائلا:

– إنه ليؤسفني ألا أجيب آنستين في جمالكما وعلو مكانتكما إلى أي شيء

تطلبانه، ولكن أرجو أن تتبعني إلى ميدان المصارعة عيونكما الجميلة وتمنياتكما النبيلة، فإذا قدرت لي الهزيمة فقد استحققت العار، وإن قدر لي الموت فقد سعيت إليه بقدمي، وإني إن مت فلا ضير من ذلك على أحد لأنه ليس لي أهل ولا صديق، ولن يتأذى من ذلك أحد لأنه ليس في الدنيا من أعوله، ومكاني في الدنيا سيملأه من هم أولى به مني حين أخلي بمنيتي هذا المكان.

وبعد ذلك بدأت مباراة المصارعة، وتمنت سيليا ألا ينال هذا الشاب الغريب أذى، أما روزالند فكان شعورها نحوه أشد وأقوى، فإن حالته التي وصفها من انعدام الأهل والأصدقاء وهوان المكانة حتى بات يرحب بالموت، كل ذلك جعل روزالند تقرن شقاء حاله بشقاء حالها، فعطفت عليه عطفا كبيرا وفاض قلبها بالرحمة له، واهتمت كل الاهتمام بما يحف به في المصارعة من خطر كبير، حتى لأوشك اهتمامها في تلك الساعة أن ينزلق بها إلى حبه.

وفي الوقت نفسه زود الشاب المجهول عطف هاتين النبيلتين الحسناوين بشجاعة وقوة، حتى صنع الأعاجيب، وتمكن في النهاية من قهر خصمه الذي أصيب بضربات أليمة جعلته عاجزا مدة طويلة عن الكلام والحركة.

وسر الدوق فردريك سرورا عظيما للشجاعة والبراعة اللتين أبداهما هذا الشاب الغريب، وأحب أن يعرف اسمه ونسبه، لأنه انتوى أن يشمله برعايته وحمايته ويضمه إلى أنصاره وبطانته.وقال الغريب المنتصر أن اسمه أورلاندو، وأنه أصغر أبناء السير رولاند دي بويز.

وكان السير رولاند دي بويز والد أورلاندو قد مات منذ بضع سنوات، ولكنه كان في مدة حياته تابعا مخلصا وصديقا حميما للدوق المنفي، فلما سمع فردريك أن أورلاندو هو ابن صديق لأخيه المخلوع، انقلبت محبته لهذا الشاب

المقدام إلى نفور وكراهية، وغادر المكان وهو يغلي بالغضب وضيق الصدر، فإن كراهيته أن يسمع اسم أي واحد من أنصار أخيه، طغى على إعجابه ببسالة هذا الشاب، حتى أنه قال وهو منصرف:

- ليت أورلاندو كان ابن أي رجل آخر.

أما روزالند فابتهجت لما سمعت أن هذا الشاب ابن صديق قديم لأبيها، وقالت لابنة عمها سيليا:

- إن أبي كان يحب السير رولاند دي بويز، ولو أنني عرفت أن هذا الشاب ابنه، لشفعت توسلاتي إليه ليحجم عن هذه المغامرة بدموع غزيرة.

واتجهت الآنستان إلى أورلاندو، فوجدتاه محزونا لما أبداه الدوق من استياء مفاجئ، فوجهتا إليه عبارات تشجيع رقيقة، وقبل أن تنصرفا التفت روزالند خلفها وكلمت ابن صديق أبيها الشاب الشجاع بمزيد من التلطف، وانتزعت من عنقها سلسلة وقالت له:

- ألبسها يا سيدي تذكارا مني، ولو لم أكن في أدبار من الدنيا وحظوظها لمنحتك هدية أجمل وأثمن.

وبعد أن خلت الفتاتان إلى نفسيهما، ظل حديث روزالند عن أورلاندو مستمرا، فبدأت سيليا تعتقد أن بنت عمها تعلقت بحب هذا المصارع الجميل الشاب، وقالت لروزالند:

- أمن الممكن أن تحبيه هكذا دفعة واحدة؟

- إن الدوق والدي كان يحب أباه حبا عظيما.

- ولكن هل يلزم من ذلك أن تحبي أنت أبنه حبا عظيما؟

- ولم لا؟

- لأنه إن لزم من حب أبيك لأبيه أن تحبي أنت الأبن، للزم من ذلك أن أكرهه أنا لأن أبي يكره أباه، ولكن لا أجد نفسي أكره أورلاندو.

ونعود إلى الدوق فردريك وقد أسخطه أشد السخط مرأى ابن السير رولاند دي بويز، الذي ذكره بأصدقاء كثيرين وأنصار محبين تتعلق أفئدتهم بالدوق المنفي، وهم منبثون في صفوف الأشراف من أهل الدوقية. كان فردريك يشعر منذ مدة بالاستياء من ابنة أخيه روزالند لأنه وجد الناس يثنون عليها لفضائلها، ويعطفون عليها من أجل أبيها الصالح، فثار سوء نفسه فجأة ضد الفتاة.

وفيما كانت سيليا وروزالند تتحدثان عن أورلاندو على الصورة السالفة، إذ دخل فردريك الحجرة، وأمر روزالند على الفور بصورة عنيفة جارحة أن تغادر القصر، وتلحق بأبيها في منفاه، فتوسلت إليه سيليا أن يرجع عن هذا الأمر، فلم يلتفت إلى توسلاتها وقال لها أنه لم يحتمل بقاء روزالند حتى الآن إلا من أجل خاطرها، فقالت سيليا:

- ولكن حين خلع والدها لم أتوسل إليك أن تبقيها، لأني كنت أصغر يومئذ من أن أعرف قدرها، أما الآن فأنا أعرف قيمتها، وقد توثقت بيننا الألفة، نمنا معا وصحونا معا ودرسنا ولعبنا وأكلنا معا، لم يعد في استطاعتي أن أعيش بعيدا عن صحبتها.

فقال لها فردريك:

- إنها شديدة المكر جدا بحيث لا تدركين بعد أغوارها فنعومتها وسكونها وصبرها وتجلدها، كل أولئك ألسنة تنطق باسمها لدى الناس فيعطفون عليها، وإنك لحمقاء إذا تدافعين عنها، لأنك ستزدادين بهاء، وتتجلى مزاياك حين

ترحل عنك وتترك لك المجال وحدك، فلا تفتحي فمك بالتوسل لها، لأن القضاء الذي قضيته في أمرها لا مرد له.

فلما أيقنت سيليا أنها لن تستطيع أن تقنع أباها باستبقاء روزالند، قررت على الفور أن تصحبها، وتركت في تلك الليلة قصر أبيها، ومضت مع صديقتها تنشدان والد روزالند الدوق المنفي، في معتزله بغابة أردن.

وقبل الرحيل، قدرت سيليا أنه ليس من المأمون أن تسافر شابتان في مثل ثيابهما الغالية التي ترتديانها، فاقترحت أن تخفي حقيقة حالهما ومكانتهما، بالتنكر في ثياب بنات الفلاحين.

وعندئذ قالت روزالند:

– فكرة صائبة، وأكثر منها إمعانا في الأمان وطلبا للضمان أن ترتدي إحدانا ثياب الرجال.

وراقت الفكرة على الفور لسيليا، ولما كانت روزالند هي أطول الفتاتين، فقد وقعت عليها القرعة لترتدي ثياب شاب قروي، وارتدت سيليا فتاة قروية، واتفقتا على أن تدعيهما أنهما أخوان، واتخذت روزالند اسم جانيميد، واختارت سيليا لنفسها اسم أليينا. وفي هذا الزي التنكري خرجت الفتاتان بعد أن حملتا معهما ما كان تحت يدهما من الحلي والنقود، قاصدتين غابة أردن وهي على سفر طويل جدا، فيما وراء حدود الدوقية.

وكأنما حلت في روزالند أو "جانيميد" خصائص الرجولة وشجاعتهما، بمجرد أن اتخذت زي الرجال، وصار هذا الأخ جانيميد شديد الرعاية والعطف على أخته التي أبت إلا أن تلازمه في رحلته الشاقة ولا تفارقه، وكان يرفه عنها بروحه العالية ودعاباته. ولما وصل الإخوان المزعومان إلى غابة أردن، لم يجدا هناك

الفنادق المريحة ووسائل الحياة التي كانا يجدانها في الحانات المنتشرة على طول الطريق.

وكان الجوع قد أخذا منهما مأخذه وحاجتهما إلى الراحة بعد السير الطويل صارت ملحة، حتى أن جانيميد الذي طالما هون المتعب على شقيقته بحديثه الضاحك وملاحظاته الفكهة طول الرحلة، اعترف لأليينا أنه بات في شدة الإعياء، حتى لقد نازعته نفسه أن يدنس ملابس الرجال التي يرتديها، فيبكي كما تنوح النساء!

وأما أليينا فأعلنت أنها لم تعد تستطيع أن تخطو خطوة أخرى، فحالو جانيميد أن يستجمع أشتات رجولته التي تفرض عليه مساعدة المرأة والترفيه عنها وأن يبدو أمامها شجاعا قويا، فقال:

- هيا يا أختي أليينا، تجلدي، فقد أصبحنا في ختام رحلتنا، وبلغنا غابة أردن..

بيد أن هذه الرجولة المصطنعة والشجاعة المخترعة لم تأت بنتيجة، فمع أنهما كانا فعلا في غابة أردن، إلا أنهما لا يدريان أين يجدان الدوق؟ ولم يجدا حيلة لحل الموقف.وكان من الممكن أن ينتهي ذلك السفر الطويل الشاق إلى نهاية محزنة، بالتيه في الغابة والهلاك جوعا لعدم توفيقهما إلى طعام، لولا أن العناية أدركتهما برحمتها.

وفيما كانا جالسين على العشب وقد أشرفا على الهلاك تعبا، ويئسا من العثور على ما يأكلان، مر قروي في ذلك الاتجاه، فخاطبه جانيميد متخذا ما يليق بالرجولة من لهجة الجرأة:

- أيها الراعي، إن كان المعروف أو كان الذهب يمكن أن يأتينا في هذا المكان المقفر بما نأكله، فإني أرجوك أن تدلنا على مكان نستطيع فيه أن نستريح من

متاعب السفر، فهذه الفتاة أختي أتعبها السفر جدا، وتوشك أن يغمى عليها من الافتقار إلى الطعام.

أجاب الرجل أنه ليس راعيا، وإنما هو خادم لأحد الرعاة، وإن بيت سيده يوشك أن يباع، ولهذا لن يجدا فيه إلا القليل جدا من الزاد، فإن شاءا أن يصحباه إلى هناك، ففي وسعهما أن يأكلا الموجود.

ولم يكن أمامهما خيار، فتبعا الرجل، وقد أمدهما الأمل بقوة جديدة، وهناك اشتريا البيت المعروض للبيع، واشتريا أيضا أغنام الراعي، وألحقا الرجل الذي قادهما إلى هناك بخدمتهما. وهكذا ساقت إليهما المصادفة كوخا أنيقا به ما يلزم لمعيشتهما، وقطيعا يمدهما بغذائهما، واستقر رأيهما أن يمكثا هناك إلى أن يعرفا بالضبط في أي موضع من الغابة يقيم الدوق المنفي.

وبعد أن استجما من وعثاء الرحلة، بدأ يألفان نمط حياتهما الجديد، وتخيلا نفسيهما بسرور راعيا وراعية، فاستمر في تمثيل ذلك الدور. ومع هذا كان جانيميد في بعض الأحيان يتذكر أنه كان في يوم من الأيام يدعى روزالند، وأن روزلندا كانت تحب بكل قلبها الفتى الباسل أورلاندو، ابن السير رولاند دي بويز صديق أبيها.

وكان جانيميد يظن أن أورلاندو بعيد عن هذا المكان أميالا كثيرة جدا، هي تلك الأميال التي قطعاها في رحلتهما، ولكن سرعان ما اتضح أن أورلاندو كان في غابة أردن، وإليكم كيف حدث ذلك الشيء الغريب.

إن أورلاندو هو أصغر أبناء السير رولاند دي بويز، فلما مات السير رولاند، أوصى وهو على فراش الموت ابنه الأكبر أوليفر أن يرعى الطفل الصغير أورلاندو أحسن رعاية، ويربيه أفضل تربية، ويهيئ له من أسباب المعيشة والمظهر

ما يليق بكرامة بيته العريق.

وأثبتت الأيام أن أوليفر لم يكن عند ظن أبيه، فتجاهل وصيته، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فلم يبعث بأخيه إلى المدرسة، بل أبقاه في البيت من غير تعليم، وأهمل تربيته إهمالا تاما.

بيد أن فطرته القويمة ومزاياه العقلية التي تشبه مزايا أبيه الفاضل جعلته يبدو رغم حرمانه من التربية مثل الشباب الذين ظفروا في نشأتهم بأعظم عناية، حتى أن أوليفر كان يحسده على ألمعيته الطبيعية واتزان سلوكه ووقار مظهره.

وفكر أوليفر أن يتخلص من أورلاندو. فأوعز إلى الناس أن يزينوا للفتى مناظرة مصارع شهير، في مباراة علنية مشهورة. وقد اشتهر هذا المصارع بقتله عددا كبيرا ممن نازلوه. كان إهمال هذا الأخ الظالم لأورلاندو هو السبب الرئيسي الذي حداه إلى القول بأنه يتمنى الموت، لأنه لا صديق له في الدنيا. فلما خاب ظن أوليفر، وتغلب أورلاندو على خصمه الهائل، تجاوز غيظ أوليفر كل حد وأقسم أن يحرق الحجرة التي كان ينام فيها أورلاندو.

ولحسن الحظ سمعه وهو يدبر تلك المكيدة خادم عجوز من خدم أبيه المخلصين كان يحب أورلاندو حبا لا مزيد عليه، لما بين أورلاندو وبين والده الراحل السير رولاند دي بويز من شبه كبير، فخرج ذلك الخادم العجوز للقاء أورلاندو في طريق عودته من قصر الدوق فردريك كي يطمئن على سلامته من مغامرة المصارع، فما إن رآه يطلع عليه من منعطف الطريق حتى انفجر حبه له وخوفه عليه على هذه الصورة:

- سيدي الرقيق! سيدي الجميل! يا خير ذكرى باقية لمولاي السير رولاند! لماذا أنت شريف فاضل؟ لماذا أنت رقيق قوس باسل؟ ولماذا أقدمت على قهر

هذا المصارع الشهير؟ إن ذكرك العطر قد سبقك على أجنحة الريح إلى موطنك.

فدهش أورلاندو لهذا الانفعال العجيب وأدرك أن وراء ذلك كله شيئا، فاستوضحه جلية الأمر، وعندئذ أخبره الخادم العجوز كيف أضمر له شقيقه الشرير السوء، حسدا لما يتمتع به من محبة الناس جميعا، فلما سمع بشهرته الجديدة التي أكسبته إياها هزيمة لذلك الصارع الجبار في قصر الدوق فردريك، عزم على القضاء عليه بإشعال النار في حجرة نومه أثناء الليل.

وعقب الخادم المخلص على ذلك بنصح أولاندو أن ينجو بنفسه من ذلك الخطر، فيركن إلى الفرار، وأرض الله واسعة، وفي رحمته ورزقه سعة وغناء عن التعرض للمهالك بيد هذا الشقيق الحاقد.

ولما كان (آدم)، وهذا هو اسم الخادم العجوز الكريم النفس يعلم أن أورلاندو لا يحمل مبلغا يذكر من المال، فقد جاءه بالقليل الذي أدخره بتعب العمر كله وقال له:

- معي خمسمائة كروان هي الأجر الذي أدخرته على مدة والدك، وكنت أعده ليكون عونا لي وطعمه عندما ينال الوهن من بدني العتيق فأعجز عن الخدمة، فخذ يا سيدي وابن سيدي هذا المال، وأما شيخوخة عمري فإني أكل أمرها لمن يرزق الدودة في باطن الصخر! خذ هذا الذهب فإني أعطيه لك كله. ثم اتخذني لك خادما أتبعك في غربتك، فإن كنت متقدما في السن، فسوف تجد مني بأس الشباب في خدمتك والقيام على كل ما يلزمك.

فتأثر أورلاندو كل التأثر، وقال له:

- أيها الرجل العجوز الصالح! كم أثمرت فيك العشرة القديمة، وكم ظهرت فيك

أمانة زمن لم يعد يظهر لنا منه إلا الخداع في أوانه الحديث، أنك لست من طراز هذه الأيام يا بقية زمن الصلاح والإخلاص والمروءة، سنمضي معا، وقبل أن تنفذ مدخرات شبابك سأكون قد وفقت إلى مورد نتعيش منه كلانا.

وهكذا ارتبط السيد الشاب المحبوب بخادم أبيه الوفي العجوز، وانطلق أورلاندو وآدم في رحلة لا يبغيان بها غاية معينة، ولا يعرفان أين تلقي بهما مقادير الرحلة، إلى أن دخلا غابة أردن، فوجدا نفسيهما فريسة التعب والجوع الشديدين كما كان جانيميد وأليينا في هذا الموضع بعينه من قبل.وأخذا يهيمان على وجهيهما يتسقطان مسكنا من مساكن البشر، إلى أن كاد يأتي عليهما الجوع والإعياء، وقال آدم لمولاه:

- سيدي العزيز، إني أكاد أموت جوعا، ولم تعد لي قدرة على المسير، وألقى الشيخ بنفسه على الأرض، وكل اعتقاده أنه سيتخذ من موضعه ذاك مقره الأخير، وأخذ يودع سيده الشاب وداع الموت.

ولما رآه أورلاندو في هذه الحالة من الضعف، أخذ خادمه المخلص بين ذراعيه وحمله إلى أن وضعه في ظل شجر باسق وارف، وقال له:

- هون عليك يا آدم، وأرح أعضاءك الكليلة هنا برهة، ولا تذكر على لسانك حديث الموت.

ثم ذهب أورلاندو ينقب عن شيء من الطعام. مضى أورلاندو يضرب في الغابة على هذا النحو إلى أن ساقته قدماه إلى الموضع الذي اتخذه الدوق المنفي مقرا له هو وأنصاره.وكانوا على وشك أن يجلسوا إلى طعامهم، وقد افترش هذا الدوق سليل المجد عشب الأرض، لا تظل رأسه إلا أغصان متشابكة خضراء من

شجرات ضخمة.وما إن رأى أورلاندو الطعام بين هؤلاء الرعاع حتى دفع به الجوع إلى التهور، فامتشق سيفه وفي مراده أن ينتزع منهم اللحم الذي يشوونه على نار عظيمة وسطهم عنوة واقتدارا، وزعق فيهم:

– أرفعوا أيديكم عن هذا الطعام! لابد أن أناله طوعا أو كرها!

فسأله الدوق برصانة السن:

– هل ألقى بك إلى هذا الاجتراء إلحاح الجوع وضائقة اليد، أم أنت مطبوع على الفظاظة وامتهان آداب السلوك؟

وأمام هذا السؤال الهادئ الوقور ثابت إلى أورلاندو آدابه العالية، واعترف للدوق بغير تردد أنه ما أقدم على ذلك إلا لأن الجوع كاد يهلكه، فقال له الدوق أنه ضيفه ويستطيع أن يجلس على الرحب والسعة ليصيب معهم من الطعام ما شاء.فلما سمع أورلاندو ذلك الشيخ يتحدث إليه بتلك الرقة والسماحة، أغمد سيفه وصبغت دماء الخجل وجهه لما أظهره من سوء سلوك وقال:

– أرجو أن تصفح عني، فقد حسبت أن كل شيء في هذه الغابة الوحشية على سنة الهمجية، فاتخذت من الهيئة واللهجة ما يوافق تلك الحال، ولكن أيا كنتم يا سكان هذه الغابة المقفرة، الذين ينفقون أوقاتهم في إهمال وتراخي تحت هذه العرائش الهادئة، إني أستحلفكم إن كنتم عرفتم يوما من الأيام نعم الحياة وإقبال الدنيا، وإن كنتم عشتم يوما في حظيرة الحضارة حيث تدعو دقات النواقيس إلى الصلاة في الكنائس، وإن كنتم جلستم يوما إلى مائدة بمعنى الكلمة في بيت رجل ذي مكانة، وإن كنتم قد ذرفت أجفانكم يوما دمعا على سبيل الرحمة والاشفاق.. أستحلفكم بذلك كله أن تسدوا إلى معروفا.

فأجابه الدوق:

- وإننا حقا لقوم عرفنا كما قلت في يوم من الأيام نعم الحياة وإقبال الدنيا، ولئن كنا نتخذ الآن مأوانا في هذه الغابة الوحشية، فقد سبقت لنا السكنى في القرى والمدائن، واستجبنا لدقات الأجراس تحدونا إلى ساحات الكنائس، ولطالما جلسنا إلى الموائد الحافلة في بيوت كرام الناس، ولكم ذرفت عيوننا دموع الشفقة والحنان، فأجلس مطمئنا ولا تخف، وأصب من الطيبات ما تشتهيه نفسك.

فقال أورلاندو:

- إن لي رفيقا عجوزا مسكينا ظل يظلع ورائي أمدا طويلا مدفوعا بحرارة الحب لي، إلى أن اصطلح عليه عجز السن وعجز الجوع، وأقسم لا أقرب طعاما حتى ينال من الطعام ما يرد عليه روحه.

فقال الدوق:

- أذهب وجئنا به إلى هنا، وسنمسك عن الأكل إلى أن تعود.

فانطلق أورلاندو يعدو كالنعامة إلى حيث ترك آدم، ولم يلبث أن عاد يحمله على ذراعيه، فاستقبله الدوق قائلا:

- ضع عنك حملك الجليل، وتفضلا كلا.

وتعاون الحاضرون على إطعام العجوز والترفيه عنه حتى انتعش واسترد عافيته وصحته. ولما رفع الطعام سأل الدوق أورلاندو عن شخصيته، فلما عرف أنه ابن صديقه القديم السير رولاند دي بويز، فرح به وأضفى عليه رعايته، فاستقر المقام بأورلاندو وآدم مع الدوق وأصحابه في الغابة.

وكان وصول أورلاندو إلى الغابة بعد استقرار جانيميد وأليينا في ناحية أخرى

منها بمدة وجيزة.وفيما كان جانيميد وأليينا يتنزها في الغابة كانا يدهشان كثيرا لمشاهدة اسم روزالند محفورا في جذوع الأشجار، مع أبيات في الغزل كلها موجهة إلى روزالند هذه، وحارا كيف حدث ذلك وما هو معناه، ثم إذا بهما يلتقيان بأورلاندو، ويلمحان السلسلة التي أهدتها إليه روزالند تحيط بعنقه.

ولم يخطر ببال أورلاندو أن جانيميد هو بعينه الأميرة الجميلة روزالند التي أسرت قلبه بتواضعها النبيل ورقتها، حتى راح يقضي وقته كله في نقش اسمها على الأشجار، ونظر الأشعار في التغني بجمالها.

ولقى الراعي الشاب جانيميد هوى واستحسانا في نفس أورلاندو فجاذبه أطراف الحديث، وهو يشعر بوجود شبه بين جانيميد هذا وبين محبوبته روزالند، ولولا أن جانيميد كان يصطنع لهجة الشبان في المزاح حينما يجتمعون مع أقرانهم، لأمكن لأورلاندو أن يفطن إلى مزيد من الحقيقة.

وطرق جانيميد موضوع الحب والمحبين، وراح يتندر أمام أورلاندو بعاشق مجهول يتجول في هذه الغابة ويفسد أشجارها بنقش اسم المدعوة روزالند على جذوعها، مع مقطوعات في التشبيب بمحاسنها.

- .. وأقسم لو عثرت على العاشق لألقيت عليه نصيحة طيبة تشفيه من داء غرامه هذا!

فاعترف أورلاندو أنه بعينه ذلك العاشق الذي يتحدث عنه جانيميد، وطلب منه أن يقدم إليه النصح الذي أشار إليه.

وعندئذ قال جانيميد:

- إن العلاج الذي أقترحه عليك أن تأتي كل يوم إلى الكوخ الذي أقيم فيه مع أختي إليينا، وهناك سأحاول تقليد روزالند هذه، وتقوم أنت بدور العاشق

الولهان، وتخاطبني بالألفاظ التي كنت حريا أن تخاطب بها روزالند، وبعد ذلك سأسلك معك سلوك الدلال الذي تتخذه السيدات مع عشاقهن وأظل أعبث بك إلى أن يأخذك الخزي من حبك، ومتى شعرت بالخجل من عاطفتك برئت منها.

ولم يقتنع أورلاندو بفائدة هذا العلاج، ولكنه لم يجد بأسا في القيام بتلك الزيارة، وتمثيل ملهاة الغزل، ففي ذلك تسلية إن لم تكن فيها فائدة.وفي كل يوم صار أورلاندو يزور جانيميد وأليينا، وهناك ينادي الراعي الشاب جانيميد باسم روزالند، ويتدفق من فمه سيل من الغزل يصور به عواطفه وهيامه، وتوالت الأيام على ذلك النوال من غير أن تبدو علامات التماثل للشفاء على أورلاندو.

ولئن لم يجد أورلاندو في هذه التمثيلية ما يشفي غليله، لأنه ما كان يحلم أن جانيميد هو بعينه روزالند، إلا أنها كانت تتيح له الفرصة للتفريج عما في قلبه من عواطف مكتومة، فيشعر لذلك براحة، كما أن جانيميد كان يسر بسماع عبارات الهيام والوجد التي يعلم أنها موجهة في حقيقة الأمر إلى شخصه.

ومرت أيام كثيرة على هذا النوال الجميل، وقنعت أليينا الطيبة القلب بتسهيل المهمة ومشاهدة هذه التمثيلية في صمت، لما كانت تراه من سرور جانيميد بها، وإن كانت في واقع الأمر تفضل أن يشغل جانيميد نفسه بالعثور على مقر الدوق، حتى تتمكن الأميرة روزالند من كشف النقاب عن حقيقتها.

وفي ذات يوم التقى الراعي جانيميد بالجوق في أحد ممرات الغابة وجها لوجه وجرى بينهما حديث، سأل الدوق في خلاله ذلك الراعي عن نسبه، فأجاب جانيميد بلهجة ذات مغزى.

- إن نسبي يضارع نسبك ولا يتخلف عنه.

فابتسم الدوق ابتسامة هينة، إذ لم يخطر بباله أن هذا الراعي الجميل ينحدر حقا من سلالة ملكية.

وإذا رأى جانيميد بعينيه أن الدوق يبدو في أحسن صحة وأتم سعادة، اكتفت بذلك وأرجأت التوضيح النهائي الذي يكشف النقاب عن حقائق الأمور إلى بضعة أيام تالية.

وذات صباح، وقد اتجه أورلاندو مخترقا الغابة نحو مسكن جانيميد، لمح رجلا نائما على الأرض وقد لف ثعبان ضخم أخضر اللون نفسه حول عنقه، فلما رأى الثعبان أورلاندو يقترب منه، هرب متسللا بين الشجيرات.

ودنا أورلاندو من الرجل النائم فاكتشف لبؤة مقعيه على الأرض ورأسها بين مخلبيها الأماميين ترقب ذلك النائم كما ترقب قطة فريستها، في انتظار يقظته من نومه، فمن المشهور أن الأسود لا تفترس شيئا ميتا أو نائما، فخيل إلى أورلاندو أن العناية أرسلته لينجي هذا الرجل من خطر الثعبان ومن فتك اللبؤة.

ولكن عندما أطل أورلاندو في وجه ذلك الرجل النائم، عرف فيه أخاه أوليفر الذي أسأ إليه أشد الإساءة وكان ينوي أن يقتله حرقا بالنار، فنازعته نفسه أن يتركه فريسة للبؤة ضارية، لولا أن العاطفة الأخوية ورقة فطرته تغلبتا على سخطه وحقده، فاستل سيفه وهجم على اللبؤة فقتلها، وبذلك حفظ حياة أخيه من الثعبان السام ومن اللبؤة المفترسة، ولكن للأسف الشديد تمكنت اللبؤة قبل أن يقضي عليها من تمزيق أحد ذراعيه بمخلبها الحاد.

وأثناء النزال الهائل بين أورلاندو واللبؤة، استيقظ أوليفر على زئيرها، فلما رأى شقيقه أورلاندو الذي كاد له وأسلف الإساءة والغدر يعمل على نجاته من وحش مفترس مخاطرا بحياته، استولى عليه الخزي والندم على الفور، وثاب عن

سلوكه الشائن، وتوسل إلي أخيه بدموع غزار أن يعفو عن إساءاته المتعددة إليه.

وابتهج أورلاندو إذ رأى أخاه تائبا نادما، فصفح عنه من غير تردد، وتعانق الأخوين، ومنذ تلك الساعة صار أوليفر يحب أورلاندو حبا أخويا صادقا، وهو الذي كان قد حضر إلى الغابة ليتعقب آثاره بقصد اغتياله.وأخذ الجرح الغائر في ذراع أورلاندو ينزف نزفا غزيرا، فوجد نفسه ضعيفا لا يقدر على زيارة جانيميد، فطلب من أخيه أوليفر أن يذهب ويخبر جانيميد بالحادث الذي وقع له.

وذهب أوليفر إلى هناك، وروى لجانيميد وأليينا كيف أنقذ أورلاندو حياته بشجاعة نادرة ونخوة لا مزيد عليها، ولما فرغ من ذكر أعمال أورلاندو الباسلة ونجاته بفضله، اعترف لهما أنه هو اوليفر شقيق أورلاندو الذي أساء إليه كثيرا فيما مضى، ثم أخبرهما بحديث تصالحهما وعودة المحبة الأخوية إلى مجاريها الطبيعية بينهما.

وأظهر أوليفر أسفا عميقا جدا على سالف أعماله الشريرة، فترك هذا أثره العظيم في قلب أليينا الرقيق، حتى لقد أحبته على الفور.

ولما فطن أوليفر لما شعرت به أليينا من شدة الشفقة عليه، أحبها هو الآخر حبا عظيما.

ولكن في الوقت الذي كان الحب يتسلل فيه إلى قلب أليينا وأوليفر، لم يكن أقل انشغالا بقلب جانيميد، فما إن سمع بالخطر الذي أحدق بأورلاندو، وأن اللبؤة مزقت ذراعه، حتى أغمى على الراعي الجميل!

ولما أفاق الراعي الجميل من إغمائه زعم لأوليفر أنه أغمى عليه وهو متقمص شخصية روزالند التمثيلية، وأخبرت أوليفر بقصة تلك التسلية اليومية، ثم طلبت منه أن يبلغ أورلاندو كيف أتقنت عملية الإغماء اتقانا يشهد ببراعتها

في اتخاذ شخصية روزالند!

ولكن اوليفر رأى شحوب هذا الفتى شديدا جدا مما يقطع بأن الأغماء حدث حقيقة لا تمويها، وتعجب لضعف هذا الغلام ورقة قلبه، فغمزه قائلا:

– ما دمت بارعا في التمثيل، فكما مثلت الأغماء النسوي، تشجع وحاول أن تمثل صلابة الرجال بعض الشيء!

فأجابه جانيميد قائلا:

– إني اجتهد في ذلك فعلا ما وسعني، ولكن كان ينبغي أن أخلق امرأة!

قضى أوليفر في هذه الزيارة وقتا طويلا، ولما عاد آخر الأمر إلى أخيه، كانت في جعبته أنباء كثيرة، فضلا عن وصفه المسهب لإغماء جانيميد بمجرد سماعه بالجرح الذي أصيب به أورلاندو. وأخبره كذلك كيف وقع في حب الراعية الحسناء أليينا، وكيف أنها أعارت تحببه إليها أذنا صاغية، في تلك المقابلة الأولى.

وقال أوليفر كذلك لأخيه، بصيغة الأمر المفزع منه، أنه متزوج لا شك من أليينا في أقرب وقت، لأنه يحبها كثيرا، وسيعيش في تلك الغابة حياة الرعاة، أما ضيعته الواسعة وبيت الأسرة فسيمنحها هبة خالصة لأورلاندو، آية على ندمه واعترافا بجميله.

فقال له أورلاندو:

– إني موافقك تمام الموافقة، وليكن زواجكما غدا.وسأقوم أنا بدعوة الدوق وأصحابه لحضوره فأذهب أنت واقنع راعيتك بذلك، لأنها الآن وحدها في البيت، فهذا هو أخوها قادم من بعيد.

وذهب أوليفر إلى أليينا. ودخل جانيميد الذي قدم ليستفسر عن صحة صديقه الجريح أورلاندو.

وفتح أورلاندو لجانيميد موضوع هذا الحب المفاجئ الذي ربط بين قلبي أوليفر وأليينا، وقال أورلاندو أنه نصح لأخيه أن يقنع الراعية الحسناء بالموافقة على زواجها منه في اليوم التالي، ثم تنهد أورلاندو وقال:

- كم كنت أتمنى أن يتم غدا في الوقت عينه زواجي من روزالند.

فلمعت عينا جانيميد، وقال:

- إني موافق على زواج أختي غدا، وأما رغبتك أو أمنيتك الشخصية، ففي استطاعتي إن كنت جادا في حب روزالند كما طالما ذكرت لي، فمن الممكن تحقيق هذه الأمنية، فإني أعدك وعدا صادقا أن أجعل روزالند الحقيقية تظهر لك بشخصها غدا، بل وأوعدك أكثر من ذلك أن روزالند ستوافق على الزواج منك يا أورلاندو.

وبطبيعة الحال كان هذا أمرا ميسورا جدا على جانيميد، لأنه هو بعينه روزالند بيد أنه زعم لأورلاندو أنه سيتوصل إلى ذلك بواسطة السحر الذي تعلمه من عم له كان من مشاهير السحرة! ووجد أورلاندو المتيم نفسه نهبا للشك وللتصديق وللأمل في وقت واحد، وراح يستحلف جانيميد هل يتكلم جادا؟

فقال جانيميد بكل جد:

- أقسم لك بحياتي على صدق ما أقول، ولهذا أطلب منك متى كان الغد أن ترتدي أحسن ملبوسك، وأن تدعو الدوق وأصحابه لحضور زواجك، لأنك ما دمت راغبا في الزواج من روزالند، فغدا ستكون روزالند حاضرة بين يدك، راغبة في الزواج منك!

وفي صباح اليوم التالي كان أوليفر قد حصل على موافقة اليينا ورضاها، فصحبها إلى حضرة الدوق، وذهب أورلاندو معهما، وقد التأم الجمع كله

للاحتفال بقران مزدوج، ومع ذلك لم تكن موجودة إلا إحدى العروسين، فسرت همهمة التساؤل والعجب والتخمين بين الرجال، واستقر رأيهم بالأرجح على أن جانيميد كان يهزأ بعقل أورلاندو.

وأما الدوق فإنه ما إن سمع أن التي سيتزوجها أورلاندو وستحضر بطريق التحضير السحري هي ابنته بالذات، حتى سأل أورلاندو:

- أتصدق أن الراعي، ذلك الغلام، يمكنه فعلا أن ينفذ ما وعدك به؟

وفيما كان أورلاندو يرد على الدوق أنه لا يدري ماذا يجب أن يعتقد، إذ بجانيميد يدخل، ويسأل الدوق بمنتهى الجد، إن كان يوافق في حالة حضور ابنته على زواجها من أورلاندو.

وقال الدوق على الفور:

- أورلاندو فتى مقدام، وإني لأزوجها له، وأهبه معها دولا وممالك لو أنها طوع يميني، ولا أرى ذلك عليه كثيرا.

عندئذ قال جانيميد لأورلاندو:

- وأنت.. أتقر أنك تتزوجها إن أحضرتها إلى هنا؟

- نعم أفعل، حتى ولو كنت ملكا متوجا على عروش كثيرة!

فخرجت إالينا ومعها جانيميد، وبسرعة طرح جانيميد عنه زي الغلمان، فظهرت من تحته ثياب النساء، وتحول على الفور إلى روزالند من غير وساطة السحر.. وكذلك خلعت إليينا ثياب القرويات وارتدت ملابسها الثمينة، فتحولت هي الأخرى بأيسر جهد إلى الأميرة سيليا.

وفي أثناء غيبتهما عن الجميع، قال الدوق لأورلاندو:

- إني أرى هذا الراعي جانيميد شديد الشبه بابنتي روزالند.

فقال أورلاندو:

- وأنا كذلك لاحظت هذا الشبه، فكان من دواعي ميلي لصحبة هذا الغلام الراعي.

ولم يتسع الوقت لهما لمزيد من التخمين والتأويل، وإذا بروزالند وسيليا تدخلان في ثياب الأميرات، ولا تدعيان إن قوة السحر هي التي فعلت فيهما ذلك الأثر الغريب، لأن روزالند بادرت فخرت راكعة تحت قدمي أبيها، وبالأسلوب المتبع في بلاط الملوك والدوقات طلبت منه في مهابه ورهبة أن يضفي عليها بركته والدا ودوقا.

وبهت جميع الحضور لدخولها بهذا الشكل الفجائي، حتى حسبوا أن السحر هو الذي أتى بها من قصر عمها الغاضب فردريك، لولا أن روزالند ما كانت لتسترسل في العبث مع أبيها، بل أخبرته بقصة نفيها، وسكناها في الغابة وهي في صورة غلام من الرعاة، جاعلة من بنت عمها سيليا أختا لها.

وامضى الدوق الموافقة التي كان قد منحها سلفا على ذلك الزواج، وتم في وقت واحد قران أورلاندو ورزالند، وأوليفر وسيليا.ومع أن الاحتفال لم يكن من المستطاع إقامته في تلك الغابة بما هو لائق بمقام العروسين الملكيين في الظروف العادية، إلا أنه لو غضضنا الطرف عن قشور المظاهر ونظرنا إلى لباب العواطف والمسرات، لألفينا أنه ما من يوم قران كان أروع وأبهج من ذلك اليوم.

جلس الجميع يشوون لحم الغزلان وطيور الغابة في ظلال الأشجار الندية، وكأن شيئا لا ينقص لتمام سعادة ذلك الدوق الفاضل وهؤلاء المحبين الأربعة، وإذا برسول يصل لاهثا ليبلغ الدوق أنباء أخرى سارة قد ردت دوقيته إليه.

وجلية الأمر أن المغتصب فردريك استشاط غيظا لفرار ابنته سيليا، وعلم أن كل يوم يشهد رحيل مزيد من ذوي المكانة في الدوقية إلى غابة أردن معرضين عن الحياة تحت سلطانه، لينضموا إلى الدوق الشرعي في منفاه ويقاسموه شظف حياته، وعز على ذلك المغتصب أن يره لأخيه المخلوع مكانة في القلوب لا يستمدها من الثروة أو القوة أو السلطان.

وأمر الدوق بإعداد جيش جحفل جرار، وقاد ذلك الجيش بنفسه، ثم أمر بالزحف صوب غابة أردن، وفي نيته أن يقبض على أخيه، ويعمل فيه وفي أتباعه المخلصين له حد السيف، ليتخلص نهائيا من ذلك الشبح الذي ينغص عليه سلطانه المغصوب، ويقض له مضجعه فوق ذلك العرش المسلوب.

ووصلت طلائع الجيش فعلا إلى مشارف غابة أردن، وبدا لفردريك أنه لم يعد يفصله عن غايته أمد بعيد، وداعبت آماله الشريرة أحلام القتل وسفك الدماء، وإذا بأصبع العناية يتحرك فيقلب الأمور كلها رأسا على عقب.

التقى الدوق المغتصب فردريك عند دخوله الغابة بناسك طاعن في السن يرتدي ثياب الرهبان، له لحية تكاد تمس الثرى وشعر مرسل ناصع البياض يكاد يغطي عينيه الكليلتين، وبدن تكاد الريح تخف به عن وجه الأرض، فأخذت فردريك الرهبة، وتحركت في قلبه رواسب الإيمان والتطير، وأحاط رجال الجيش بالناسك يتبركون به، وتقدم فردريك إليه يلتمس بركاته مع الملتمسين، ويسأله دعاء يثبت به عزم جنده، وينتصر به على عدوه، ولكن الناسك القديس أبى أن يمنح الشر والقوة الغاشمة دعاء بالنصر أو بركة من بركات السماء.

وانعقد حديث طويل على مسمع من الجيش بين الناسك والفاتك، كانت فيه كلمات الراهب العجوز تخرج من فمه مضيئة فتنفذ إلى القلوب بغير استئذان، وتحدث الرجل عن ملكوت السماء الذي لا يمنح لذوي الشر ولا لأهل الجاه ولا

للمتطاولين بالقوة والبأس، وإنما هو للذين يؤثرون على أنفسهم، ومن عمرت قلوبهم بتقوى الله لا يبغون ولا يعتدون.

ثم ذكره وعد الله الحق، ووعيده بحياة أبدية لا نهاية لها، يطول فيها الندم والعويل وصرير الأسنان لمن غفل بدنياه عن آخرته، واغتر بلذته عن الحق والبر وإيتاء كل ذي حق حقه، وخفض جناح الذل لذوي الرحم وأهل القرابة والتعفف عن الإيذاء.

وأحس فريدريك كأنه تعرى من ثيابه أمام ذلك الرجل الزاهد، وكأنه رسول الآخرة بعثه الله إليه لينبهه من غفلته ويرده عن غيه، ويفضحه أمام نفسه وجنده، عسى أن يتقي فضيحة كبرى يوم الدينونة العظيم، فخشع وجزع، واعترف بذنبه نادما تائبا.

وعلى الفور أعلن رجوعه عن عزمه، ونزوله عما اغتصب من الأملاك والسلطة، وتصميمه أن تكون كفارته عن قديم ظلمه الاقتداء بذلك الزاهد في خلع الدنيا من قلبه واعتزال فتنتها في صومعة للعبادة. كان أول عمل من أعمال نسكه أن أرسل هذا الرسول إلى أخيه، يؤذنه أنه رد عليه دوقيته، ومعها كل ما كان قد استولى عليه من أملاك أتباعه المخلصين.

وجاءت هذه الأنباء لتبلغ بأفراح ذلك اليوم ذروة لم تخطر بالبال، ونهضت سيليا بكل سماحة نفس فهنأت بنت عمها على ما ساقه الله إليها من حظ حسن هو حقها الشرعي ولا زيادة، وتمنت لها من أعماق قلبها كل سعادة وتوفيق:

– ولئن انقلب وضعانا فلم أعد أنا الوارثة للدوقية، فهذه الحال أحب إلى نفسي وأندى لفؤادي، فالحق أولى به ذوه، وما كنت يوما لأشعر أن الألقاب والأموال يمكن أن تفرق بيننا.

وسنحت الفرصة للدوق كي يجزي أصدقاءه الأوفياء الذين شاركوه شظف المنفى في الغابة، فوزع عليهم شارات التكريم وأنعم عليهم بالضياع.

وبهذا ختمت تلك الرواية الجميلة الممتعة بما استحقت به أن تسمى "كيفما تريد".

سيدان من فيرونا

في مدينة فيرونا في الزمان السالف كان يعيش سيدان شابان، اسمهما فالنتاين وبروتيوس، تربطهما صداقة وثيقة العري متصلة الحلقات منذ عهد الصبا، يحصلان العلم معا، ويقضيان ساعات الفراغ معا، اللهم إلا حين يزور بروتيوس سيدة كان متألقا بحبها.وكانت زيارات بروتيوس لهذه المعشوقة، وتعلقه بتلك الحسناء التي كان اسمها جوليا، هما الموضوع الوحيد الذي يثور فيه الخلاف بين الصاحبين.

والسبب في ذلك الخلاف أن فالنتاين لم يكن عاشقا ولم يجرب العشق، فكان صدره يضيق أحيانا بما يسمعه من صديقه الذي لا حديث له إلا عن جولياه، عندئذ كان فالنتاين يضحك من بروتيوس، ويوجه إليه عبارات الاستهزاء بعاطفة الحب، ويعلن أن وهما خرافيا من هذا القبيل لا يمكن أن يتطرق إلى قلبه أو يدخل في عقله، ويؤكد أنه يفضل حياة الحرية وخلو البال التي يحياها الآن على حياة الأوهام والأمال القلقة والمخاوف والوساوس التي يعيش عليها صديقه العاشق بروتيوس.

وذات صباح حضر فالنتاين لدي بروتيوس ليخبره أنه لا مناص من افتراقهما فترة من الزمن، لأن فالنتاين سيسافر في أمر ضروري إلى ميلانو.وعز على بروتيوس أن يحرم من صحبة صديقه تلك المدة،فحاول بشتى وسائل الإقناع أن يحمل فالنتاين على إلغاء السفر، ولكن فالنتاين قال له:

– لا تتعب نفسك في محاولة إقناعي يا عزيزي بروتيوس، فإني لا أنوى أن أبلي أيام شبابي بهذه الحياة الخاملة الفاغرة في بلدنا، فإن الشبان الذين لا يغادرون

مسقط رأسهم تأسن عقولهم، ولو لم تكن عواطفك مكبلة بأغلال تشدك إلى عيني جوليا الساحرتين، لطلبت منك أن تصحبني في سفري لتشاهد عجائب العالم خارج الحدود، ولكنك يا عزيزي عاشق قبل كل شيء، فاستمر في عشقك، وبارك الله لك فيه!

وافترق الصديقان وهما يتعاهدان على بقاء مودتهما مهما بعدت بينهما الشقة او طال الزمن، وقال بروتيوس:

- اذكرني أيها الحبيب فالنتاين كلما رأيت شيئا نادرا يسترعي انتباهك في أسفارك، حتى أشاركك بالروح في سرورك

وبدأ فالنتاين رحلته إلى ميلانو في ذلك اليوم بعينه، ولما وجد بروتيوس نفسه وحيدا جلس ليكتب خطابا إلى جوليا حبيبته، وسلم ذلك الخطاب إلى خادمتها لوسيتا كي تسلمه لسيدتها.

وكانت جوليا تحب بروتيوس كما يحبها، ولكنها كانت شريفة النفس فلم تجد من اللائق بكرامتها أن تكون سهلة الميل قريبة المنال، ولهذا تصنعت عدم الاستجابة لعاطفته، وسببت له متاعب وقلقا شديدين في سبيل بثه إياها هواه. فلما قدمت لوسيتا الخطاب إلى جوليا رفضت أن تتسلمه، ووبخت خادمتها لقبول الخطابات من بروتيوس، وأمرتها بمغادرة الحجرة!

بيد أنها في الوقت نفسه كانت شديدة الرغبة في معرفة ما كتبه في خطابه، فسرعان ما استدعت خادمتها ثانية، ولما دخلت عليها لوسيتا بادرتها بأن قالت لها:

- ناديتك لأسألك كم الساعة الآن؟

ولكن لوسيتا كانت تعرف أن سيدتها راغبة في الإطلاع على الخطاب أكثر

من رغبتها المزعومة في معرفة الساعة، فمن غير أن ترد على سؤال سيدتها إليها يدها بالخطاب المرفوض في صمت! وغضبت جوليا غضبا شديدا لأن خادمتها تجاسرت على إظهار فهمها لمكنونات تفكير سيدتها، فكأنها جردتها من ثيابها في وقاحة، ثم طردت خادمتها مرة أخرى من الحجرة!

وفيما كانت لوسيتا خارجة تنفيذا لأمر سيدتها، انحنت لتلتقط الأوراق الممزقة، ولكن جوليا التي كان لها مأرب آخر، صرخت متصنعة الغضب:

- اخرجي أيتها الملعونة حالا. ودعي هذه مكانها، إنك تتلكئين لكي تزيدي من نيران غضبي!

وبعد أن خرجت الخادمة شرعت جوليا تجمع القصاصات بعناية، وتحاول وضع بعضها إلى جانب بعض، واستطاعت أولا أن تتبين هذه الكلمات:

- المجروح القلب من الحب بروتيوس!

فأخذت تتأوه وتتوجع على هذه الكلمات ومثيلاتها التي راحت تكتشفها، وتقسم أنها ستكتنز هذه العبارات الغالية في صدرها إلى أن تلتئم جراح القلب، وستشبع كل قصاصة منها لثما لتعوضها عن التمزيق!

واسترت تتحدث على هذه الوتيرة في طفولة محببة من الآنسات الصغيرات السن حين تحركهن لواعج الهوى، إلى أن عجزت عن قراءة بقية السطور لأن تمزيقها كان شديدا، وعز عليها ذلك وأخذها الندم، فجلست تكتب إلى بروتيوس رسالة أرق بكثير من كل ما كتبته إليه سابقا.

وسر يورتيوس سرورا عظيما حينما تسلم هذا الرد الرقيق على خطابه، فراح يناجي السطور والعبارات بصوت مرتفع:

- يا للكلمات العذبة، و يا لجمال الحياة مع الحب!

وفي وسط هذه الموجة الحماسية فوجئ بدخول أبيه عليه، فصاح به:

– ما هذا الذي تقرؤه يا فتى؟

– سيدي.. إنه خطاب من صديقي فالنتاين جاء من ميلان

– أعطني الخطاب لأرى ما هذه الأخبار التي خف لها قلبك

فانزعج بروتيوس انزعاجا شديدا وقال:

– ليست فيه أي أنباء يا سيدي، كل ما هناك أنه يروي لي كيف أحبه دوق ميلانو، وصار يغدق عليه في كل يوم نعما جديدة، ولهذا فهو يتمنى أن أكون معه لأقاسمه حظه السعيد وثروته.

– وما هو صدى هذه الرغبة في نفسك؟

– صدى من يخضع لإرادتك يا سيدي لا لرغبات صديقه.

وكان والد بروتيوس قد طرق ها الموضوع بالمصادفة مع بعض أصدقائه فلاموه، لأنه يترك شابا مثل ابنه خاملا فارغا في مسقط رأسه ولا يحمله على السفر ليختبر الدنيا مثل صديقه فالنتاين، فكان هذا الخطاب المزعوم مناسبة طيبة للتفكير الجدي في الموضوع. ومن غير أن يفسر لبروتوس تصميمه المفاجئ، أمره كما هي عادة ذلك الزمن الذي يخضع فيه الأبناء للآباء طاعة عمياء:

– إن إرادتي يا فتى تتفق مع رغبة فالنتاين.

ففغر بروتيوس فاه دهشة، فاستطرد أبوه:

– لا تعجب لقراري الفجائي أن تقضي برهة من الوقت في بلاط دوق ميلانو، فإرادتي هي إرادتي ولا رجوع فيها أو مناقشة، فتأهب للسفر غدا، ولا تتعلل بالمعاذير!

وكان بروتيوس يعلم أنه لا فائدة من الاعتراض أو الاحتجاج، لأن والده كان مستبدا تزيده المعارضة إصرارا، وراح يلعن نفسه لأنه كذب على أبيه في حقيقة الخطاب، فجلب على نفسه ذلك التفريق الأليم بينه وبينها في اللحظة التي لانت فيها لتوسلاته.

ولما اكتشفت جوليا أنها ستحرم من بروتيوس ذلك الزمن الطويل، خلعت قناع التدلل والإعراض، وكان لقاؤهما للوداع محزنا عاصفا، تبادلا فيه سيولا من الدموع ووعود الوفاء، ثم تبادلا خاتميهما، وأقسم كل منهما أن يحتفظ بخاتم صاحبه تذكارا أبديا.

وهكذا سافر بورتيوس مثقل القلب بآلام الهوى، متجها صوب ميلانو ليلحق هناك بصديقه الحميم فالنتاين.وكان فالنتاين في الحقيقة على الحالة التي زعمها بروتيوس لوالده، يتمتع بمكانة عالية لدى دوق ميلانو.

وكما وأتاه الحظ السعيد في الأمور الدنيوية، طرأ عليه تغيير لم يكن بورتيوس يحلم به، فإن فالنتاين تخلى عن حياة الحرية وخلو البال التي كان يتشدق متباهيا بها، وأصبح عاشقا متيما مثل صاحبه.

أما الحسناء التي أحدثت في فالنتاين ذلك التغيير الرائع، فهي الأميرة سيلفيا ابنة دوق ميلانو، وكانت تبادل فالنتاين حبه، بيد أنهما يكتمان غرامهما عن الدوق، ذلك أن الدوق رغم إعزازه الشديد لفالنتين ودعوته إياه يوميا إلى قصره، كان ينوي تزويج ابنته من شاب من رجال بلاطه هو ثوريو. وكانت سيلفيا تزدري ثويرو هذا، لأنه لم يكن على شيء من رهافة الذوق وسمو الخصال والمزايا التي يتمتع بها فالنتاين.

وفي ذات يوم جمعت الصدفة بين ثوريو وفالنتاين المتنافسين في حب سبلفيا،

في مجلس هذه الأميرة الجميلة، وكان فالنتاين يضحك سيلفيا ويسليها بتسخيف كل كلمة يقولها ثوريو، وإذا بالدوق يدخل فجأة ويخبر فالنتاين بنبأ وصول صديقه بروتيوس إلى ميلانو، وعندئذ قال فالنتاين:

- إني ما كنت أتمنى شيئا كأن أرى بروتيوس هنا.

ثم راح يثني على بورتيوس لدى الدوق أطيب الثناء.

- قد أكون يا مولاي ضيعت أيام صباي سدا، أما صديقي هذا فأحسن الإفادة من أيامه، وهو كامل خلقا وخلقا، عقلا وبدنا، ويتحلى بكل مزية تزين كرام الرجال.

فقال الدوق:

- مرحبا به إذن ولنحله المكان الذي هو له أهل، وإني أوجه هذا الكلام إليك يا سيلفيا وإليك يا ثوريو، فإن فالنتاين لا حاجة به إلى تزكية صديقه لديه..

وفي هذه اللحظة دخل بروتيوس، فقدمه فالنتاين إلى سيلفيا قائلا:

- اعتبريه يا مولاتي شريكا لي في خدمتك بإخلاص.

ولما انتهت الزيارة وانفرد الصديقان بنفسيهما قال فلانتاين:

- الآن قل لي ما الذي جاء بك، ولماذا غيرت رأيك؟ وكيف حال صاحبتك وحال حبك معها؟

- إن حكايات حبي كانت دائما مصدر سأم لك

- أسكت يا بروتيوس! إن حياتي قد تغيرت الآن وإني لأتوجه بالاعتذار والندم على ما أسلفت من الازدراء لهذه العاطفة.فقد عاقبني الحب على ذلك فأطار النوم من عيني، لقد آمنت يا بروتيوس أن الحب سيد قوي، قهرني وأذلني

حتى اعترفت أنه لا نار مثل نار عذابه ولا نعيم على الأرض كنعيم رضوانه.وأمسيت لا ألتذ حديثا على مسمعي كحديث الحب، والآن لا أسأم أن يكون ذكر الحب هو إفطاري وغذائي وعشاءي، وما أتخلل به بين ذلك أيضا!

وتهلل وجه بروتيوس لأنباء هذه التغيرات التي اعترت صديقه فالنتاين، ولكنه لما استوضحه عمن تكون محبوبته، وعرف أنها سيلفيا، ركبه الغم، لأن مقابلته هذه القصيرة للحسناء سيلفيا كانت كافية كي تطمس من قلبه حب جوليا، فافتتن بها وجن جنونه، وصار من هذه اللحظة عدول لمن كان له أصدق صديق.

واستمر الصراع قائما زمنا في نفس بروتيوس، ولكنه انهزم أمام عاطفته الجامحة، ومزق مواثيق جوليا، وعهود صداقته لفالنتين. وبطبيعة الحال لم يكن فالنتاين يقدر حقيقة ما يجيش في صدر بورتيوس، فظن أن صداقتهما على حالها، وأن الحسناء جوليا هي مالكة فؤاده، وعلى هذا الأساس أفضى إليه بتفاصيل قصة حبه كلها، وكيف أن سيلفيا متواطئة معه على إخفاء هذه الحقيقة عن والدها الدوق. بل وأكثر من هذا جاء يوما وقال إن سيلفيا يائسة من الحصول على موافقة أبيها الدوق، ولهذا اتفقت معه على الهرب سرا في هذه الليلة بعينها فارين إلى مانتوا.

ثم أطلع بروتيوس على سلك من الحبال في عزمه أن يساعد به سيلفيا على الهبوط من نافذتها ليلا.وعلى الفور نشط الصديق الغادر ليبلغ سر هذا الاتفاق بحذافيره إلى الدوق. وكان في بلاغه حاذقا أريبا:

- لقد ترددت كثيرا يا مولاي لأن الذي سألقيه على مسامعك يمس صديقا هو أقرب الناس إلى نفسي، وكنت ملزما بأصول الصداقة أن أكتم سره عن كل إنسان واعينه على غاياته، بيد أن ما غمرتني به سموكم من سابغ النعم، وغالي

الثقة، كانت أعلى صوتا من نداء الصداقة، فوفاء لكم وولاء لعرشكم أضع نفسي تحت شبهة خيانة الصديق، وهو علم الله وفاء أربي على الوفاء للصداقة في واقع الأمر.

وبعد هذه المقدمة الحفيصة ذكر له تفاصيل المؤامرة، ولم يغفل منها سلم الحبال، الذي سيخفيه فالنتاين تحت عباءته.وكان طبيعيا أن يظن الدوق بروتيوس معجزة في الولاء وصدق الطوية، ووعده ألا يبوح لفالنتاين باسم المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات. وعزم أن يدبر حيلة يستدرج بها فالنتاين إلى إفشاء سره بنفسه.انتظر الدوق إلى أن حضر فالنتاين كعادته إلى القصر في المساء، وفطن إلى شيء مكور قليلا تحت عباءته، فعرف أنه الحبل. وعندئذ استوقفه قائلا:

- لماذا أنت متعجل في الانصراف يا فالنتاين؟
- إن هناك رسولا ينتظرني لأتسلم منه خطابات هامة وأعطيه أخرى.
- وهل هذه الرسائل كبير الأهمية؟
- كلا يا مولاي، إنها رسائل إلى أبي وأصدقائي أطمئنهم فيها إلى كمال حظي، وسعادتي بفضل مكارم سموكم.
- إذن لا بأس أن تبقى معي قليلا، فإني أريد أن أستشيرك في أمور تمسني عن قرب.

ثم روى لفالنتين حكاية اخترعها، لتكون مقدمة يستدرج بها سره.

- أنت تعلم يا فالنتاين أني أريد أن أزوج ابنتي من ثوريو.ولكن ابنتي تجفل من ذلك الزواج وتعصي أمري، متناسية أنها ابنتي، ومتحدية ما أملكه عليها من سلطان بهذه الصفة، ولا أكتمك يا فالنتاين أن سلوكها هذا أخرج حبها من

قلبي. وأنا الذي أظن أن شيخوختي سيسعدها معرفتها بواجب بنوتها نحوي، ولهذا عرفت يا فالنتاين أن أرتب حياتي على أساس غير الركون إلى عواطف تلك الأبنة، وصح رأيي أن أتزوج، ثم ألقيها إلى أي إنسان يرغب في الزواج منها حين تكون ملامتها هي كل بائنتها فلن أهبها شيئا من أملاكي ولا من مالي.

وتحير فالنتاين لما سمع وقال:

- وماذا ترغبون سموكم في أن أصنع في هذا الموضوع؟

- إن السيدة التي أرغب في الزواج منها جميلة ذات دلال، ولا تعجبها طريقتي العتيقة في الحديث، فإن أسلوب الغزل اعتراه الكثير من التغيير منذ أيام شبابي، ولهذا اخترتك كي تكون مرشدي الذي أتعلم منه أنجح أساليب الغزل والتودد إلى النساء واستمالة قلوبهن.

فراح فالنتاين يعطيه فكرة عامة عن أساليب الغزل التي يمارسها الشبان، عندما يريدون اكتساب حب سيدة حسناء، من قبيل تقديم الهدايا، والإكثار من الزيارة، وما إلى ذلك.كان جواب الدوق على ذلك أن السيدة التي يعنيها رفضت هدية أرسلها إليها، وأن والدها يقيم عليها حراسة شديدة، بحيث لا يستطيع أي رجل أن يصل إليها نهارا، فقال فالنتاين:

- إذن تزورها ليلا.

فمط الدوق الماكر شفتيه وقال:

- ولكن أبوابها في الليل موصده من الداخل

وكان هذا هو الفخ الذي نصبه الدوق لفالنتاين الساذج.فإذا به يقترح على الدوق أن يتسلل إلى حجرة السيدة ليلا، عن طريق سلم من الحبال.

- سلم من الحبال! ومن أين أحصل عليه فيغامز علي خدمي؟

فقال له فالنتاين أنه سيدبر له هذا السلم.

- وأين أخفي هذا السلم؟

- تحت عباءة فضفاضة مثل عباءتي هذه

فمط الدوق شفتيه وقال:

- ليس لدي هذا الطراز الفضفاض، أقرضني عباءتك

ثم مد يده إلى عباءة فالنتاين وجذبها إليه، فلم يكتشف تحتها سلم الحبال فحسب، بل وأيضا خطابا من سيلفيا، فتحه وقرأه على الفور، فوجد فيه شرحا مفصلا لخطوات الفرار.وبعد أن ألقى الدوق على فالنتاين درسا قاسيا لجحوده فضله ورده إحسانه إليه بالإساءة، منتويا سرقة ابنته وتحطيم قلبه وتلويث شرفه، نفاه من البلاط ومن مدينة ميلانو نفيا أبديا.

وهكذا أكره فالنتاين على الخروج من المدينة تلك الليلة، من غير أن يرى حبيبته سيلفيا. وفي الوقت الذي كان فيه بروتيوس في ميلانو يكيد لفالنتاين كانت جوليا في فيرونا تتألم لغياب بروتيوس، وغلب عليها الشوق والوجد ما تحتفظ به من الوقار واحتشام الأنوثة، فقررت أن تغادر فيرونا، لتلتمس عاشقها في مدينة ميلانو.

وكي ما تجنب نفسها مخاطر الطريق التي تتعرض لها في ذلك الزمن شابة جميلة تسافر وحدها مع خادمة، قررت أن ترتدي هي ولوسيتا ثياب الرجال، ووصلتا إلى ميلانو بعد نفي فالنتاين منها مباشرة بسبب خبانة بروتيوس.ودخلت جوليا ميلانو قرب الظهر، ونزلت في خان من خانات الضيافة، ولما كانت كل أفكارها منصبة على عزيزها الغالي بروتيوس، فقد اشتبكت في حديث مع صاحب الخان،

أو المضيف كما كانوا يسمونه، عسى أن تتسقط منه خبرا عن أحوال بروتيوس.

وسر الرجل سرورا عظيما لأن هذا الشاب النبيل الذي يبدو من جماله ولباسه أنه من ذوي المنزلة العالية، يتحدث إليه في تواضع وبغير كلفة.وكان الرجل على شيء من طيبة القلب فأحزنه أن يرى هاذ الشاب الجميل بادي الوجوم، فلكي يدخل السرور على نفسه عزم عليه أن يأخذه حيث يسمع أنغاما موسيقية جميلة تستعد بها الفرقة الموسيقية لخدمة سيد تعتزم هذا المساء أن يغني على نغامتها نافذة محبوبته.

وكان سبب وجوم جوليا وحزنها أنها كانت لا تدري كيف سيكون وقع حضورها الجريء على نفسه، لعلمها أنه أحبها لشرف أصلها وكبرياء أنوثتها وترفعها، وخشيت أن تكون قد أسفت بنفسها كثيرا في ميزان تقديره، وهذا ما جعلها بادية الشرود والأسى.وقبلت جوليا على الفور وبسرور تام اقتراح المضيف أن تذهب معه لسماع الموسيقى، وفي مرجوها أن تسعدها الظروف في الطريق فتلتقي حبيبها بروتيوس، أو تسمع عنه نبأ.

وقادها المضيف إلى القصر، فإذا بها تفاجأ بشيء لم يكن لها في الحسبان، يحدث في نفسها من الأثر عكس ما رمى إليه المضيف في دعوتها، فهناك شهدت حبيبها الغادر بروتيوس يتغنى على نغمات الموسيقى متحببا إلى الأميرة سيلفيا، وموجها إليها عبارات الحب والإعجاب.

وسمعت جوليا سيلفيا تكلمه من النافذة، وتوبخه على تخليه عن حبيبته الوفية، وعلى غدره بصديقه فالنتاين، ثم غادرت سيلفيا النافذة رافضة أن تصغي إلى موسيقاه وأشعاره، معلنة أنها ستظل وافية لحبيبها المنفي فالنتاين، وأنها تمقت أشد المقت هذا السلوك الشائن الذي اختاره بروتيوس الغادر لنفسه.

وعلى الرغم مما ألقاه هذا المنظر من الألم واليأس في قلب جوليا، إلا أنها لم تزل واقعة تحت سلطان حب بروتيوس.ولما سمعت بعد ذلك أن بروتيوس طرد خادمه أخيرا، عزمت بمساعدة مضيفها صاحب الخان أن تدخل خدمة بورتيوس بصفة حاجب أو وصيف.ولم يفطن بروتيوس إلى أن هذا الوصيف هو جوليا، فصار يكلفها توصيل الرسائل والهدايا إلى غريمتها سيلفيا، وبلغ به الأمر أن بعث معها بالخاتم ذاته الذي أعطته إياه في لحظة الوداع بفيرونا وأقسم أن يحتفظ به تذكارا أبديا، كما تحتفظ هي بخاتمه.

ولما ذهبت إلى الأميرة سيلفيا بالخاتم، سر قلبها كثيرا ما أظهرته سيلفيا من رفض كل شيء يأيتها من بروتيوس، ودخلت جوليا – متخفية تحت اسم الوصيف سباستيان – في حوار مع سيلفيا عن حبيبته الأولى المهجورة النبيلة جوليا.فانتهزت هذه الفرصة كي تثني على نفسها ما استطاعت، ولما سألتها سيلفيا إن كانت تعرف جوليا، قالت:

– أعرفها تماما كما أعرف نفسي، فجوليا طولها مثل طولي، ولونها مثل لوني، ولون عينيها كلون عيني، ولون شعرها كلون شعري.

والواقع أن جوليا كانت بارعة الجمال وهي في ثياب الرجال، فتحرك قلب سيلفيا بالشفقة على هذه السيدة الحسناء التي هجرها حبيبها هذا الهجر القبيح من غير تورع.ولما قدمت جوليا الخاتم الذي أرسله بروتيوس رفضته قائلة:

– كان ينبغي أن يخجل من إرسال هذا الخاتم، فقد سمعته مرارا يقول إن جوليا أعطته إياه، وإني لأحب منك أيها الشاب الرقيق عطفك على السيدة جوليا المسكينة، فخذ هذا الكيس من أجل جوليا.

فوقعت هذه الكلمات الرقيقة من لسان غريمتها على قلبها وقعا خفف عنها

كثيرا ورفع معنوياتها.

والآن نعود إلى فالنتاين وقد نفى من ميلانو، فنجده حائرا لا يدري أين يولي وجهه، فهو لا يريد أن يعود إلى وطنه فيرونا وإلى أبيه وقد هوى من مكانته العالية ووصم بسخط الدوق مطرودا من بلاطه.وراح فالنتاين يهيم على وجهه في غابة منعزلة لا تبعد كثيرا عن ميلانو، حيث ترك جوهرة قلبه الغالية الأميرة سيلفيا. وإذا باللصوص ينقضون عليه ويطلبون منه ما يحمله من المال.وأخبرهم فالنتاين أنه رجل مكروب عاكسته الأقدار، خرج من المدينة منفيا مطرودا، ليس معه مال، وإن الثياب التي عليه هي كل ما يملكه. فلما سمع منه اللصوص أنه رجل أدبرت عنه الدنيا، أخذوا بمنظره النبيل ورباطة جأشه ووسامته، فعزموا عليه أن يقاسمهم حياة قطع الطريق، وإن يتخذوه قائدا لهم، ينضوون تحت إمرته، ولما رأوا تردده خيروه بين ذلك العرض وبين قتله.ولم يجد فالنتاين ما يمنعه من قبول الحياة مع هؤلاء اللصوص أو يتزعمهم، ولم يشترط عليها إلا الامتناع عن اغتصاب النساء أو مهاجمتهن، أو السطو على الفقراء من المسافرين، فنزلوا على شرطه... وهكذا أصبح فالنتاين رئيس عصابة من قطاع الطرق الخارجين عن القانون، كما كان روبن هود في الزمان السالف

ونترك فالنتاين مع عصابته لنعود إلى ميلانو..

فكرت سيلفيا في وسيلة تنجيها من الرضوخ لعزم أبيها أن يزوجها من ثوريو، ولا سيما أن الدوق صار يستعجلها في ذلك السبيل. ولما كانت نية فالنتاين أن يفر إلى مانتوا، فقد ظنته بعد النفي ذهب إلى هناك، وقررت أن تهرب لتلحق به، ولكنها كانت مخطئة في ذلك التصور، لأن فالنتاين كان في الغابة القريبة متزعما قطاع الطريق، وإن كان لا يشترك معهم في أعمال السطو، ولا يستخدم سلطانه عليهم إلا لترقيق قلوبهم على من ينقضون عليهم من المسافرين.

ودبرت سيلفيا فرارها من قصر أبيها في صحبة سيد فاضل متقدم في السن اسمه اجلامور، كي يتولى حمايتها وهي في الطريق. وكان عليها أن تخترق في طريقها إلى مانتوا تلك الغابة التي يسكنها فالنتاين مع قراصنته، فأسر أحد هؤلاء اللصوص سيلفيا، وكان حريا به أن يأسر اجلامور كذلك، لولا أنه لاذ بالفرار.ولما رأى قاطع الطريق حالة الرعب الشديد الذي استولى على سيلفيا قال لها:

- هوني عليك فلن أمسك بسوء، بل سأحملك إلى الكهف الذي يقيم فيه زعيمنا الهمام.

فجعلت تستحلفه ألا يذهب بها إلى ذلك الزعيم، فمن يدري ماذا سيفعله بها؟ ولكن اللص قال لها:

- لا بأس عليك منه، فإن زعيمنا رجل ذو خلق ومروءة، همه دائما حماية النساء من العدوان، ويحتم علينا أن نذهب بهن إليه، كي يصبحن تحت رعايته هناك في مأمن على أعراضهن.

بيد أن سيلفيا لم تجد بطبيعة الحال في نفسها ميلا للثقة في صدق هذا القول، وجعلت تولول نادبة سوء طالعها وما يدخره لها الغيب على يد هذا الزعيم الذي يزعمونه فاضلا شريفا، ولا يتأتى للص أن يكون كذلك.وصرخت مستنجدة في كربتها:

- آه يا فالنتاين! كل هذا تحملته من أجلك.

وفي الطريق إلى كهف الزعيم اعترض طريق سيلفيا والقرصان فارسان هما بروتيوس ومن ورائه جوليا متخفية في زي تابعه سباستيان، فإن بروتيوس لما سمع بفرار سيلفيا تعقب آثارها إلى هذه الغابة. وخلصها بروتيوس من أيدي القرصان، ولكنه قبل أن تنطق بشكره لاحقها بكلمات الغزل، وألح عليها أن تقبله زوجا،

وقد وقفت جوليا من ورائه في أشد حالات القلق، لأنها خشيت أن تكون الخدمة الجليلة التي أسداها بروتيوس إلى سيلفيا قد أثرت في نفسها وعطفت عليه فؤادها.وقبل أن ينتهي الحوار إلى نتيجة واضحة، دهش الثلاثة بظهور فالنتاين فجأة، لأنه لما بلغه أن أحد رجاله سبى سيدة أسرع ليرفه عنها ويؤمنها، بعد أن استبطأ قدومه.

ولما وجد بروتيوس نفسه وقد ضبطه صديقه القديم متلبسا بمغازلة سيلفيا، استولى عليه الخزي والندم، وأظهر أسفا بالغا لما أسلفه إلى فالنتاين من إساءة، حتى إن طبيعة فالنتاين الكريمة غلبته، فأعلن صفحه عن صديقه الغادر، بل وجمع به الكرم فقال له:

- إنك صديقي الوحيد وأنت عندي مقدم دوما على نفسي، فلست أصفح عنك وكفى، بل أهبك كل الذي لي من اهتمام وتعلق بسيلفيا.

فلما سمعت جوليا ذلك، خشيت ألا تسعف بروتيوس الشهامة والنخوة، فيقبل ما عرضه عليه صديقه مغتنما الفرصة، فأغمى عليها وهي في ثياب الرجال.وأفاد هذا الأغماء في انشغال سيلفيا بإسعاف الوصيف الجميل، ولولا هذا لأتسع لها الوقت كي تغضب للإهانة التي لحقتها من فالنتاين إذ خلعها على صديقه من غير مراعاة لعواطفها، وإن كانت لا يمكن أن تظن حبيبها يسترسل طويلا في تلك الدفعة المسرفة من دفعات السخاء.

ولما أفاقت جوليا من غيبوبتها قالت:

- لقد نسيت شيئا مهما، فقد أمرني مولاي أن أقدم هذا الخاتم للأميرة سيلفيا، وهذا أوان تنفيذ أمره.

ونظر بروتيوس إلى الخاتم فإذا به بعينه خاتمه الذي كان منحه لجوليا تذكارا

عند افتراقهما في فيرونا، في مقابل الخاتم الذي تلقاه منها، فصاح:

- ما هذا؟ كيف حدث؟ إن هذا خاتم جوليا فكيف وصل إليك يا غلام؟
- إن جوليا بنفسها أعطتني إياه يا سيدي، وجوليا بنفسها هي التي أحضرته إلى هنا.

فتفرس فيها بروتيوس بإمعان، وعندئذ أيقن أن هذا الغلام سباستيان ليس سوى جوليا بلحمها ودمها، وكان البرهان العملي الذي قدمته على إخلاصها ووفائها بعهده، بالغ الأثر في نفسه، بحيث ارتد حبها إلى قلبه، فاحتضنها معلنا رجوعه عن كل مطمع له في الأميرة سيلفيا التي استحق فالنتاين حبها بكل جدارة. وفيما كان بروتيوس وفالنتاين يتبادلان تجديد العهود بعد الصلح، إذا بالأربعة يفاجئون بظهرهم.. دوق ميلانو ومعه ثوريو، يتعقبان الأميرة سيلفيا. واقترب ثوريو أولا وحاول أن يمسك بسيلفيا قائلا:

- سيلفيا لي أنا

وعندئذ قال له فالنتاين بلهجة الدعابة:

- أرجع إلى الوراء يا ثوريو، وإن قلت مرة أخرى أن سيلفيا لك أنت، فسأجعلك تعانق منيتك، ها هي ذي واقفة فحاول أن تلمسها! وأتحداك أن تلفحها بأنفاسك.

فلما سمع ثوريو ذلك التهديد، وكان جبانا رعديدا، تراجع قائلا أنه لا يهمه أمرها، وإن المجنون وحده هو الذي يقاتل من أجل فتاة لا تضمر له حبا. أما الدوق الذي كان رجلا مقداما للغاية، فقد أغضبه كل الغضب ذلك الجبن الذي أبداه ثوريو وصاح به:

- ما أحراك بالخزي أن يكون حقك عليها بذلك الوضوح، ثم تتخلى عنها

بذلك الهوان.

ثم التفت إلى فالنتاين وقال له:

- إني أحيي فيك همتك يا فالنتاين وأراك خليقا بحب إمبراطورة، ستكون سيلفيا لك لأنك جعلت نفسك أهلا لها

فتقدم فالنتاين بكل تواضع وقبل يد الدوق، وتقبل الهدية الثمينة التي منحه الدوق إياها في شخص ابنته مع الشكر الواجب.ولم يفته أن ينتهز هذه الفرصة السارة ليستصدر من الدوق في ساعة الصفو عفوا شاملا عن اللصوص الذين تزعمهم بعض الوقت في الغابة، مؤكدا للدوق أنه إذا استصلحهم وردهم إلى حظيرة المجتمع، سيجد فيهم خيرا كثيرا، ورجالا صالحين لأداء أجل الخدمات، فمعظمهم محكوم عليه بالنفي مثل فالنتاين لأسباب سياسية لا لجرائم تخدش الشرف والسمعة.

ووافق الدوق على ذلك الالتماس، ولكنه أبى ألا أن يعاقب بروتيوس عقابا يتناسب مع فعلته، فكلفه أن يحضر تلاوة قصة غرامه وخيانته في مجلس العرش، حتى يكون الخزي الذي يلحقه تكفيرا كافيا عن ذنبه.

وبعد ذلك تم زواج المحبين الأربعة في رعاية الدوق النبيل، وبكل مظاهر الابتهاج والتبجيل.

تاجر البندقية

شيلوك يهودي كان يعيش في مدينة البندقية، وصناعته إقراض النقود بالربا حتى جمع ثروة طائلة من الفوائد الباهظة التي كان يقرض بها النقود لتجار المدينة المسيحيين. كان شيلوك قاسي القلب لا يعرف الرحمة في اقتضاء حقوقه المالية ولا يقبل الإمهال، لهذا كرهه معظم الناس وحقد عليه جميع الفضلاء، ولاسيما أنطونيو.

وأنطونيو هذا تاجر شاب من أهل البندقية، كان سخي اليد كريم النفس، يقرض النقود لأهل الحاجة دون نظر إلى فائدة أو ضمان، ويرفض قبول الربا، وبهذا كان ينقذ الكثيرين من الالتجاء إلى شيلوك فيستغل اضطرارهم ويسومهم شروطا مخربة، فلا عجب أن يكره شيلوك ذلك الشاب أنطونيو، وأن تحتدم الخصومة والأحقاد المتبادلة بينهما.

وكلما جمعت منتديات التجارة أو المصفق (البورصة) بين الرجلين، كان أنطونيو يبادر شيلوك بالتقريع اللاذع على قسوته وشدته على اللاجئين إليه، فيمتص دمهم، وكان اليهودي يتجلد لهذه الإهانات التي تجعله موضع السخرية والتحقير بين الحاضرين من وجهاء المدينة وتجارها، ويبدي صبرا وتغاضيا. وإن كان في الواقع يتأجج في دخيلة نفسه غيظا ويتحين الفرصة للانتقام.

وازدادت مكانة أنطونيو كل يوم رفعة في نظر مواطنيه أهالي البندقية لأنه كان أرق الناس قلبا، وأوسمهم شكلا وأعذبهم لسانا، لا يمل من توجيه المجاملات وإسداء الخدمات في السر والعلن، حتى قيل أن فضائل روما القديمة لم تتمثل في أحد من معاصريه أبناء إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها كما تمثلت في أنطونيو.

وعلى كثرة محبيه وأصدقائه، كان أقربهم إليه وأعزهم عليه هو بسانيو، وبسانيو نبيل من أشراف البندقية ينتمي إلى سلالة عريقة المكانة، واسعة الشهرة، إلا أن ثروته كانت محددة، ومع ذلك راح يسرف في معيشته ومسراته إسرافا آذى حالته المالية، كما يحدث معظم الأحيان للشبان الذين لا توازي مواردهم سمو مكانتهم.

وكان بسانيو كلما احتاج إلى المال، مد إليه أنطونيو يد المساعدة حتى كأنما للصديقين قلب واحد، وخزانة واحدة مشتركة بينهما على الشيوع.

وفي ذات يوم جاء بسانيو إلى أنطونيو، وأخبره أنه فكر جيدا في اضطراب أحواله المالية، وإن شأنه لا يصلح إلا بالزواج من فتاة واسعة الثراء وأن المقادير حالفته فأحب فتاة بارعة الجمال، مات أبوها منذ مدة وجيزة، وترك لها ميراثه ضيعة مترامية الأطراف.وكان في مدة حياة أبيها يزور الدار، زيارات تقتضيها الروابط الاجتماعية بين أبناء الطبقة العالية، ثم لاح له أن هذه الآنسة كانت تطيل النظر إليه أحيانا، وتبعث إليه إشارات خفية صامتة، وكأنها تريد أن تقول له بتلك النظرات أن قلبها يميل إليه، وإنها سوف لا تصده أن تقرب إليها بأسباب المودة، وأحب أن يكون لها خاطبا، بيد أن افتقاره إلى المال الذي يتيح له المظهر الفخم المناسب للطموح إلى خطبة وارثه غنية ذلك الغني العظيم.

ولم يجد غير صديقه أنطونيو يلتمس منه أن يضيف إلى أياديه الكثيرة عليه يدا جديدة، فيقرضه ثلاثة آلاف دوقية لهذا الغرض.وكان أنطونيو لا يملك هذا المبلغ حاضرا تحت يده في ذلك الوقت، ولكنه كان ينتظر عما قريب عودة بعض سفن تحمل متاجر ثمينة له تساوي مبلغا طائلا، فخطر له أن يذهب إلى شيلوك أثرى المقرضين، الذين كانوا يومئذ يقومون بوظيفة البنوك في عصرنا الحديث، فيقترض منه ذلك المبلغ اعتمادا على سفنه التي ستدخل الميناء قريبا بأمواله،

فيؤدي إلى اليهودي ماله.

وذهب أنطونيو وبسانيو معا إلى شيلوك، ثم طلب أنطونيو من اليهودي أن يقرضه ثلاثة آلاف دوقية من الذهب، وترك له حرية تحديد قيمة الربا الذي يرتضيه، وخوله تسلم الجملة من أثمان المتاجر التي تحملها سفنه إليه من وراء البحار، وذلك أنفه من أنطونيو أن يقف من هذا المراب الحقير موقف الرجاء أو المساومة.

ووجد شيلوك أن الفرصة قد سنحت ليشفي غليله، وقال في نفسه:إن استطعت أن أقتنص مرة واحدة، فسوف أشبع حقدي القديم الذي أحمله له، فهو يكره شعبنا اليهودي، ويخطف اللقمة من أفواهنا إذ يقرض ماله مجانا بغير ربا ليحرمنا رزقنا.وحين يجتمع التجار يتهكم ويندد بي وبصفقاتي التي أكسبها حلالا بحصافتي وحقوقي القانونية، التي يسميها أضعافا من الربا الفاحش مضاعفة، فلعنة الله على عشيرتي بأسرها إن غفرت له أو رحمته!

ولما وجد أنطونيو أن الرجل يغمغم محدثا نفسه ولا يرد عليه، وقد عيل صبره واشتدت لهفته على ذلك القرض من أجل إسعاد صديقه، صاح باليهودي:

- أتسمعني يا شيلوك؟ أراض أنت أن تقرضني هذا المبلغ؟

فنظر إليه اليهودي مليا ثم قال:

- يا سنيور أنطونيو، كم من مرة جعلتني في مجمع التجارة هدفا لتنديدك بأعمالي المالية وقروضي الشنيعة، وكنت أحتمل منك ذلك وأهز كتفي وأصابرك، فاحتمال العذاب هو شعار شعبنا كله، شعب إسرائيل، ثم رحت تسميني الكافر، والكلب قاطع الرقاب، وتبصق على ملابسي العبرية، وتشير نحوي بقدمك كما لو كنت كلبا لا بشرا، وها أنت الآن محتاج فيما يبدو إلى

مساعدتي، فجئت تقول لي: "يا شيلوك أقرضني نقودا"، ولكن هل يملك الكلب نقودا؟ وهل من الممكن أن يستطيع الكلب أن يكون جوابي على طلبك بعد ذلك أن أنحني لك حتى أمس الأرض وأقول لك يا سيدي ذا الطلعة البهية، إنك بصقت على وجهي يوم الأربعاء الماضي، وفي يوم آخر دعوتني بالكلب. ومن أجل كرامة هذه التحيات والمجاملات وأمثالها سأقرضك النقود.

فأجابه أنطونيو قائلا:

- إن شعوري نحوك لم يتغير، ونفسي تراودني أن أدعوك بهذه الأسماء عينها مرة أخرى، وأبصق عليك مرة أخرى وأركلك بقدمي أيضا، فإن كنت عازما أن تقرضني هذا المال فلا تقرضني إياه بصفتي صديقا، بل أفضل أن تقرضني إياه بصفتي عدوا، وذلك أقرب لمصلحتك، إذ تستطيع في حالة عجزي عن الوفاء أن توقع على الجزاء من غير تردد أو خجل

فقال شيلوك:

- وفيما كل هذا الهدوء والجموح! إني أرغب في صداقتك أتمنى أن أحظى بمحبتك، ومستعد أن أنسى العار الذي وصمتني به، بل وأمدك بما أنت في حاجة إليه، ثم لا أقتضي منك على نقودي ربحا ولا ربا.

فأدهش أنطونيو هذا العرض الذي ظاهره الرحمة والمودة دهشة عظيمة، واستمر شيلوك في تصنعه قائلا:

- أجل إني سأقرضك ثلاثة آلاف دوقية من الذهب ولا آخذ منك على هذا المال ربحا، وكل ما أشترطه عليك أن تذهب إلى محام، وهناك توقع بإمضائك على وثيقة شكلية لمجرد الهزل.وتتعهد فيها أن تدفع المبلغ في ميعاد تحدده،

فإن لم تدفعه في ذلك التاريخ المحدد كان من حقي أن أقطع رطلا كاملا من لحمك، من أي موضع أختاره من جسمك.

وأدرك أنطونيو ما في الشرط من تحد وتهكم، فقال:

- موافق، سأوقع بإمضائي هذه الوثيقة، وأشهد بعدها إن في شعب إسرائيل عنصرا كبيرا للرحمة والرقة.

وفزع بسانيو، وألح على أنطونيو ألا يوقع شرطا كهذا، بيد أن أنطونيو شاقته اللعبة فصمم على توقيع الوثيقة، واثقا أن مراكبه ستصل قبل موعد الوفاء محملة بما تزيد قيمته على ذلك المبلغ أضعافا مضاعفة.

فلما سمع شيلوك هذه المناقشة صاح متعجبا:

- عونك وبركتك يا أبانا إبراهام يا لهؤلاء المسيحيين من قوم شكاكين ذوي وساوس! إن قسوتهم وتشددهم في المعاملة يعلمانهم الحذر والشك في أفكار الناس ونواياهم، وإني أسألك أن تخبرني يا سنيور بسانيو ما الذي أجنيه من اقتضائه تنفيذ الشرط إذا عجز عن الدفع في الميعاد؟ إن رطلا من اللحم البشري يقتطع من رجل ليس شيئا ثمينا، ولا مفيدا كذلك مثل لحوم الضأن أو الثيران، وإنما كل مرادي أن أشتري مودته بهذه الصداقة التي أعرضها عليه، فإن قبلها فبها ونعمت، وإن رفضها فمع السلامة.

ولم يقتنع بسانيو بكل ما راح يردده اليهودي عن حسن نواياه وشرف مقصده ورقة قلبه، وجعل يقاوم عزم صديقه على المجازفة بذلك العقاب الفظيع في سبيله، وأصر أنطونيو، ثم ذهب مع اليهودي إلى المحامي، ووقع الوثيقة المطلوبة، وهو يظن أنها في الحقيقة، كما قال شيلوك، مجرد دعابة.

وكانت الوارثة الغنية التي يرغب بسانيو الزواج منها تعيش بالقرب من

البندقية في قصر يدعى بلمونت، واسم هذه الوارثة الحسناء بورشيا، وكانت لا تقل في فضائلها ومحاسنها العقلية عن سميتها العتيدة بورشيا الرومانية، التي كانت ابنة كاتو العظيم، وزوجة بروتس.

وما إن حصل بسانيو بفضل مكارم صديقه أنطونيو على ذلك المبلغ الكبير، حتى شد الرحال إلى بلمونت وقد اتخذ موكبا حافلا وحاشية فخمة، ومعه شخص اسمه جراتيانو بمثابة صديق ومرافق. وأثبت بسانيو لباقة في التودد إلى بروشيا، فوفق بعد وقت قصير إلى الحصول على رضاها أن تقبله زوجا.

واعترف بسانيو لبورشيا أنه لا يملك ثروة تذكر، وإن نسبه العريق وسلالته النبيلة هما كل ما يعتز به في الدنيا.ولما كانت تحبه لمزاياه السامية، ولديها من الثروة ما يجعلها لا تهتم بثراء من تتزوجه، ولهذا أجابته في تواضع جميل:

- كم كنت أتمنى يا سيدي النبيل أن أكون أجمل مما أنا ألف مرة، وأثرى مما أنا عشرة آلاف مرة، كي أكون أجدر بك!

وراحت بورشيا بعد ذلك تغض من قدر نفسها، وتزعم له أنها فتاة لم تذهب إلى مدرسة، ولم تختبر الدنيا أو تمارس الحياة، ولكن عزاءها أنها لم تبلغ من العمر سنا يعوقها عن التعلم، ولهذا ستترك لزوجها العزيز أن يتولى قيادها وتدبير أمور عقلها وأملاكها، فيثقفها ويبصرها بالدنيا، إلى أن قالت:

- شخصي وكل ما أملك مباحان لك ولمن يلوذون بك بغير معقب وبغير تردد، وحتى الأمس يا بسانيو كنت أنا ربة هذا القصر الجميل، وملكة نفسي، ومولاة هؤلاء الخدم والحشم، أما الآن فهذه الدار وهؤلاء الخدم، وأنا قبلهم ملك لك يا مولاي، أقدم الجميع لك، وأمنحك هذا الخاتم توثيقا لتلك الهبة التي لا رجعة فيها.

ومدت إلى بسانيو يدها بخاتم ثمين، فاستولى العجب والإعجاب وعرفان الجميل، على بسانيو، لما تبين له في النبيلة بورشيا من رقة، بحيث تقبل من رجل في مثل رقة حاله أن يكون سيدها المطلق، ولم يستطع أن يعبر عن فرحه وتمجيده لهذه السيدة التي كرمته هذا التكريم، اللهم إلا ببعض كلمات الحب والشكر التي خرجت متعثرة متقطعة لفرط تأثره، وقبل منها الخاتم مقسما لها ألا يخلعه من يده أبدا.

وكان جراتيانو صديق بسانيو ومرافقه واقفا، وكذلك وصيفة بورشيا المسماة نيريسا، عندما تعهدت بورشيا أن تكون الزوجة المطيعة الخاضعة لبسانيو، فتقدم جراتيانو وتمنى لبسانيو وعروسه الكريمة كل سعادة، ثم استأذنه في أن يتزوج هو أيضا في الوقت نفسه.

– أتمنى ذلك من كل قلبي يا جراتيانو إن استطعت أن توفق إلى عروس.

وعندئذ اعترف جراتيانو أنه يهوى وصيفة السيدة بورشيا الحسناء نيريسا، وأن نيريسا وعدته أن تقبله زوجا إن رضيت مولاتها ببسانيو زوجا لها، وعندئذ سألت بورشيا نيريسا:

– هل ما يقوله صحيح؟

– أجل يا مولاتي، بعد إذنك.

فوافقت بورشيا على ذلك الزواج بكل سرور، وقال بسانيو:

– إن زواجنا سيكون الاحتفال به أبهى بفضل اشتراكك فيه يا جراتيانو بسعادتك الشخصية، ستفرح مرتين لك ولي، وكذلك أنا.

وكان مقدرا أن هذا السرور الشامل للمحبين الأربعة لابد أن يشوبه كدر مفاجئ فإذا برسول عاجل يدخل فيسلم بسانيو خطابا من أنطونيو يتضمن أنباء

السوء، فلما قرأ بسانيو رسالة أنطونيو، وعبس، خشيت بورشيا أن يكون هناك خبر فاجع مثل موت قريب أو عزيز على بسانيو، وأسرعت تسأله في لهفة عن مضمون الخطاب، فقال:

- هذه يا حبيبتي بورشيا بضع كلمات من أشأم ما سودت به صفحات الأوراق، وأنت تذكرين أيتها الغالية أنني صارحتك في أول مرة كاشفتك فيها بالحب، إن كل ما أملكه من الثروة هو تلك الدماء العريقة التي تجري في عروقي، ولكن كان ينبغي أن أكون صريحا معك أكثر من هذا، فأقول لك أنني أملك أقل من العدم، أقل من لا شيء، أني مدين..

ثم أخبرها بسانيو ما حدث مما سبق سرده في هذه الصفحات من اقتراضه المال من أنطونيو، الذي جاءه بالمبلغ من شيلوك اليهودي مقابل ذلك الصك العجيب الذي يجعل رطلا من لحمه حقا لا نزاع فيه للمرابي الجشع إن تأخر يوما واحدا عن سداد الدين في موعده المحدد، وبعد ذلك قرأ لها رسالة أنطونيو.

- يا عزيزي بسانيو، سفني كلها ضاعت في البحر، وحل لليهودي شيلوك أن يستوفي دينه، ولما كان تنفيذ الشرط غير مستطاع أن أبقى بعده على قيد الحياة، ففي أملي أن أراك قبل منيتي، ولكني لا أريد أن أعكر عليك صفو حبك لعروسك.فإن لم يكن لك باعث على الحضور من محبتك لي، فلا تجعلن خطابي هذا يستحثك على حضور لا تدعوك إليه ذات نفسك

فقالت له بورشيا:

- انفض يدك من كل ما يشغلك وسافر على الفور، وخذ معك من الذهب ما يوفي ذلك الدين عشرين ضعفا، ذلك كله أولى من التخلية بين هذا اليهودي وبين شعرة من رأس صديق بسبب حبيبي بسانيو، وإذا كان صاحبك اشترى

سعادتك بحياته، فذلك أحرى أن يعلي في نظري قدر حبك، فلا تحسب حساب المال وأذهب على عجل.

ولكي تجعل له حقا شرعيا في أن يأخذ من أموالها ما يشاء من غير حساب أو تردد، قررت أن يعقد زواجهما قبل رحيله، ودعي الكاهن في ذلك اليوم فعقد لهما عقدة القران، وكذلك عقد لجراتيانو على نيريسا.ولم يتسع الوقت لإقامة وليمة العرس، إذ سحب بسانيو يده من يد الكاهن ليركب بأقصى سرعة إلى البندقية، حيث وجد أنطونيو وقد أودع السجن مقبوضا عليه بحكم قانون المعسرين.

كان اليوم المحدد للوفاء بالدين قد حل، وانقضى، فلما عرض بسانيو على اليهودي القاسي القلب مبلغه أبى أن يقبله. وأصر أن يحصل على رطل بالضبط من لحم أنطونيو.

وحدد يوم لعرض القضية البشعة أمام دوق البندقية، وانتظر بسانيو وهو في حالة قلق فظيع حلول موعد المحاكمة.وكانت بورشيا حتى ودعت زوجها وهي تضحك وتمازحه، وطلبت منه أن يأتي عند عودته إلى بلمونت بصديقه العزيز معه.ولكنها في نفس الوقت كانت تخشى في داخل سريرتها أن تجري الأمور على غير مصلحة أنطونيو، ولما بقيت بمفردها، بدأت تفكر هل يمكن أن تصنع شيئا لإنقاذ حياة صديق بسانيو الحميم؟

ومع أنها قالت لبسانيو في رقة الزوجات وخضوعهن أنها ستنقاد في جميع الأمور لحكمته العالية وتصرفه المطلق، إلا أنها وجدت حياة صديق زوجها الجليل معرضة للخطر، ولم تعد تشك في قدرتها، واهتدت بصائب نظرها في الأمور فقررت أن تذهب بنفسها إلى البندقية لتتولى الدفاع عن أنطونيو.

وكان لبورشيا قريب من مستشاري القانون ذوي الرأي والحيلة والتجربة، فكتبت إلى ذلك السيد، واسمه بلاريو، تعرض عليه وقائع القضية، وتسأله عن رأيه، وتطلب منه أن يرسل إليها الزي الخاص الذي يرتديه مستشارو القانون في المحاكم.ولما عاد الرسول الذي بعثت به إلى بلاريو، كان يحمل تقريرا مفصلا منه عن الخطوات التي يجب إتباعها للسير في هذه القضية إلى شاطئ النجاة، وحمل الرسول معه كذلك كل ما يلزم لمظهر المحامي في المحكمة.

وارتدت بورشيا ملابس الرجال، وكذلك ألبست نيريسا وصيفتها ثوب رجل، ثم بعد ذلك وضعت على منكبيها الزي الرسمي للمحامين، وأردفت نيريسا معها بمثابة كاتب المحامي.

وانطلقت على الفور فوصلت إلى البندقية في ذات اليوم المحدد لنظر القضية.وكانت القضية على وشك أن تنظر أمام الدوق وأعضاء مجلس شيوخ البندقية، في دار مجلس الشيوخ، عندما دخلت بورشيا تلك المحكمة العليا، وقدمت خطابا من بلاريو، أرسله هذا المستشار الذائع الصيت إلى الدوق، يقول له فيه أنه كان ينوي الحضور للدفاع بنفسه عن أنطونيو، لولا أن المرض أقعده عن ذلك، ولكنه يلتمس من عدالة الدوق أن يسمح لزميله الشاب الضليع الدكتور بلتزار (فهذا الاسم الذي اتخذته بورشيا) بالدفاع نيابة عنه.

ودهش الدوق لما يبدو من حداثة سن هذا المحامي الغريب.بيد أن أجاب الملتمس وسمح له بالمرافعة.

ثم بدأت هذه القضية الهامة ونادى الحاجب على المتهم والمدعي، فنظرت بورشيا حولها ورأت اليهودي الذي لا يعرف الرحمة، وكذلك رأت زوجها بسانيو، ولكنه لم يعرفها في تنكرها، وكان واقفا بجانب أنطونيو وهو في حالة من الجزع والأسى والخوف على صديقه العزيز.

وأدركت بورشيا خطورة المهمة التي ندبت نفسها لها، فبعث الشعور بالمسؤولية في تلك السيدة الرقيقة قوة وشجاعة، وبدأت كلامها بتوجيه الخطاب إلى شيلوك، معترفة له أن من حقه بمقتضى قوانين البندقية أن يحصل على الجزاء المنصوص عليه في الصك. ثم حدثته حديثا بليغا عذبا عن فضيلة الرحمة السامية، بأسلوب كفيل أن يذيب أي قلب، إلا قلب شيلوك الصخري، ويعتبر هذا النص من مرافعة بورشيا عن مزايا الرحمة من أبلغ النصوص في الآداب العالمية.

إن الرحمة تهمى كما يهمى الغيث من السماوات على الأرض الموات فتحيا به وتنبت نباتا حسنا... إن الرحمة بركة مزدوجة بركة لمن يسديها وبركة لمن يتلقاها، فهي الفضيلة التي تزين الملوك خيرا مما تزينهم التيجان، لأنها حلية يقلدها إياهم الرحمن، أما السلطة الدنيوية فلا تقترب من عرش الله إلا بمقدار ما يمتزج عدل سلطتهم بالرحمة.. فينبغي أيها السيد شيلوك أن تضع نصب عينيك أنه إن كنا نطلب الرحمة ممن أمرنا بيده، فلن يستجاب لنا إلا إذا رحمنا من أمرهم بيدنا.

وكان كل ما ظفرت به من شيلوك هو إصراره على اقتضاء الجزاء المنصوص عليه في صك الدين، فسألت بورشيا المدعي عليه أنطونيو:

- أليس المدعى عليه مستعدا لدفع المبلغ؟

فأسرع بسانيو يعرض على اليهودي دفع الثلاثة آلاف دوقية من الذهب أضعافا مضاعفة يترك لشيلوك وحده تحديدها.

ولكن شيلوك هز رأسه نفيا وأبى وأصر أن يتقاضى رطل لحم من بدن أنطونيو.وعندئذ صرح بسانيو متوسلا إلى المحامي الشاب الضليع أن يحاول إيجاد مخرج في نصوص القانون، ولو التوى به قليلا، لينقذ حياة أنطونيو.

وهناك تتجلى براعة بورشيا، إذا اتخذت موقف الحريص على مصلحة المجتمع

العليا في نزاهة عن الهوى، قائلة بلهجة الجد الخطير:

- إن القوانين متى أبرمها المجتمع يجب أن يحترمها الجميع وتنفذ بحذافيرها في دقة كاملة!

وما إن سمع شيلوك بورشيا تقول إن القانون يجب أن ينفذ بغير تأويل أو تحوير، حتى خيل إليه أنها انقلبت تدافع عن جانبه ومصلحته فاستخفه الفرح وخرج عن وقار السن وصاح بحماسة:

- لقد بعث دانيال في ساحة العدل بفمه الذهبي! هذا دانيال نبي الله قد تمثل بشرا! كم أجلك أيها الحكم العدل ذو الحكمة والشباب، إنك أنت سليمان في عدله! إن لك من حكمتك ما تكبر به سنك أعمارا كثيرة!

وابتسمت بورشيا وطلبت من شيلوك بكل لطف أن يسمح لها بالاطلاع على الصك، فلما قرأته وضعته من يدها وقالت بلهجة المقتنع المستسلم لقضاء لا حيلة فيه:

- إن هذا الصك شرعي، والجزاء المنصوص فيه عليه، فمن حق اليهودي بمقتضي القانون أن يطالب برطل من لحم أنطونيو من أي موضع يحدده من جسده، يقتطعه ولو من أقرب المواضع إلى قلبه.

ثم التفتت إلى شيلوك وقالت له:

- حقك لا حيلة فيها ولا مراء لك أن تأخذه ما أصررت عليه، ولكن الرحمة فوق العدل، فأناشدك أن تأخذ المال وتسمح لي بتمزيق هذه الصك.

فقال شيلوك وقد أطمأن إلى حقه، فازداد إصرار:

- أقسم بديني وما اعبد أنه لن تستطيع قدرة في لسان بشر أن تغير من عزمي!

فتحولت بورشيا إلى أنطونيو وقالت له ببراءة وهدوء:

- لم يعد هناك ما يقال يا أنطونيو، فعليك أن تعد صدرك لاستقبال السكين!

وكأنما كان شيلوك ينتظر هذه الكلمة، فاستل من تحت ثيابه سكين جزار طويل أخذ يشحذها بكل همة في قاعة المحكمة، وقد ساد الوجوم والاستفظاع وجوه الناس، ولكن بورشيا لم تهتز، وسألت أنطونيو:

- ألديك ما تقوله قبل النطق بالحكم؟

فأجاب أنطونيو بشجاعة رائعة وهدوء:

- ليس عندي ما أقوله، لأني وطنت نفسي منذ البداية على الموت، والآن أبسط يدك يا بسانيو أودعك، ولا تجزعن لأني ترديت في هذه المحنة في سبيلك، واحمل تحيتي إلى زوجتك المبجلة، وحدثها، وحدث بنيك عندما ترزق البنين كيف كنت أحبك.

فوقع هذا على بسانيو وقعها شديدا وصاح به:

- يا أنطونيو، إن لي زوجة تعدل عندي الحياة نفسها، وزوجتي، وكل هذا الكون، لا تربو عندي في المنزلة على حياتك، وكم كنت أتمنى أن أفقد كل شيء، لهذا الشيطان الواقف هنا كي أنقذك.

ومع أن بورشيا لم تغضب لما سمعت، إلا أنها ردت على بسانيو قائلة:

- لا أحسب زوجتك كانت تشعر بالامتنان كثيرا لو أنها كانت حاضرة وسمعتك تقول هذا الكلام.

وعندئذ أخذت جراتيانو الحماسة، فحذا حذو سيده وقال بحيث سمعته نيريسا التي كانت تسجل في دفترها مذكرات الدفاع:

- وأنا أعترف أن لي زوجة أحبها أعظم الحب، ولكني أتمنى على الله أنها كانت ماتت، لو أن انتقالها إلى السماء يكون وسيلة تستنزل بها من هناك إرادة علوية تلين قلب هذا اليهودي!

فقال كاتب المحامي (الذي هو نيريسا):

- لا بأس أن تقول هذا وراء ظهرها، وإلا لكان عيشك بعدها نكدا وطالعك نحسا!

وفرغ صبر شيلوك فصاح والسكين يهتز في يده:

- إننا نضيع الوقت الثمين في الكلام، هيا انطقوا بالحكم!

فساد الصمت وفاضت القلوب حزنا على أنطونيو، وسأل الدوق المحامي:

- هل عندك ما تقوله قبل صدور الحكم؟

- هل أحضرتم الموازين الدقيقة لوزن اللحم؟ إنك يا شيلوك يجب أن تستحضر معك جراحا، حتى لا ينزف أنطونيو فيموت

ولكن نية شيلوك الحقيقية كانت أن ينزف أنطونيو حتى الموت، ولهذا أجاب محتجا:

- إن هذا الطلب ليس منصوصا عليه في الصك.

- ليس منصوصا عليه في الصك ولكن يجب أن تصنع ذلك بدافع الرحمة، أليس كذلك؟

فتناول شيلوك الصك ونظر فيه ثم قال:

- لا أجد ذكرا للرحمة في الوثيقة، والعقد شريعة المتعاقدين.

- ما دام العقد شريعة المتعاقدين فمن حقك رطل كامل من لحم أنطونيو، هذا

ما يسمح به القانون وما تبرمه المحكمة.

ولك أن تقطع هذا اللحم من صدره، فهذا أيضا يسمح لك به القانون وتجيزه المحكمة! إني لم أكذب حين قلت أنك دانيال بعث حيا!

وراح يشحذ سكينة من جديد حتى خطفت الأبصار، وصاح بأنطونيو:

- هيا يا صاح! حان يومك.. استعد!

فاستوقفته بورشيا قائلة:

- انتظر برهة أيها اليهودي. هناك مسألة أخرى، إن العقد شريعة المتعاقدين ينص على اللحم، ولكنه لا يمنحك قطرة واحدة من الدم، انظر صكك جيدا فلن تجد فيه الرحمة ولكنك أيضا لن تجد فيه ذكرا للدم! وأنت تعلم حكم القانون في اليهودي الذي يهرق نقطة من دم مسيحي بغير حق، فأراضيك وأملاكك وأموالك تصادر نظير تلك النقطة الواحدة وتصبح ملكا لدولة البندقية بنص القانون!

ولما كان من المستحيل أن يقطع رطلا من لحم أنطونيو من غير أن يريق نقطة واحدة من دمه، فقد امتنعت عليه وسيلة التنفيذ، ونجا أنطونيو.

وأخذ الحاضرون والقضاة الذين غصت بهم بناية مجلس الشيوخ لحضور هذه القضية الفذة، وبهرتهم براعة وذكاء هذا المحامي الصغير السن، ودوت هتافاتهم له وصيحات الإعجاب به، ونهض جراتيانو يصيح باليهودي:

- أين اختفى صوتك الرنان؟ لماذا لا تصرخ بكل قوتك أن دانيال قد بعث حقا لينطق بكلمة الحق؟!

ولما وجد شيلوك أن يده قد غلت عن صدر أنطونيو، صاح يطلب ماله نقدا وعدا، ففرح بسانيو بهذا الخلاص وصاح:

- هاك ما تشاء! خذه حلالا لك!

ولكن بورشيا استوقفته:

- هذا ليس قانونيا، إن العقد شريعة المتعاقدين كما قال هذا اليهودي، فليس له حق إلا في الجزاء المنصوص عليه في الوثيقة، فاستعد يا شيلوك لقطع اللحم، ولكن حذار أن تريق الدم، واعلم أن من حقك رطلا واحدا لا يزيد خردلة ولا ينقص شعرة، وإلا حق عليك الإعدام بنص القانون وتصادر أملاكك لصالح مجلس الشيوخ.

فصرخ شيلوك أنه متنازل عن حقه المنصوص عليه ولكن بورشيا لم تتركه ينصرف وقالت وسط شماتة الحاضرين جميعا:

- أيها اليهودي، لم يزل في يدي سهم أرميك به، إن قوانين البندقية تقضي بوجوب مصادرة ثروتك وأموالك لصالح الدولة، لثبوت تآمرك على حياة واحد من رعاياها المسيحيين، فحياتك الآن تحت رحمة سمو الدوق، فهيا أركع على ركبتيك، وحاول أن تستلين قلبه بذكر مزايا فضيلة الرحمة والشفقة التي غاليت أمامه منذ حين في إنكارها والتنكر لها..

وأسقط في يد اليهودي، وركع متضرعا يسترحم الدوق الذي قال له:

- ستعرف الآن الفرق بين روحنا المسيحية وروحكم اليهودية.

كان القانون يجيز لنا إعدامك ومصادرة ثروتك كلها، ولكني أهبك حياتك، وأما ثروتك فإن نصفها حكمنا به لأنطونيو. والنصف الآخر للدولة.

فاهتزت طبيعة الكرم في أنطونيو وقال:

- إن لهذا اليهودي ابنة وحيدة حرمها من ميراثه، لأنها تزوجت رغم إرادته شابا مسيحيا من أصدقائي اسمه لورنزو، ولهذا أنا مستعد أن أتنازل لليهودي عن

حقي في نصف ثروته بشرط أن يتنازل أمام المحكمة عن هذا النصف لابنته وزوجها لورنزو.

ووافق اليهودي ولكن الصدمة كانت شديدة فأصابه الأعياء، وقال:

- لقد جئت شاكيا فخرجت مفلسا، وأشعر بتخاذل فاتركوني أعود إلى داري وأرسلوا الوثيقة لأوقعها هناك متنازلا عن نصف مالي لابنتي.

- انصرف ووقع الوثيقة، وأعلم أنك إن تبت عن قسوتك واعتنقت المسيحية ستصفح الدولة عنك وتسامحك في النصف الآخر من ثروتك.

وبعد أن فرغ الدوق من هذا الحكم أطلق سراح أنطونيو ورفع الجلسة ثم أثنى ثناء عاطرا على حكمة هذا المحامي الشاب وحصافته وسعة حيلته، ودعاه للغذاء على مائدته في القصر. ولكن بورشيا كانت تريد أن تسرع بالعودة إلى قصرها في بلمونت قبل عودة زوجها فاعتذرت بلباقة باضطرارها للسفر فورا، فغادر الدوق والشيوخ القاعة.

واتجه بسانيو إلى بورشيا قائلا:

- إنني وصديقي مدينان لك دينا لا يقدر بمال، ولهذا أتوسل إليك أن تتكرم فتتنازل بقبول الثلاثة آلاف دوقية التي كانت من حق اليهودي.

ورفضت بورشيا، ولكن بسانيو ألح، فقالت له:

- سأكتفي بشيء رمزي، أعطني قفازك ألبسه في يدي تذكارا منك.

فأسرع يخلع القفاز، فظهر خاتمها الذي كانت أعطته إياه فأقسم ألا يخلعه مدى العمر، وكان هذا الخاتم هو الذي ترمي للحصول عليه كي تتخذ منه موضوعا للعبث والفكاهة، ولهذا قالت له:

- وهذا الخاتم أيضا أقبله منك على سبيل التذكار.

فوقع بسانيو في حيرة كيف يرفض إعطاء خاتم لرجل أنقذ حياة صديقه من موت محقق ويرفض أن يتقاضى على ذلك أجرا وغمغم.

- إنه خاتم زوجتي وقد أقسمت لها ألا أخلعه ما حييت.

ولكني سأطلق من ينادي في أسواق البندقية على أثمن وأغلى خاتم فيها فأهديك إياه.

وتصنعت بورشيا الأشياء وغادرت المحكمة قائلة:

- إنك يا سيدي تعلمني كيف يكون جواب المتسولين؟

فقال أنطونيو لصديقه:

- أعطه الخاتم، واسمح لحبي وللخدمة الجليلة التي أداها لي أن تعدل كفتها أو ترجح قليلا استياء زوجتك.

فخجل بسانيو أن يظهر بمظهر الجاحد للمعروف، وأرسل جراتيانو وراء بورشيا بالخاتم، فطلبت بيريسا من جراتيانو خاتمه، وكانت قد أعطته إياه تقليدا لمولاتها، فقلد صاحبه وأعطاها الخاتم، وانصرفت السيدتان وهما تضحكان وتتصوران الموقف الغريب عندما يعود الرجال الثلاثة إلى بلمونت.

وبسرعة عادت بورشيا ونيريسا إلى قصر بلمونت، ولبستا ملابسهما العادية وجلستا تنتظران وصول الزوجين والصديق أنطونيو وتقدم بسانيو يعرف صديقه بزوجته، فرحبت به الترحيب المفروض، ولكن الترحاب قوطع بضجة حامية صادرة من ركن الحجرة، فإن نيريسا كانت تحاسب جراتيانو حسابا عسيرا على الخاتم الذي لم تجده في يده، فتصنعت بورشيا الجهل وسألت وصيفتها عن الخبر، فلما قالت لها الحقيقة وبخت جراتيانو، فصاح يدافع عن نفسه:

- لقد منحته لغلام هو كاتب المحامي الذي أنقذ حياة السنيور أنطونيو، فلما طلب مني كاتبه هذه الهبة حلاوة البشرى، خجلت أن أرده.
- لا عذر لك في التخلي عن خاتم هو هدية عروسك بعد أن أقسمت لها أن تحمله على الدوام آية على حبها وعهدك معها.

وأنا شخصيا أعطيت السنيور بسانيو خاتما، وأنا واثقة أنه لن يفرط فيه لأي اعتبار.

فتلقف جراتيانو هذا الكلام ليلتمس لنفسه عذرا:

- والسنيور بسانيو أعطى خاتمه للمحامي، فلما رأى كاتبه ذلك تجرأ وطلب مني خاتمي، أرأيت؟

فلما سمعت بورشيا ذلك تصنعت الغضب الشديد وراحت تلوم بسانيو لأنه فرط في خاتمها، ومن يرديها أنه لم يمنح الخاتم لامرأة من ساقطات البندقية كما سمعت نيريسا تتهم زوجها، فربما دخل الرجال حانة للاحتفال بكسب القضية، وأفرطوا في الشراب كما يفعل الرجال، وفي الحانات نسوة طماعات لما في أيدي الرجال.

فشقي بسانيو لاستياء زوجته الحبيبة شقاء شديد، وقال بكب جد:

- كلا، أقسم بشرفي أن خاتمي لم تأخذه امرأة، بل محام دكتور في القانون رفض أن يقبل ثلاثة آلاف دوقية ذهبا أجرا عن دفاعه المجيد، ثم طلب هذا الخاتم لأن منظره أعجبه يحتفظ به رمز تقدير، فماذا عساي كنت أفعل يا حبيبتي بروشيا؟ لقد اعتذرت له فانصرف مجروح الخاطر وهو يتهمني بنكران الجميل، وعندئذ أرسلت وراءه جراتيانو بالخاتم رغم أنفي، فسامحيني يا حبيبتي، فلو أنك كنت حاضرة بعد الذي فعله ذلك المحامي الضليع لكنت أول من يلح

على أن أعطيه ما طلبه.

فقال أنطونيو:

- وآسفاه! فأنا الذي تسببت في هذا الخلاف

فقالت له بورشيا:

- لا تحزن. واعلم أني أرحب بك رغم كل شيء

- لقد جازفت بجسمي وحياتي في سبيل بسانيو، ولولا ذلك الرجل الذي أعطاه زوجك الخاتم لكنت الآن ميتا، أؤكد لك أنه لو تعرضت روحي لا جسدي فحسب للضياع، فلن أسمح لزوجك بعد الآن أن يحنث بعهدك وبالقسم الذي أقسمه لك.

فقالت بورشيا وهي تمد يدها إلى أنطونيو بالخاتم:

- ما دمت أنت ضامنة، فأعطه هذا الخاتم الآخر بيدك أنت، ومره أن يحسن القيام عليه أكثر من سابقه.

فلما نظر بسانيو في الخاتم دهش دهشة عظيمة، وعرف فيه الخاتم الذي منحه للمحامي، وكان منظر حيرته أكثر مما تحتمله بورشيا فانفجرت ضاحكة، ثم أخبرته أنها كانت ذلك المحامي الشاب، وأن نيريسا كانت كاتب المحامي، وتأكيدا لهذا أبرزت نيريسا خاتم جراتيانو.

وهكذا أكتشف بسانيو وهو في دهشة ألجمته أن شجاعة زوجته النبيلة وحكمتها وذكاءها الوقاد هي التي أنقذت حياة أنطونيو.

ورحبت بعد ذلك بورشيا بأنطونيو مرة أخرى.

وعلى عادة شكسبير في كثير من رواياته كان لا بد أن يتم السرور تمام وراء

الآمال، فإذا ببورشيا تقدم لأنطونيو الرسائل التي وصلت باسمه وحصلت عليها في البندقية بطريقة ما، وفيها تقرير عن سفنه التي اعتبرت مفقودة، وكيف وصلت آمنة إلى شواطئ إيطاليا محملة بالأموال والخيرات.

وهكذا نسيت محنة ذلك اليهودي الجشع في غمرة الفرح والسرور، وكانت العوبة الخاتمين مصدر مزاح كثير ساعد على بث المرح اللازم لإحياء وليمة القران المزدوج، التي حالت قضية أنطونيو دون إقامتها في أوانها المرسوم.

سمبلين

كان الملك سمبلين يحكم بريطانيا في عصر القيصر اغسطس أمبراطور روما، وكانت الزوجة الأولى لهذا الملك قد ماتت وتركت له ثلاثة أطفال صغار: فتاة وغلامين أصغر منها. وكان اسم الفتاة الكبرى ايموجين. وقدر لايموجين دون أخويها أن تنشأ في بلاط أبيها الملك. أما أخواها فحدث أن سرقا بطريقة غامضة من الحجرة المخصصة لهما. وكان عمر أكبرهما في ذلك الوقت لا يزيد على ثلاثة أعوام أما أصغرهما فكان بعد طفلا رضيعا. وعلى كثرة ما بذله سمبلين من جهود وأبحاث ليعرف من الذي اختطفهما! أو ماذا حدث لهما! لم يصل إلى شئ.

وبعد وفاة زوجته الأولى، تزوج سمبلين من امرأة أخرى. وكانت الملكة الثانية امرأة شريرة، محتالة، شديدة الكيد وزوجة أب قاسية على ايموجين بنت سمبلين من زوجته الأولى.

وعلى الرغم من كراهية الملكة لايموجين، إلا أنها كانت راغبة في تزويجها من ابن لها انجبته من زوج سابق. فقد كانت أرملة يوم تزوجها الملك الأرمل.

وكانت تبغي بهذه الوسيلة أن تحقق هدفا شخصيا بعيدا، فبعد أن يموت الملك سمبلين تتمكن من وضع تاج انجلترا على رأس ابنها بحجة أنه زوج ابنة الملك. ما دام الملك ليس له ابن ذكر، وكان يطمئنها على نجاح ذلك التدبير، إن ابني الملك لا يعرف لهما مصير، فالأميرة ايموجين بذلك الاعتبار هي ولية العهد.

ولكن ايموجين قامت بنفسها بالقضاء على هذا الهدف، إذ تزوجت من غير

موافقة أبيها، بل من غير علمه أو علم الملكة.

* * *

والزوج الذي اختارته ايموجين لنفسها هو ليوناتس. وكان أكثر أهل زمنه تبحرا في العلوم وتحليا بالمزايا والسجايا التي تزين الرجل الكريم. وكان أبوه قد مات وهو يحارب تحت راية الملك سمبلين. وبعد ولادته بقليل ماتت أمه أيضا حزنا على وفاة زوجها الذي مات وهي حامل.

وأخذت الملك سمبلين الشفقة على هذا الطفل المسكين اليتيم الأبوين، فشمله برعايته وأمر أن يربي على نفقته وفي القصر.

وتلقى ليوناتس علومه الأولى على يد الأساتذة والمؤدبين أنفسهم الذين عهد اليهم بتعليم الأميرة ايموجين. فصارا رفيقي الدراسة، ورفيقي اللعب واللهو منذ نعومة أظفارهما.

وأثمرت تلك الظروف ثمرتها الطبيعية. فتبادلا وهما بعد في سذاجة الطفولة حبا رقيقا حانيا. ثم أخذت عواطفهما تنمو مع نمو عمرهما، فلما شبا عن الطوق عقدا زواجهما خلسة.

وكانت الملكة تبث العيون والأبصار على ايموجين وسائر من في القصر، فلم تلبث طويلا حتى عرفت هذا السر الخطير، فأغضبها ذلك وأحزنها لما خيب من آمالها. وأسرعت على الفور فأخبرت الملك نبأ زواج ايموجين وليوناتس.

وبطبيعة الحال بلغ غضب سمبلين غاية لا مزيد عليها عندما تأكد أن ابنته وولية عهده استهانت بسلطته الأبوية والملكية وتزوجت من غير علمه. وزاد من غضبه أنها تناست مكانتها العالية باعتبارها وارثة عرش بريطانيا العظمى، حتى رضيت أن تتزوج واحدا من رعاياها.

وعلى الفور أمر سمبلين ليوناتس أن يغادر الأراضي البريطانية، وحكم عليه بالنفي الأبدي عن وطنه،ولكن حيل الملكة لم تكن قد فرغت، فعمدت إلى تدبير جديد. وتصنعت الرثاء والعطف على الأميرة ايموجين، لما نكبت به من الحرمان من زوجها بقرار النفي. فقد منعت من اللحاق به إلى مدينة روما حيث اختار ليوناتس أن يقيم ما شاء الله له أن يظل منفيا عن بلده. فهيأت الملكة مكانا تلتقي فيه ايموجين بليوناتس سرا قبل أن يرحل إلى منفاه البعيد

وكان هذا العطف الظاهري الذي أبدته نحو ايموجين نوعا من التحايل لنجاح خطتها مستقبلا لخدمة ابنها كلوتن. إذ كان في نيتها أن تدخل في روع ايموجين بعد رحيل زوجها أن زواجهما لم يكن مشروعا. ولهذا فهو باطل قانونا، إذ عقد من غير موافقة الملك.

* * *

وكان الوداع بين ليوناتس وايموجين مؤثرا للغاية. وأعطت ايموجين زوجها خاتما من الماس كان من قبل يحلي يد أمها، فهو أعز ما ورثته عنها من التذكارات. وأما ليوناتس فوضع في معصم زوجته الأميرة ايموجين سوارا، وأوصاها أن تحتفظ به في حرص شديد، آية على حبها له وعربونا لحبه لها. ثم تبادلا تحية الوداع الحارة، ممزوجة بالعهود المغلظة أن يصونا حبهما في وفاء أبدي

وبعد سفر ليوناتس ظلت ايموجين في عزلة تامة، لأن غضب والدها الملك عليها جعلها سيدة منبوذة من الجميع. أما ليوناتس فوصل إلى روما سالما واستقر فيها متخذا منها وطنا ثانيا ربما إلى الأبد. وتعرف هناك بطائفة من الشبان محبي اللهو والمجون من جنسيات مختلفة. وكانت روما يومئذ عاصمة الدنيا، وتضم مجتمعاتها البارزين والوجهاء والأمراء من أجناس العالم المعروف يومئذ

وحين يجتمع الشبان كائنة ما كانت جنسياتهم، فالحديث المفضل لديهم هو

حديث النساء. وفي ذات ليلة وقد دارت الراح بالرءوس، أخذ كل واحد منهم يثني على نساء بلاده، ويخص بالثناء منهن حبيبته إن كانت له حبيبة، وحليلته إن كان ذا حليلة.

أما ليوناتس، فلم يكن في رأسه شئ عن النساء سوى اسم زوجته العزيزة ورسمها. فراح يؤكد لهم أن زوجته الأميرة الحسناء ايموجين هي بغير منازع أعظم نساء العالمين عفافا وفضيلة وحكمة وإخلاصا

وعز على ياخيمو الروماني ذلك الزهو الذي يرفع سيدة انجليزية فوق مكانة مواطناته الرومانيات، فأثار هدوء ليوناتس بأن ادعى الشك في حقيقة إخلاص تلك الزوجة له مهما اثنى عليها وآمن بوفائها. فما دام بعيدا عنها كل هذه الفراسخ، فليس من المعقول أن تظل مقيمة على عهده، وهي لا تأمل في أوبته قريبا

ونشب خلاف حامي الوطيس بين الشاب الانجليزي ليوناتس والشاب الروماني ياخيمو، كاد يصل إلى التماسك والتبارز، لولا أن حول الخلاف المسألة إلى رهان ودي. فوافق ليوناتس على اقتراح مؤداه أن يثبت ياخيمو صواب رأيه، بأن يذهب إلى بريطانيا، ويبذل جهده للظفر بوصال ايموجين. ويأتي معه ببرهان قاطع على نجاحه. فإذا لم ينجح ياخيمو في غرضه كان عليه أن يؤدي غرامة مبلغا ضخما من المال، اما أن استطاع أن يصل إلى قلب ايموجين وفراشها، وجاء منها بالعربون الذي وضعه ليوناتس حول ذراعها، فيجب عندئذ على ليوناتس أن يدفع إلى ياخيمو بالخاتم الماسي الثمين الذي كان هدية الحب من ايموجين له ساعة افترقا.

وكان ليوناتس واثقا كل الثقة من إخلاص زوجته ايموجين ووفائها، حتى أنه اعتقد تمام الاعتقاد أنه لم يجازف، وليس معرضا لأي خطر بتعريض شرفها وعفتها

للامتحان،ولما وصل ياخيمو إلى بريطانيا لقيته الأميرة ايموجين أحسن لقاء ورحبت به وسهلت له سبل الإقامة والضيافة، لأنه كان يحمل إليها رسالة تقديم من زوجها يخبرها فيها أنه صديق من أصدقائه المقربين في دار الغربة.

واطمأن ياخيمو أن الطريق ممهد، فشرع بعد ذلك يلقي على مسامعها عبارات الغزل والهيام. فنفرت منه وصدته بازدراء شديد. وسرعان ما وجد أنه لا أمل له في الوصول إلى أية درجة من درجات النجاح في هدفه الدنس.

ولكن عز على ياخيمو أن يخسر ذلك المبلغ الطائل فتتعرض ماليته للخراب. وعز عليه أكثر من ذلك أن يخسر سمعته في الغواية وفتنة النساء بين أقرانه من فتيان روما. وكان بريق الخاتم الماسي يستهوي عينيه فهو أن نجح ربح كل شئ من جميع الوجوه المعنوية والمادية. وإن خسر كانت خسارته مطبقة من كل وجه أيضا. فعمد إلى الحيلة كي يوقع في روع ليوناتس أنه ظفر من ايموجين بما انعقد حوله الرهان.

وتمكن ياخيمو من رشوة بعض القائمين على خدمة الأميرة ايموجين، فمكنوه من التسلل إلى مخدع نومها خلسة. وظل مختفيا داخل صندوق كبير من صناديق الملابس إلى أن آوت ايموجين إلى حجرتها وخلعت ثيابها، ودخلت الفراش ثم استسلمت للنوم..

ولما تيقن ياخيمو أن الأميرة نامت، خرج من الصندوق وجعل يفحص الحجرة بعناية شديدة ويسجل في ورقة بيده كل شئ وجده هناك مع صفته وشكله ولونه. ثم اقترب من فراش الأميرة، وراح يفحصها جيدا وهي نائمة، فلمح لحسن الحظ، والغطاء منحسر عن نحرها، خالا أسود بديعا بين عنقها وصدرها فسجل في الورقة موضعه. ثم عمد إلى السوار الذي في يدها فخلعه بخفة يد فائقة، وكان هذا السوار هو الذي أهداه إليها ليوناتس عند الوداع. ثم عاد

ياخيمو إلى مخبئه في الصندوق كما كان وأغلقه عليه إلى أن مكنه الخدم من التسلل خلسة إلى خارج القصر.

وفي اليوم التالي ركب ياخيمو السفينة مبحرا إلى روما.

* * *

وبعد رحلة طويلة وصل ياخيمو إلى روما. وفي مجمع الخلان حول الكؤوس، راحوا يستفسرون ياخيمو عن أنباء رحلته ومبلغ توفيقه فيها، وهم متشوقون إلى معرفة خاتمة ذلك التحدى الذي تتعلق به سمعة ياخيمو في الغواية وثروته، كما تتعلق به سمعة زوجة ليوناتس وشرفه، وكانت هذه هي الفرصة التي ينتظرها ياخيمو، فراح يتباهى بين ضجة الفتيان وسخريتهم بالنجاح الساحق الذي أصابه لدى هذه الأميرة الانجليزية التي يعتبرها زوجها قلعة منيعة للطهر والوفاء، وأخرج من جيبه السوار فرقعه في الهواء ليراه الجالسون وقال:

– هذا هديتك إليها، ضربت بعهودها لك عرض الحائط من أجل حبي وقدمته لي اعرابا عن شعورها بالسعادة معي بعد أن سمحت لي بقضاء ليلة كاملة في مخدع نومها.

وامعانا في النكاية والشماتة راح يصف ذلك المخدع:

– إن مخدعها أيها السيد مزين برياش وطنافس من الحرير والفضة. والقصة التي نقشت مناظرها حول الجدران هي قصة كليوباترا عندما التقت بمارك انطونيو وهي لوحات بارعة التصوير.

فقال ليوناتس:

– هذا الذي تقوله صحيح وينطبق تماما على وصف مخدع نوم زوجتي. ولكن من الجائز أنك سمعت هذه الأوصاف تتردد على ألسنة الخدم أو رواد القصر، ولم

ترها بعينيك.

فقال ياخيمو:

– والمدفأة. إنها في شمال الحجرة. والنقش الذي على واجهتها هو صورة ديانا وهي تستحم. ولم أر في حياتي منظرا أجمل صنعا منه.

– وهذا أيضا يا صاحبي شئ من الممكن أنك سمعت به، لأن هذه الروائع الفنية من تحف الصناعة التي يكثرون من الحديث عنها والإشادة بها بين صفوف الناس جميعا.

فوصف ياخيمو سقف الحجرة ونقوشه. ثم وصف التمثالين اللذين لكيوبيد، يغمزان بعينيهما، وقد صنعا من الفضة الخالصة، ووقف كل منهما على قدم واحدة، وأضاف:

– ثم ما قولك في هذه الحلية يا سيدي. انتزعت هذا السوار من ذراعها قائلة أنها كانت تعتز به يوما ما. ولكنها ستعتز به الآن أكثر وهي تعلم أنه في يدي.

ولما رأى ليوناتس قد لاذ بالصمت، استطرد، فضرب ضربته الكبرى، ووصف عنقها ونحرها، والخال الأسود الذي يزين ذلك النحر!

وكان ليوناتس يسمع الوصف من أوله وهو يغالب الشك، ويعاني صراعا داخليا عنيفا، فلما وصل ياخيمو إلى وصف الخال في ذلك الموضع المستور من بدنها، انفجرت مراجل غيرته، وصب سخطه على ايموجين، لاعنا نزق النساء وتقلب قلوبهن. ثم سلم الخاتم الماسي إلى ياخيمو، وهو الرهان الذي كان الاتفاق قد تم أن يخسره ليوناتس أن نجح ياخيمو في الحصول على حب ايموجين وعلى سوارها.

* * *

وجلس ليوناتس بعد ذلك وهو في سورة غضبه وغيرته فكتب رسالة إلى بيزانيو، وهو شاب انجليزي كريم المحتد من أفراد حاشية الأميرة ايموجين. وهو في الوقت نفسه صديق مخلص لليوناتس.. وبعد أن أخبره بالدليل المادي الذي وصل إليه عن خيانة زوجته له، رغب إلى بيزانيو أن يأخذ ايموجين إلى مرفأ مهجور منعزل في بلاد ويلز اسمه ميلفورد، وهناك يقتلها جزاء خيانتها.

وفي الوقت نفسه جلس فكتب إلى ايموجين خطابا خادعا، يطلب فيه منها أن تلجأ إلى بيزانيو وتتبعه حيث يذهب بها، لأنه أصبح لا يطيق الحياة من غير أن يراها. ومع أنه ممنوع من وضع قدمه على الأراضي الانجليزية وإلا أهدر دمه من غير محاكمة، إلا أنه قرر المجازفة بالنزول في مرفأ ميلفورد المنعزل خلسة، حيث يرجو أن تذهب إلى هناك مع بيزانيو ليتمكن من إطفاء شوقه إلى مرآها.

وتسلمت الأميرة البريئة المخلصة تلك الرسالة فلم يطف بذهنها أن تتشكك في صدقها، ولما كانت تحب زوجها أكثر من كل ما في الحياة، وكان شوقها إلى مرآه لا يعدله شوق، ولو جازفت في سبيل ذلك بحياتها أن علم أبوها الملك أو علمت الملكة من جواسيسها بأمر ذلك اللقاء، فقد أسرعت في صحبة بيزانيو، في الليلة عينها التي تلقت فيها رسالة ليوناتس.

ولما أوشكت رحلة الأميرة وتابعها على الوصول إلى غايتها وجد بيزابيو أن نفسه لا تطاوعه مهما يكن إخلاصه لصديقه ليوناتس، أن ينفذ ما أوصاه به من الجريمة. فهو ليس من الطراز الذي يعين صاحبه على الاثم والعدوان، لهذا كاشف الأميرة ايموجين بالأمر الفظيع الذي تلقاه من صديقه زوجها المنفى. وأنه لا لقاء هناك.

ووقع هذا الاتهام وقع الصاعقة على نفس الأميرة ايموجين. لأنها بدلا من أن تلتقي بزوجها الذي تحبه أكثر من حياتها فتسعد سعادة كادت تخرج بها عن

عقلها، وجدت نفسها وجها لوجه أمام تهمة نكراء تقشعر منها الحرة الكريمة.

وجعل بيزانيو يرفه عنها، ويتوسل إليها أن تصبر وتتماسك، وأن القدر ولا شك لن يتركها طويلا ضحية غش وريبة ظالمة، فيعرف ليوناتس الحقيقة ويندم على سوء ظنه وسوء تدبيره ندما شديدا. ولكن ايموجين أبت أن تتعزى عن مصابها.

ولما رفضت الأميرة أن تعود وهي بهذه الحالة إلى قصر أبيها، وأصرت أن تبحر خلسة إلى روما لتجابه الموقف وتجلو غوامض هذه التهمة الظالمة، نصح لها بيزانيو مادامت ستسافر بمفردها أن ترتدي ملابس الرجال زيادة في الحيطة لنفسها ورغبة في الأمان. فوافقته على رأيه، واتخذت تلك الثياب وسيلة لإطفاء شوقها وهي متنكرة إلى مرأى ذلك الزوج الذي مهما يكن من اساءته إليها فهي لا يمكن أن تنسى حبه وعهده.

وبعد أن زودها بيزانيو بالزي الجديد، تركها لمصيرها المجهول، إذ كان عليه أن يعود فورا إلى القصر حتى لا تقترن في الأذهان غيبته الطويلة باختفاء الأميرة. ولكنه قبل أن يفارقها أعطاها قنينة صغيرة، قال لها أن الملكة أهدته إياها كدواء لا نظير له لجميع العلل والاضطرابات، ولهذا الترياق المزعوم قصة. فإن الملكة كانت تكره بيزانيو لما تعلمه من صادق اخلاصه لايموجين ولليوناتس. فأعطته هذا الترياق المزعوم وهي تحسبه سما زعافا.

وكانت قد طلبت من طبيبها الخاص أن يعد لها ذلك السم القاتل، وزعمت له أنها تريد أن تجربه على بعض الحيوانات. ولكن الطبيب كان يعلم مبلغ ما فطرت عليه الملكة من الشر، فلم تطاوعه نفسه أن يضع بين يديها سما حقيقيا. وأعد لها هذا العقار الذي لا يتجاوز تأثيره تخديرا عاما يبدو معه الشخص كالميت بضع ساعات على الأكثر..

ولما كان بيزانيو يظن ذلك الترياق شيئا ثمينا نافعا جدا، فقد آثر به الأميرة ايموجين، لتستفيد منه إذا وجدت الاعياء قد سبب لها اعتلالا في رحلتها الطويلة.

ودعا لها بعد ذلك بالبركات، وأن تصل موفقة سالمة وتكتب لها السماء الخلاص من متاعبها التي لا تستحق منها شيئا، ثم فارقها عائدا إلى القصر، وبدأت هي سفرها بمفردها.

* * *

وساقتها الأقدار الغريبة إلى المقر الذي فيه أخواها اللذان خطفا بطريقة خفية في أول عهد طفولتهما، وكان الذي خطفهما هو بلاريوس، وكان لوردا في بلاط الملك سمبلين، ثم اتهمه الملك ظلما بالخيانة، وأبعده عن البلاط موصوما بالعار والنبذ. فانتقم من الملك باختطاف طفليه الذكرين، وجاء بهما معه إلى غابة بعيدة حيث أقام مختفيا في كهف صخري،ولئن كان قد اختطفهما بدافع الانتقام، إلا أنه سرعان ما تعلق قلبه بهما كأنهما ولداه، فأحسن تعليمهما والقيام على تربيتهما، ونشآ غلامين جميلين ذكيين، وقادهما ما في عروقهما من دماء زكية إلى ضروب من الشجاعة والإقدام تنم عن أصلهما الملكي.

وكانت أكثر الأعمال والرياضات حبا لديهما، هي الصيد والقنص. ففي الصيد يجدان مجالا للنشاط وإظهار البأس والقوة. وكانا لا يكفان عن حث والدهما المزعوم أن يتركهما يجربان حظهما في الحروب

وإلى الكهف الذي كان يقيم فيه هذان الشابان قادت الأقدار قدمي ايموجين. وكانت قد ضلت طريقها في غابة عظيمة تفصلها عن مرفأ ملفورد الذي انتوت أن تبحر منه إلى روما. ولما لم تجد في الغابة شيئا تأكله، عضها الجوع بنابه ونال منها الإعياء حتى أوشكت أن تموت. وتبين لها أن زي الرجال غير كاف لخلق رجل شديد الاصلاب جلد على المتاعب والأوصاب، من امرأة ناعمة

نشأت في الترف والدلال، فما إن رأت وهي في هذه الحالة ذلك الكهف الصخري حتى دخلت على أمل أن تجد فيها ساكنا من البشر يقدم إليها شيئا من الطعام.

ووجدت الكهف خاليا. فبحثت عن شئ تأكله، فوجدت لحما مقددا. وكانت وطأة الجوع قد اشتدت عليها فلم تستطع الصبر إلى أن يؤذن لها من أصحاب هذا الطعام بعد عودتهم، وجلست وشرعت تأكل وهي تحدث نفسها:

– آه! إن حياة الرجال شئ شاق حقا، فما أشد تعبي! لقد لبثت ليلتين متواليتين اتخذ من الأرض الصلدة فراشا لي، ولولا شدة عزيمتي لمرضت. وإني لأعجب لخداع المسافات. فعندما أشار لي بيزانيو على مرفأ ملفورد ونحن فوق قمة الجبل، كان يبدو لي المرفأ قريبا جدا!

ثم انتقلت خواطرها، وهي تأكل، إلى زوجها وإلى النية السيئة التي كان يبيتها للغدر بها، فتنهدت وقالت:

– يا عزيزي ليوناتس. إنك حقا لخسيس!

وفي هذه اللحظة كان أخواها المجهولان لها عائدين من صيدهما مع والدهما المزعوم وجادوال. ولا يعلمان عن حقيقتهما الملكية شيئا. بل مبلغ علمهما أن بلاريوس أبوهما. مع أن اسميهما الحقيقيين هما جويداريوس وارفيراجوس.

وكان بلاريوس هو أول الداخلين إلى الكهف. فلما رأى ايموجين استوقف الشابين ومنعهما من الدخول قائلا:

– لا تدخلا! لولا هذا الشخص المختفي يأكل من زادنا لحسبته جنيا، أو عفريتا.

– ما الأمر يا سيدي؟

– لقد رأيت في داخل الكهف ملكا. أو تمثالا حيا. من تماثيل الانس. فإن هذا

وسمعت ايموجين الأصوات صادرة من الخارج، فتوجهت إلى مدخل الكهف وبرزت منه قائلة:

– أيها السادة الكرام. لا تؤذوني. فإني قبل أن أدخل كهفكم كنت أنوي أن استجدي ما أكلت أو اشتريه. وأنا في الواقع لم أسرق شيئا. ولا ينبغي لي ذلك. مع أنني رأيت قطعا من الذهب ملقاة على الأرض. وهذا هو ثمن ما أكلت من اللحم، وكنت أنوي أن أتركه بجانب الصفحة الفارغة، ثم أرحل مستمطرة البركات على أهل المسكن.وأبوا أن يقبلوا منها النقود وأصروا على الرفض. فقالت:

– أراكم غاضبين علي. ولكنكم إن قتلتموني أيها السادة لهذا الخطأ، فاعلموا أنني كنت سأموت على كل حال حتى لو لم أقترفه!

فسألها بلاريوس مترفقا:

– إلى أين أنت ذاهب يا فتى، وما هو اسمك؟

– اسمي فيديل (ومعناها المخلص) ولي قريب كان قد رحل إلى ايطاليا، وكنت في طريقي إلى مرفأ ملفورد كي الحق به، فأعياني الجوع، وارتكبت هذا الذي أثار غضبكم ضدي.

– أرجو منك أيها الشاب الوسيم ألا تحسبنا من السفلة والأوغاد، أو تقيس عقولنا بالوضع الخشن الذي ترانا نعيش فيه. فأنت هنا على الرحب والسعة. وقد أوشك الليل أن يهبط علينا. فتفضل بقضائه معنا موفور الراحة والسرور قبل أن تستأنف السفر.

ثم أقبل الشابان عليها فرحبا بها أجمل ترحيب وقالا أنهما سيحبانها (أو على

حد تعبيرهما سيحبانه) كما لو كانت أخا لهما.

وفي داخل الكهف أتيا بغزال كانا قد وفقا إلى صيده، فأدهشهما هذا الغلام الوسيم الغريب ببراعته في أعمال الطهو وإعداد أفانين رائعة من ذلك اللحم لمائدة العشاء. فلئن لم تكن العادة في أيامنا أن تتدرب الأميرات وبنات العلية على تدبير المنزل وأعمال المطبخ، ففي ذلك الزمن السحيق كان هذا من أوليات تربية الفتاة الراقية.

وابتهج الشابان بهذا الطعام البديع، وأقسما أنه كفيل بشفاء العليل لو أصاب منه شيئا. وبعد ذلك أطربهما الغريب بغناء ساحر بأعذب صوت سمعاه، فهمس بوليدور لأخيه معجبا بهذا الغناء الرخيم. فقال له أخوه معلقا على ابتسامة الغريب:

إن ابتسامته عذبة حلوة، ولكنها تحمل آثار حزن عميق كأنه سحابة تخيم على جبينه المشرق. إن وراءه لسرا

ووجد الشابان أنهما يحبان هذا الغريب حبا لم يجرباه من قبل. ولعلها رابطة الدم تعطف القلب من غير وعي. وكذلك شعر فيديل أنه شديد التعلق بهذين الغلامين. حتى قالت لنفسها أنه لولا ما في قلبها من حب ليوناتس لتمنت أن تعيش وتموت في ذلك الكهف معهما، ورضيت بعد إلحاح يسير من الشابين أن تمكث معهما بضعة أيام إلى أن تستريح تماما مما تشعر به من تعب، ثم تستأنف بعد ذلك مسيرها إلى مرفأ ملفورد، ولما فرغ لحم الغزال كله، خرج الغلامان للصيد. وبقي فيديل في الكهف لشعوره بالتعب الشديد. ولا شك أن قسوة قلب ليوناتس كانت عاملا إضافيا في الشعور بالإعياء وثبوط الهمة اللذين أديا إلى مرضها

وانطلق الشابان وحدهما يتحدثان فيما بينهما بالثناء على خصال هذا الشاب.

وأما ايموجين فما أن تركت وحدها حتى تذكرت القنينة الصغيرة التي أعطاها إياها بيزانيو قائلا أن بها ترياقا لجميع الأوجاع، فشربتها، وخرت على الفور في سبات عميق أشبه بجمود الموت.

* * *

ولما عاد بلاريوس والشابان من الصيد، كان بوليدور أول من دخل الكهف، فظنها نائمة، فخلع حذاءه الثقيل حتى لا يزعجها بصوته وهو يمشي. فإن الحب علم هؤلاء الذين عاشوا في الغابة معنى الرقة واللطف. ولكنه لم يلبث أن فطن إلى أنه ما من حركة أفلحت في تنبيهها من نعاسها. فاستنتج أنها ماتت، وراح ينتحب عليها كأنها أخ له لم يفارقه لحظة منذ نعومة الطفولة.

واقترح بلاريوس أن يحمل الجثة إلى الغابة، وهناك تقام مراسم الجنازة بالأناشيد الدينية كما هي عادة تلك الأيام، وتولى أخوا ايموجين حملها إلى بقعة ظليلة. وهناك وضعاها برفق فوق العشب، وأخذا يغنيان بأنغام هادئة كي تستريح نفسها، وغطياها بعد ذلك بأوراق الشجر والأزهار. ثم قال بوليدور:

- ما توالى الربيع وكنت مقيما هنا، سآتي يا فيديل وانثر على قبرك الحزين الزهر والريحان. فإن الزهور على أشكالها تشبه نضرتك وجمال وجهك وصفاء جبينك وبشرتك. وعطرها يا فيديل ليس أطيب من أنفاسك الزكية. لهذا سآتي كل يوم وانثرها هنا فوقك. حتى إذا جاء الشتاء نثرت العشب الذي يشبه العهن، حتى يغطي قبرك، ما دام الشتاء لا يجود بالأزهار.

ولما فرغ ثلاثتهم من مراسم الجنازة انصرفوا باكين، ولم تلبث ايموجين في

موضعها ذلك طويلا، حتى أخذ تأثير ذلك العقار المخدر يذهب عنها، فاستيقظت، ونفضت عنها غطاء الأزهار والرياحين وأوراق الشجر، وانتصبت واقفة وهي تظن أنها كانت في حلم طويل. وقالت:

– رأيتني اشتغل طاهية لقوم يعيشون في كوخ. لقوم طيبين شرفاء. فكيف حدث أن صرت هنا مغطاة بالأزهار؟

ولما لم تستطع أن تتبين طريقها إلى الكهف، وليس لديها شئ يذكرها برفاقها سكان ذلك الكهف، ثبت لديها أنها كانت تحلم، وشرعت تستأنف طريقها الشاق نحو مرفأ ملفورد، على أمل أن تجد هناك سفينة وجهتها ايطاليا. فليس في ذهنها شئ سوى زوجها الغادر ليوناتس، الذي تنوي أن تصل إليه متنكرة في زي وصيف يلتمس الالتحاق بخدمة الميسورين والوجهاء على عادة ذلك الزمن.

بيد أن حوادث خطيرة كانت تجري في ذلك الوقت، وايموجين لا تدري عنها شيئا. فإن الحرب قد نشبت فجأة بين الامبراطور الروماني القيصر أغسطس، وبين سمبلين ملك بريطانيا. ونزل جيش روماني على شواطئ انجلترا كي يغزوها. واتفق أن تقدم ذلك الجيش الروماني وأوغل في تلك الغابة بعينها التي كانت ايموجين تخترقها. وكان ضمن من رافقوا ذلك الجيش من روما زوجها ليوناتس.

ومع أن ليوناتس حضر في رفقة الجيش الروماني، إلا أنه لم يكن يرمي في الحقيقة أن يقاتل في صفوف ذلك الجيش ضد بني وطنه. بل كان ينوي أن ينضم إلى الجيش الانجليزي ويحارب مدافعا عن قضية ملكه الذي أصدر أمره بنفيه.

وكان ليوناتس على اعتقاده أن ايموجين خانت عهده وغدرت به. وكان يعتقد أيضا أن صديقه بيزانيو نفذ رغبته وقتلها. فقد كتب إليه بيزانيو يزعم له ذلك. فاشتدت الهموم عليه وصار شديد الرغبة في ملاقاة الموت، وذلك ما جعله

يعود إلى بريطانيا. فإن فاته الموت في الميدان، فسوف لا يفوته الموت بأمر سمبلين لأنه خالف أمر النفي.

* * *

وقبل أن تصل ايموجين إلى مرفأ ملفورد وقعت في يد الجيش الروماني وهي في ثياب الشبان. وأعجب الرومان بهذا الغلام الجميل الطلعة فجعلوه وصيفا خاصا لقائد القوات الرومانية جايوس لوكيوس، وكان سمبلين يتقدم لملاقاة الأعداء. فلما دخل جيشه الغابة، انضم بوليدور وجادوال إلى جيش الملك ليحققا رغبتهما القديمة في ممارسة الحروب، وهما لا يعلمان أنهما سيقاتلان لمصلحة أبيهما بالذات.

وانضم إلى الجيش أيضا والدهما المزعوم بلاريوس. فقد اشتد عليه الندم لما أصاب سمبلين من حزن وأذى باختطاف ولديه. فوجد الفرصة مواتية كي يكفر عن جريمته بالدفاع عن هذا الملك، وليجدد ما عرف به في شبابه من قوة البأس والمهارة في القتال.

ونشبت معركة حامية بين الجيشين، وكان مقدرا للجيش الانجليزي أن يقهر، وأن يقتل الملك سمبلين، لولا الشجاعة الخارقة التي أظهرها في تلك الموقعة، ليوناتس وبلاريوس والشابان الصغيران. إذ أحاطوا بالملك فأنقذوا حياته في اللحظة الأخيرة، وكروا بعد ذلك فتغيرت نتيجة الموقعة، وفاز الانجليز بالنصر.

ولما انتهت المعركة، ولم يظفر ليوناتس بالموت الذي كان ينشده، أسرع يسلم نفسه لضابط من ضباط الملك سمبلين، عسى أن يأمر بقتله عقابا على عودته من المنفى، وكانت ايموجين وقعت في الأسر هي ومولاها القائد لوكيوس، وأتى بهما بين يدي الملك سمبلين ومعهما كذلك ذلك الوغد يا خيمو الذي كان قد انضم إلى الحملة ضابطا في جيش الرومان.

وأثناء مثول الأسرى أمام الملك، دخل الضابط ومعه ليوناتس كي يستصدر من الملك أمرا بتنفيذ الإعدام فيه حسب نص مرسوم النفي الصادر ضده، وفي هذه اللحظة الحاسمة أدخل بلاريوس ومعه ابناه المزعومان بوليدور وجادوال كي يتلقوا من يدي الملك سمبلين الأنعام الذي استحقوه لما أبلوه في ذلك النهار من بلاء جميل فأنقذوا حياة جلالته وقلبوا ميزان الحرب.

وكان بيزانيو حاضرا كذلك بصفته من أفراد حاشية الملك. فاجتمع بذلك في هذا المجلس جميع أبطال المأساة وقد تفاوتت مواقفهم وآمالهم ومخاوفهم أعظم التفاوت. فهناك ليوناتس المخدوع، وايموجين المتنكرة بصحبة مولاها القائد الروماني، والصديق المخلص بيزانيو، والصديق الغادر ياخيمو، وغلامان هما في الواقع نجلا الملك سمبلين، وبطل سينعم عليه الملك، وهو بلاريوس مع أنه هو بعينه سارق الأميرين الصغيرين منذ سنوات طويلة.

وكان القائد الروماني بحكم رتبته هو أول من تقدم. ووقف الباقون صامتين أمام الملك. صامتين بألسنتهم. أما قلوبهم فكانت تنطق صارخة بالكثير من المخاوف والآمال والرهبة والرغبة التكهنات.

رأت ايموجين ليوناتس. وعرفته على الفور. مع أنه كان متخفيا في زي الفلاحين. أما هو فلم يعرفها لأنها كانت متنكرة في زي الغلمان.

وعرفت ايموجين كذلك الوغد ياخيمو، ورأت في اصبعه ذلك الخاتم الماسي الذي ورثته عن أمها. ولكنها لم تكن تدري أنه هو صاحب تلك الخدعة وسبب تلك الكوارث. وكانت تعلم كذلك أنها وهي ولية العهد تقف الآن وقفة أسير الحرب بين يدي أبيها.

وعرف بيزانيو ايموجين. لأنه هو الذي كان قد أعد لها ذلك الزي. ففرح قلبه

لما أيقن أنها على قيد الحياة. ولم يكترث كثيرا لأنه وجدها واقفة في ذلك الموقف العصيب، وعرفها كذلك بلاريوس فهمس في أذن جادوال:

– أليس هذا هو الغلام فيديل؟ هل قام من الموت؟

– عجبا! إن حبة الرمل على الشاطئ لا تشبه حبة رمل أخرى، أكثر مما يشبه هذا الغلام الروماني الوسيم عزيزنا الراحل فيديل.

– بل إنه هو بعث إلى الحياة!

– مهلا مهلا! لو أنه كان هو لكلمنا أو أشار إلينا أنه يعرفنا.

وأما ليوناتس فوقف صامتا ينتظر سماع الحكم بإعدامه، وقد نوى ألا يكشف للملك كيف انقذ حياته في المعركة، حتى لا يرق له قلب سمبلين ويعفو عنه وهو راغب في الموت.

وكان القائد الروماني لوكيوس رجلا هماما مقداما، على نصيب من الشجاعة والنبل، فجاء خطابه للملك جديرا بهذه السجايا.

– سمعت أيها الملك انه ليس من خصالك أن تحتفظ بالأسرى وتطلب الفدية عنهم. بل تعرضهم على السيف جميعا ولا تبقى على أحد منهم. وإني رجل روماني. واعرف كيف ألقى الموت بقلب روماني. ولكن هناك مطلب واحد ألتمسه منك.

ثم جذب وصيفه الجميل فيديل من يده وأظهره للملك قائلا:

– إن هذا الغلام ليس رومانيا مثلنا. وإنما هو بريطاني وقع في يدنا أثناء الزحف. فاتخذته وصيفا لي. فأطلب منك أن تبقى على حياته،لأني لم أجد كما وجدت في هذا الوصيف، رقة القلب، والطاعة والحرص على أداء الواجب في جميع الظروف، مع الترفق والحنان كأنه مرضعة تحنو على طفلها. فلئن التحق بخدمة

روماني، فهو لم يصب بريطانيا بأذى. فابق على حياته على الأقل، إن لم يكن في نيتك أن تبقى على أحد سواه، فتفرس سمبلين في ذلك الوصيف الجميل. وهو بطبيعة الحال لم يعرف ابنته في ذلك الزي. بيد أن نداء الدم كان يصرخ في عروقه، فقال:

لا ريب عندي أني رأيت هذا الوجه من قبل. فهو يبدو مألوفا لي، ولا أدري ما الذي يدفعني الآن أن أخالف عادتي فأحفظ حياته، وإني أيها الغلام أمنحك حياتك، وأرخص لك أن تطلب مني أية منحة تشاء، فلن أرفض لك هذا الطلب. حتى ولو كان ما تطلبه هو حياة أنبل الأسرى الذين بين يدي الآن وأعلاهم مكانة.

فقال الوصيف:

- أشكر لجلالتك هذه المكرمة بكل خضوع.

وأرهفت الآذان بعد ذلك وخيم على مجلس الملك الصمت انتظارا لتلك الأمنية التي ستخرج من شفتي الغلام. وهمس القائد لوكيوس في أذن وصيفه الجميل قائلا:

- أنا لم أطلب حف حياتي يا غلامي العزيز. ولكني أعرف جيدا ما الذي ستتمناه الآن على الملك

فقال له الغلام متحسرا:

- كلا وا أسفاه! إن أمامي الآن ما هو أهم من هذا يا سيدي، فلن أستطيع طلب العفو عن حياتك!

فدهش القائد الروماني لهذا الذي بدا له نكرانا فاضحا للجميل. ولكن ايموجين لم تأبه لذلك وركزت نظراتها على ياخيمو، وقالت للملك أن حياته هي

الأمنية التي تتمناها عليه. فهي تريد اجباره ليعترف بالوسيلة التي حصل بها على ذلك الخاتم الذي في أصبعه.

وأجاب سمبلين تلك الأمنية فورا، فهدد ياخيمو بأشد التعذيب إن لم يعترف بكيفية وصول الخاتم الماسي إلى حوزته. فاعترف ياخيمو اعترافا كاملا بما كان من سفالته، وقص الحكاية بتفاصيلها من أول تلك المراهنة التي عقدت بينه وبين ليوناتس في روما. وكيف نجح في خداعه بعد ذلك وإدخال الغفلة عليه.

ويعجز القلم عن وصف السرور الذي نزل فجأة على قلب ليوناتس عندما سمع برهان براءة زوجته. واقتحم على الفور الطريق إلى أقدام الملك، واعترف له بالعقاب الذي كان قد أصدره ضد زوجته وكلف صديقه بيزانيو تنفيذه. ثم أخذ ينتحب ويضرب رأسه قائلا:

يا مليكتي ايموجين! يا زوجتي المظلومة! قتلتك ظلما!

فلم تستطع ايموجين أن تتحمل منظر زوجها الحبيب وهو في تلك الحالة التي يرثي لها، فكشفت القناع عن شخصيتها، وألقى ليوناتس نفسه على قدميها يبكي بدموع الفرح ويستغفرها، ولم يكن أثر ذلك كله في الملك سمبلين أقل مما هو في قلب ليوناتس وايموجين. فقد استرد ابنته المفقودة، وأعادها إلى مكانها السامي وريثة للعرش تجلس عن يمينه، وابنة محبوبة مشمولة ببركة أبيها، ولم يكتف بالغاء قرار النفي والاعدام الصادر ضد ليوناتس، بل واعترف به صهرا رسميا وزوجا لابنته، وأنعم عليه بألقاب التشريف، فانتهز بلاريوس لحظة الفرح العظيم هذه ليفضي باعترافه، واثقا أنه سيظفر بالصفح من وقدم بلاريوس الشابين بوليدور وجادوال إلى الملك سمبلين، وعرفه أنهما بعينهما ولديه المفقودين جويداريوس وارفيراجوس. فصفح سمبلين عن بلاريوس على الفور. فمن الذي يفكر في العقاب والموت في اللحظة التي يستعيد فيها ابنته وولديه، ويجدهما قد أظهرا في

الحرب بطولة نادرة، وانقذا حياته وهما يجهلان أنه أبوهما.

وبعد ذلك سنحت الفرصة لايموجين أن ترد الجميل لسيدها السابق القائد الروماني لوكيوس. ولم يتردد والدها الملك في العفو عن حياته عندما طلبته منه. وبوساطة ذلك القائد أمكن عقد صلح بين الرومان والبريطان، دام به السلام بين الدولتين سنوات طويلة.

وأما الملكة الشريرة، فإن اليأس الذي استولى عليها من نجاح تدبيراتها بالوصول بابنها كلوتن إلى العرش، بعد أن عاد الأميران نجلا الملك من زوجته الأولى، كان يأسا محطما ألزمها الفراش. ثم زاد لها القدر العقاب فقتل ابنها كلوتن في مشاجرة.

وبذلك ازدهرت آمال الفضلاء، ولقي الأشرار جزاءهم وفاقا أما ياخيمو فقد عاد إلى بلاده محطم النفس يأكل قلبه الندم والعار.

خير الأمور أحمدها مغبة

خلف برترام والده في ثروته ولقبه، وأصبح يدعى الكونت روسيون، وكان ملك فرنسا يحب والد برترام، فلما سمع نبأ وفاته بعث في طلب الابن كي يحضر فورا إلى البلاط الملكي في باريس. وفي نيته أن يغمر برترام اليافع برعايته الخاصة وعطفه السامي، من أجل ما كان يحمله من مودة للكونت الراحل.

وكان برترام يقيم مع والدته، الكونتس الأرملة، عندما حضر نبيل عجوز من رجال البلاط الفرنسي كي يأخذه إلى حضرة الملك.

وكان ملك فرنسا عاهلا مطلق السلطة. لهذا كانت الدعوة إلى البلاط مكتوبة في قالب تكليف ملكي، أو أمر سافر، لا يليق بأي واحد من الرعية مهما بلغ من سمو مقامه، إن يجسر على مخالفته. لهذا توجست الكونتس الأرملة من صيغة هذا الأمر الملتبسة، وخشيت أن يكون مقدمة لكارثة تحيق بابنها. فاغتمت وحزنت حزنا شديدا ولكنها لم تستطع أن تمنعه من السفر. وبكت لفراقه كأنها دفنت زوجها مرة أخرى في ذلك اليوم، وأمرت بإعداد العدة للرحيل فورا.

وحاول النبيل العجوز مندوب البلاط – واسمه لافي – أن يسري عن الكونتس هذا القلق، ويخفف عنها لوعة فقد زوجها الراحل وغياب ولدها عنها. فقال لها بأسلوب أهل البلاط المنمق الحافل بالكنايات:

– إن الملك يا سيدتي رقيق القلب جدا، وستجدين فيه لك زوجا يعوضك عن خسارة زوجك. وستجدين فيه الوالد نعم الوالد لابنك!

وكان لا يعني بهذا الكلام بطبيعة الحال سوى التعبير عن أمله في اهتمام

الملك بالشاب برترام اهتماما أبويا شديدا.

وقال لافي كذلك للكونتس الوالدة فيما حدثها به من أخبار بلاط الملك، إن جلالته أصيب أخيرا بمرض أسف له الجميع، وعجز الأطباء الملحقين بالبلاط عن شفائه منه. وانتهى رأيهم إلى إعلان عجزهم، وإن ذلك الداء لا يرجى منه شفاء، لأنه لا دواء له في معلوماتهم الطبية.

فلما سمعت الكونتس ذلك النبأ المحزن عن سوء صحة جلالة الملك تأثرت تأثرا شديدا، وأعربت لرسول الملك عن أسفها قائلة:

– إن هذه الآنسة هيلينا الموجودة معنا الآن. لو أن والدها كان على قيد الحياة لما شككت لحظة في قدرته على علاج جلالته وشفائه.

– مع احترامي للآنسة وسيادة والدها الراحل، يدهشني أن أسمع بطبيب من أطباء الأقاليم تفوق مهارته ما عهد في أطباء باريس وهم صفوة العلماء، وما عهد في أطباء البلاط وهم خلاصة الخلاصة بين الأطباء.

فأخذت الكونتس تسرد على مسامع لافي طرفا من سيرة هيلينا هذه. وكيف أنها البنت الوحيدة لطبيب نابه جدا هو جيرار دي ناربون. وكان صديقا لها وللكونت. فلما أدركه الموت، أوصاها بابنته خيرا، وعهد إليها أن تضمها تحت جناحها. فمنذ مات والدها وهي تعيش في كنف الكونتس.

وأخذت الكونتس بعد ذلك تطري مناقب هيلينا الممتازة، مؤكدة أنها ورثت تلك الفضائل السامية عن والدها الجليل.

وفي غضون هذا الحديث كانت هيلينا تبكي في حزن صامت. فاضطرت الكونتس أن تلومها على ذلك في رفق شديد، وتأخذ عليها إفراطها في البكاء على أبيها الراحل.

* * *

ودخل برترام على أمه يودعها. فودعته بدموع غزيرة ودعوات كثيرة، وعهدت به إلى عناية لافي قائلة:

– سيدي العزيز. كن له ناصحا. فهو لم يزل غفلا من تجارب حياة البلاط. فأرشده في كل أمر.

أما آخر كلمات برترام، فكانت موجهة إلى الحسناء هيلينا. بيد أنها كانت كلمات مجاملة عادية ليس إلا، تمنى لها فيها السعادة، ثم ختم توديعه الموجز لها بهذه الوصية:

– كوني مصدر الترويح والعزاء لوالدتي مولاتك، وأكثري من الاهتمام بها.

والحقيقة أن هيلينا كانت تحب برترام منذ زمن طويل. والدموع التي ذرفتها قبيل ذلك في حزن صامت، لم تكن حسرة على جيرار دي ناربون أبيها المتوفي. أجل إن هيلينا كانت تحب أباها. ولكن هذا الحب طمسه حب أعمق منه هو الذي يشغل قلبها في هذا الوقت، حتى أنساها ما كانت تحتفظ به في ذاكرتها من ملامح أبيها الفقيد، لأن مخيلتها تحتفظ به في ذاكرتها من ملامح أبيها الفقيد، لأن مخيلتها لم تعد تعمل في تكوين صورة إنسان اللهم إلا صورة برترام.

كانت هيلينا تحب برترام منذ زمن طويل. ولكنها كانت تذكر على الدوام من يكون هذا الحبيب. إنه الكونت روسيون، الذي ينحدر من أعرق الأسر الشريفة في فرنسا وأوغلها في التاريخ التليد المشرق. أما هي فمن أصل متواضع. ووالدها وذووها لا وزن لهم على الإطلاق. أما آله وآباؤه أجمعون فما منهم إلا شريف وابن شريف، تحوطهم الأمجاد، وتتوجهم الألقاب والرتب والمناصب، لذا كانت هيلينا تنظر إلى برترام في نسبه الرفيع نظرتها إلى سيدها ومولاها، الذي حل في موضع مولاها الكونت الراحل. وباتت لا تجسر على الاختلاج بأية رغبة تعدو

العيش في كنفه خادمة، وأن تحيا وتموت تابعة من تابعيه المخلصين

كانت الشقة بينها وبينه تبدو لها كما طالما عبرت عنها:

- إن برترام أعلى وأسمى من موضعي بكثير جدا، فكأنما حين أفكر في حبه، وأطمح إلى الزواج منه، أكون قد عشقت نجما ثاقب النور من نجوم السماء وهفوت إلى الزواج منه!

* * *

ولم تستطع هيلينا أن تتغلب على لوعة فراق برترام. فكانت عيناها تمتلآن بالدموع الغزار، وقلبها يفيض بالأسى والوجد

أجل إنها كانت تحبه بلا أمل. ولكن كان يعزيها ويبل غلتها -ولا شك- أن تكتحل بمرآه عيناها في كل ساعة. فتجلس ما شاءت تتطلع إلى عينيه العميقتين، وحاجبيه المقوسين، وخصلات شعره الأشقر المتموج، إلى أن يخيل إليها أنها نقشت صورته على صفحة قلبها. ذلك القلب الذي اشتدت رهافته فاستطاع أن يحتفظ في ذاكرته الوفية بكل خط لكل لمحة من ملامح هذا الوجه المحبوب

إن جيرار دي ناربون حين مات لم يترك لها ميراثا سوى بضع وصفات للعلاج من ابتكاره، جرب في تطبيبه نجاحها المحقق الناجع. وكانت هذه الوصفات هي خلاصة تجاربه الطويلة المستفيضة وتطبيقاته الدقيقة في مجال العلاج الطبي، فجمعها جمع الشحيح وادخرها ثروة لا تقدر بمال وأورثها ابنته عوضا عن الذهب والنسب، وكان من بين هذه الوصفات التي تحتفظ بها هيلينا، وصفة كتب أمامها أنها علاج صحيح مجرب للداء الذي ذكر لافي أن جلالة الملك كان يعاني من آلامه المبرحة ويذوي تحت ضرباته القاسية منحدرا إلى الهلاك.

ولما سمعت هيلينا من فم لافي أعراض علة الملك. خرجت على عادتها في

التواضع والاستكانة واليأس، وطرأ على ذهنها طموح زين لها أن ترحل بنفسها إلى باريس، وتتعهد بشفاء الملك من مرضه الوبيل.

وفت من عضدها أن ثقتها في ذلك العلاج لن تكون كافية لاقناع المحيطين بالملك أن يعهدوا إليها بتلك المهمة الجسيمة. ولاسيما أن أطباء الملك العظام أعلنوا استحالة شفائه. فكيف يمكن بعد ذلك أن يسلموا الملك إلى يدي فتاة فقيرة جاهلة، لا لشئ إلا لأنها تقدمت تعرض خدماتها حيث فشل أكابر العلماء

ولكن يظهر أن أمل هيلينا الراسخ في النجاح إذا سمح لها بالمحاولة، كان أرسخ مما يفرضه نبوغ أبيها مع أنه كان أمهر أطباء عصره. فإن اعتقادها كان جازما بأن طوالع السعد كلها تشد أزر هذا العلاج، لأنه التعويذة السحرية التي بها تصل إلى مقاليد السعادة والثراء، بل وتصل إلى منصب الكونتس، بالزواج من الكونت روسيون.

* * *

ولم يكن قد مضى وقت طويل على رحيل برترام حينما جاء وكيل دائرة الكونتس يخبرها أنه سمع هيلينا تكلم نفسها، وعجبت الكونتس الوالدة من هذا النبأ. ولكن عجبها ازداد حينما أخبرها وكيل الدائرة أنه فهم من بعض كلماتها المسموعة أنها عاشقة لبرترام، وتفكر جديا في اللحاق به بباريس.

وعلى عادة سيدات الطبقة النبيلة لم تظهر الكونتس انفعالها وصرفت وكيل الدائرة بعد أن شكرته، وطلبت منه أن يخبر هيلينا برغبتها في التحدث إليها في الحال.

وأهاجت هذه الأخبار التي سمعتها الكونتس عن هيلينا ذكريات قديمة مطمورة في ذهن الكونتس. لعلها تلك الأيام الجميلة التي اقترنت في باكورة شبابها

ببداية حبها لوالد برترام. فقالت لنفسها:

– نعم هكذا كان حالي حينما كنت صغيرة السن. فالحب شوكة لا نجدها إلا في ورد الشباب. ذلك أنه في موسم الشباب نقترف نحن أطفال الطبيعة تلك الأخطاء، ولكننا لا نظن ونحن في تلك السن أن ما نرتكبه من قبيل الخطأ.

وبينما الكونتس تفكر في أخطاء حبها التي حدثت أبان شبابها، إذا بهيلينا تدخل عليها. فقالت لها الكونتس:

– تعلمين يا هيلينا أنني منك بمثابة الأم.

فقاطعتها هيلينا قائلة:

– بل أنت مولاتي الموقرة

فاسترسلت الكونتس في إصرار:

– أنت ابنتي. وأقول لك أنني أمك. فلماذا تجفلين ويكفهر لونك لسماع هذه الكلمات؟

وكانت هيلينا مذعورة حقا، مشوشة الأفكار، لأنها خشيت أن تكون الكونتس مستريبة في حبها. وتحت هذا التأثير أجابت:

–عفوك يا سيدتي. إنك لست أمي. فالكونت روسيون لا يمكن أن يكون أخي. ولا أنا يمكن أن أكون ابنتك.

فقالت لها الكونتس:

– بلى يا هيلينا. يمكن أن تكوني ابنتي بالزواج. أي زوجة ابني. وأظن أنك كنت تنظرين إلى هذه الفكرة حينما أزعجتك كلمة أم وكلمة ابنة. فأصدقيني القول يا هيلينا. هل تحبين ابني؟

فذعرت هيلينا وقالت:

– عفوك يا مولاتي الصالحة!

فكررت عليها الكونتس السؤال بحزم:

– أتحبين ابني؟ أجيبيني؟

فقالت هيلينا في مراوغة:

– ألا تحبينه أنت يا مولاتي؟

فقالت لها الكونتس:

– لا تردي علي بهذه الصورة الملتوية يا هيلينا. هيا افصحي عن حقيقة شعورك. لأن حبك أعلن عن نفسه على أتمه.

فركعت هيلينا على ركبتيها واعترفت بحبها. وفي خزي ورعب توسلت إلى مولاتها النبيلة أن تصفح عنها

وأعربت للكونتس عن عميق شعورها، بعدم التكافؤ بين حالتيهما. وأنكرت أن برترام يعرف أي شئ عن حبها له.

وفي عبارات مؤثرة جدا أخذت تقارن حبها المتواضع اليائس بما يفعله فقير هندي حين يتعبد إلى الشمس. فهو يتطلع إليها بصلاته. أما الشمس فتشرق عليه وعلى ملايين سواه، من سمائها الشاهقة، ولا تدري عنه بعد ذلك شيئا!

وسألت الكونتس هيلينا:

– ألم تفكري أخيرا في السفر إلى باريس؟

وأخذت هيلينا لهذا السؤال، ولكنها اعترفت اعترافا كاملا بالخطة التي رسمتها في ذهنها، عندما سمعت لافي يصف مرض الملك. فقالت الكونتس:

– وهل هذا هو الدافع لك للرغبة في السفر إلى باريس؟ أهذا هو الدافع؟ أصدقيني القول

وأمام هذا الأمر قالت هيلينا بصراحة تامة:

– إن مولاي ابنك هو الذي جعلني أفكر في ذلك كله. ولولا هذا لما خطر لي أي شئ عن باريس أو الدواء، أو حتى جلالة الملك!

وأصغت الكونتس لهذا الاعتراف الكامل من غير أن تنطق بكلمة واحدة بالموافقة أو الاعتراض أو الملام. ولكنها راحت تدقق على هيلينا في الأسئلة بشأن موضوع واحد، هو احتمال نجاح ذلك الدواء في شفاء الملك.

واتضح للكونتس أن هذا الدواء بالذات كان أثمن ما يحتفي به جيرار دي ناربون من اكتشافاته الثمينة. حتى أنه لم يسلمه لابنته إلا وهو على فراش الموت.

وعند ذكر فراش الموت، تذكرت الكونتس ذلك اليمين المغلظ الذي أقسمته له عندئذ، وملك الموت يرف بجناحه في سماه الحجرة، أن ترعى ابنته الصغيرة، وبدا لها في هذه اللحظة أن مصير الفتاة ومستقبلها، بل وحياة مولاها الملك نفسه، تتوقف إلى حد كبير على تنفيذ هذه النية التي رسمت الفتاة خطتها.

وليس يقدح في هذه النية أنها اندفعت إلى التفكير فيها تحت تأثير حبها العذري. فالكونتس تعلم أن تصاريف العناية كثيرا ما تتخفى تحت أمثال هذه المصادفات. وأنه إن قدر للملك أن يشفى بتلك الوسيلة فسيكون ذلك ايذانا بتألق نجم ابنة جيرار دي ناربون وإقبال الثروة والجاه عليها.. وأمام هذه الاعتبارات الوجيهة مجتمعة، رخصت الكونتس لهيلينا أن تمضي في خطتها. ومنحتها مبلغا طيبا من المال، وهيأت لها معدات السفر بسخاء، وألحقت بخدمتها حاشية لائقة من الاتباع الخدم.

وهكذا رحلت هيلينا في طريق باريس مزودة بدعوات الكونتس وأرق تمنياتها لها بالتوفيق والفلاح

* * *

ووصلت هيلينا إلى باريس. فكان أول همها أن تزور النبيل لافي. وبمساعدته حصلت على الأذن بالمقابلة الملكية، وجعلت تفكر هيلينا بعد ذلك في المصاعب التي تعترض طريقها. فإن الملك ما كان ليقتنع بسهولة بجدوى تجربة الدواء الذي يقدمه إليه مثل ذلك الطبيب الجميل اليافع الأنثى!

وقالت هيلينا للملك أنها ابنة نابغة عصره جيرار دي ناربون وكان صيته البعيد قد وصل إلى مسامع كل إنسان حتى مسامع جلالته. وقدمت إليه هذا الدواء الثمين على أنه الذخر الغالي الذي استجمع فيه والدها خلاصة تجربته الطويلة ومهارته الفائقة.

وبلغت بها الجسارة أن قدمت عنقها ضمانا لذلك الدواء. فإن لم ينجح في رد العافية إلى جلالته في مدى يومين حق عليها الهلاك!

وأخيرا رضي الملك أن يجرب الدواء. وأكد عزمه على تنفيذ ذلك الشرط. فإن لم يتماثل للشفاء في يومين ضرب عنقها. وإن أفلحت، فإنه يعدها بشرفه الملكي أن يجعل لها حرية الاختيار المطلق في أن تنتقي أي رجل في فرنسا زوجا لها، ما عدا أمراء الدم الملكي. فإن اختيار زوجها بنفسها كان هو الأجر الوحيد الذي طلبته الطبيبة الشابة لشفاء الملك من علته المستعصية على العلاج.

* * *

ولم تكن هيلينا مخدوعة في الأمل الذي علقته على تأثير دواء والدها. فقبل انقضاء مهلة اليومين، كان الملك قد استرد صحته الكاملة، وجمع كل الشبان

النبلاء أعضاء بلاطه في قاعة العرش الكبرى. واتجه بعد ذلك إلى منقذة حياته قائلا:

– آن أيها الطبيب الجميل أن تحصل على جائزتك الموعودة، فانظري حولك أيتها العذراء الحسناء تجدي في هذا الحشد صفوة العزاب من نبلاء بلاطنا. تخيري منهم من شئت يكن لك بمشيئتنا بعلا

ولم تكن هيلينا بحاجة إلى طول إمعان لتدلي بنتيجة اختيارها. فمن بين هؤلاء النبلاء الشبان وقع نظرها على الكونت روسيون، فاتجهت نحو برترام وقالت:

– هذا هو الرجل يا مولاي

ووجهت القول إلى برترام:

– لا أجسر يا سيدي أن أقول بمشيئة الملك أضع يدي عليك وأتخذك زوجا. ولكني أقول أني أعطيك نفسي وخدماتي منذ بدأت أعيش تحت رعايتك القادرة.

فقال الملك على الفور:

– وماذا تنتظر أيها الشاب برترام؟ خذها إنها زوجتك!

ولكن الشاب برترام لم يتردد في إعلان رأيه صراحة للملك على ملأ من النبلاء. فقال له أنه ينفر من هدية جلالته التي قوامها فتاة تعرض نفسها. وهي ليست إلا ابنة طبيب، والطبيب يومئذ شئ مهين المكانة أشبه بالحجامين والحلاقين، وذكر للملك أنها ربيت على نفقة أبيه وفي كنف أمه. وتعيش الآن في خدمة والدته الكونتس عالة على مكارمها.

فلما سمعت هيلينا كلمات الرفض والنفور والازدراء من فم برترام على هذه الصورة، نسيت خزيها وصدمتها ولم تشعر إلا بالخوف على حبيبها من مغبة تلك

اللهجة الطائشة، فقالت للملك باسمه:

– لقد عوفيت يا مولاي. وهذا كاف لإدخال السرور على نفسي. فدع عنك كل ما عدا ذلك. لست أريد شيئا.

ولكن الملك ما كان ليرضى السكوت على مثل تلك الاستهانة بمشيئته الملكية. إذ كان من الامتيازات الراسخة لملوك فرنسا أن يزوجوا بارادة ملكية النبلاء والنبيلات.

ولهذا لم يأت مساء هذا اليوم حتى كان برترام قد تزوج هيلينا قسرا، زواجا لم يغتبط به الشاب، ولم يبشر الفتاة المسكينة بأي أمل في السعادة والرغد. فلئن حصلت بهذا الزواج على الزوج لنبيل الذي جازفت بحياتها كي تحصل عليه. إلا أنها فيما يبدو لم تحصد من هذا الزواج إلا ثمرة هزيلة، هي لقب فارغ. فإن حب زوجها لها لم يكن جائزة في مقدور ملك فرنسا أن يتحفها بها

* * *

وما إن انتهت مراسم الزواج، حتى رغب برترام إلى هيلينا في التوسل إلى الملك كي يمنحه إجازة بالتغيب عن البلاط. وقامت هيلينا بما طلبه منها زوجها. فلما عادت إليه بترخيص الملك له في السفر، قال لها برترام أنه لم يكن متهيئا لذلك الزواج المفاجئ. ولهذا هزه هزة عنيفة وعلى ذلك ينبغي ألا يأخذها العجب من الخطة التي سيسير عليها.

ولم يأخذ هيلينا العجب. بل أخذها الحزن والوجوم عندما اكتشفت أن خطته كانت تقوم على الابتعاد عنها. فأمرها أن تعود إلى قصر روسيون لتعيش مع والدته، فلما سمعت منه هيلينا هذا الأمر القاسي أجابته قائلة:

– سيدي. ليس عندي ما أرد به على قولك هذا سوى أنني خادمتك المطيعة تمام

الطاعة. وسأنفذ أوامرك بحذافيرها، فأعتزل في صحراء الوحدة التي لم تستطع طوالع سعدي العظيم أن تهيئ لي فيها نعيم الحياة البيتية

ولكن هذا التواضع من جانب هيلينا لم يحرك وترا في قلب برترام المتغطرس، فلم تأخذه الرأفة بزوجته الرقيقة، وفارقها من غير أن يؤدي إليها حتى ولا ما يجري به عرف التهذيب من مجاملات الوداع

وعادت هيلينا إلى الكونتس الوالدة بعد أن حققت الغاية الرسمية من رحلتها وأنقذت حياة الملك، بل وتزوجت سيد قلبها العزيز الكونت روسيون. ومع هذا فهي تعود إلى حماتها النبيلة سيدة منبوذة تعسة، وما إن وصلت إلى القصر ودخلت من أبوابه حتى تسلمت رسالة من برترام أوشكت أن تحطم قلبها تحطيما

استقبلتها الكونتس بترحيب قلبي، وكانت أنباء الزواج قد وصلت إليها. استقبلتها كما لو كانت زوجة ابنها بمحض اختياره لا فرضا اجباريا من الملك. وكما لو كانت سيدة رفيعة المقام عريقة النسب. وأخذت تتحدث إليها بعبارات الترفيه لتخفف عنها قسوة برترام إذ ردها إلى البيت مسرحة بالإزدراء في يوم عرسها، في رحلة طويلة وبمفردها

ولكن هذا الاستقبال الطيب لم يستطع أن يغسل الحزن والمرارة من قلب هيلينا، فقالت لحماتها:

– سيدتي. إن مولاي قد ذهب عني إلى الأبد!

ثم قرأت لها هذه السطور من رسالة برترام:

" عندما تفلحين في الحصول على الخاتم الذي في أصبعي، والذي لا يمكن أن أخلعه، عندئذ لك أن تدعيني زوجا، ولكن هذا لم يكون "

وعلقت هيلينا على ذلك بقولها:

– إنه لقول فظيع!

فجعلت الكونتس تتوسل إليها أن تصطنع الصبر.

– الآن وقد رحل برترام ولا ينوي أن يعود. يجب أن تكوني ابنة لي بمعنى الكلمة. وإنك عندي اسمى قدرا مما تظنين نفسك. إنك أهل أن تكوني زوجة لرجل ينحني له عشرون من أمثال هذا الغلام الفظ برترام، وينادونك في كل ساعة يا مولاتنا!

بيد أن هذا كله لم يأت بثمرة. لقد حاولت هذه الأم التي لا نظير لها أن تخفف عن آلام زوجة ابنها بالتواضع والإطراء والتملق الحنون. ولكن هيلينا ظلت شاخصة ببصرها إلى الخطاب، ثم صرخت كأنما تعاني آلام النزع:

" ما دامت ليست لي زوجة فليس لي في فرنسا شئ! "

فسألتها الكونتس:

– وهل هذا أيضا في الخطاب؟

فقالت هيلينا المسكينة بصوت خافت:

– أجل يا سيدتي

* * *

وفي صباح اليوم التالي اختفت هيلينا. وتركت وراءها خطابا ليسلم إلى الكونتس بعد رحيلها، تعرفها فيه بسبب غيابها الفجائي.

قالت لها في ذلك الخطاب أنها تأسف جدا إذ تسببت في هجر برترام لوطنه ومسقط رأسه وداره. ولكي تكفر عن هذا الذنب قررت أن تحج إلى قبر القديس جاك الكبير. وأن تلزم ذلك المنسك ما عاشت. ثم توجهت إلى الكونتس بالرجاء

أن تخبر ابنها أن الزوجة التي عافتها نفسها غادرت بيته إلى الأبد.

* * *

أما برترام فإنه بعد أن غادر باريس ذهب إلى فلورنسا. وهناك التحق بجيش دوق فلورنسا برتبة ضابط وكانت تلك الدوقية في حالة حرب. فأبلى برترام في هذه الحرب بلاء حسنا وأظهر بسالة في كثير من المواقع، وفي ختام هذه الحرب جاءت الرسائل إلى فلورنسا من والدته الكونتس تحمل التأكيدات بأن هيلينا لن تكدر صفو حياته بعد ذلك، إذ هجرت القصر إلى غير عودة.

وأخذ برترام يستعد للأوبة إلى والدته في مسقط رأسه، عندما وصلت هيلينا إلى فلورنسا وهي في مسوح الح، وكانت فلورنسا من البلاد التي يمر بها الحجاج حينما يقصدون إلى ضريح القديس جاك الكبير. فلما وصلت هيلينا إلى تلك المدينة سمعت أن أرملة ثرية مضيافة تقيم هناك. وأن من عادة هذه الأرملة أن تفتح بيتها للحاجات من النساء القاصدات إلى ضريح ذلك القديس. وفي بيتها يجدن المأكل والمأوى والسمر والترفيه

وإلى دار هذه السيدة الكريمة ذهبت هيلينا. فرحبت بها الأرملة ترحيبا عظيما. ودعتها لمشاهدة كل ما ترغب في مشاهدته من غرائب تلك المدينة المشهورة وطرائفها، وعرضت عليها السيدة فيما عرضت أن تأخذها لمشاهدة جيش الدوق من موضع يمكنها أن تلقي منه نظرة شاملة

-... وسوف يكون في وسعك أن تشاهدي فرنسيا من مواطنيك، اسمه الكونت روسيون، تميز عن سائر المحاربين ببسالته وإخلاصه في خدمة قضية الدوق بالسيف.

ولم تكن هيلينا بحاجة إلى إلحاح كي تصل إلى القاء نظرة على برترام، الذي

سيشترك في العرض العام للجيش.

* * *

وصحبت هيلينا مضيفتها الكريمة. والحق أنه كان من المؤلم لها جدا كما كان من المبهج لقلبها في الوقت نفسه أن تنظر مرة أخرى إلى وجه زوجها العزيز، في مثل هذه الظروف الغريبة.

وأشارت الأرملة إلى برترام وقالت تسألها:

– أليس رجلا وسيما؟

فقالت لها هيلينا بلهجة أصدق بكثير مما تظن الأرملة ..

– إني أميل إليه كثيرا

ولبثنا طول الطريق تتحدثان. أو بعبارة أدق لبثت الأرملة تتحدث طول الطريق وليس لحديثها سوى موضوع واحد هو برترام.. فسردت على مسامع هيلينا قصة زواجه. وكيف هجر السيدة المسكينة التي تزوجها بأمر ملكي. ثم هجر الوطن الذي أكرهه ملكه على ذلك الزواج. ودخل جيش الدوق ليتفادى معاشرة هذه الزوجة.

كان عذابا ممضا لهيلينا أن تستمع لقصة فشلها وخزيها. ولكنها تحملت ذلك العذاب بصبر ولبثت تصغي إلى أن انتهت الأرملة من تلك القصة القديمة، فتنفست هيلينا الصعداء، ولكن كان في جعبة الأرملة قصة أخرى عن برترام، سرعان ما بدأتها. وكانت كل كلمة من كلمات هذه القصة الجديدة تغوص كخنجر مسنون في فؤاد هيلينا.. لم تكن هذه القصة الجديدة التي أخذت ترويها لها الأرملة غير قصة حب برترام لابنتها الحسناء!

لم يكن نفور برترام من هذا الزواج الذي أجبره عليه الملك إجبارا ليدل على

عصمة برترام من سهام الحب، فمنذ أقام في فلورنسا ضابطا في جيش الأمير، وهو مدله بحب ديانا الشابة الجميلة ابنة هذه الأرملة التي استضافت هيلينا. وفي كل ليلة يصطحب معه لفيفا من العازفين على مختلف الآلات، حيث ينشدون الأغاني في إطراء جمال ديانا تحت نافذتها، استدرارا لحبها

وكان توسله الملح على ديانا أن تسمح له بالتسلل إلى مخدعها خلسة بعد أن تأوي الأسرة إلى مضاجعها. ولكن ديانا كانت تأبى أباء شديدا أن تجيبه إلى هذا الطلب الفاحش. بل ولا تشجعه بأي نوع من التشجيع على الاستمرار في غزله، منذ علمت أنه متزوج. فإن ديانا ربيت بعناية أم ساهرة. وتنحدر من نسب كريم ينتهي إلى أسرة كابوليت.

هذا كله أفضت به الأرملة الطيبة إلى هيلينا، مثنية أعطر الثناء على أخلاق ابنتها القويمة وفضيلتها الناصعة التي غرستها فيها بتربيتها ويقظتها.

ثم أردفت تقول لها أن هذه الزيارة الليلية المختلسة سوف يشتد الحاجة في طلبها لأنها آخر ليلة يقضيها في فلورنسا. إذ أعد العدة للرحيل عائدا إلى فرنسا في الصباح التالي.

* * *

وبالرغم من شدة حزن هيلينا عندما سمعت أنباء غرام برترام بابنة الأرملة. إلا أن عقلها الذكي سرعان ما احتضن هذه المسألة وخلق منها خطة بارعة لاسترداد هذا الزوج النافر الذي لم يدركها القنوط من التغلب على صدوده.

وباحت للأرملة بحقيقتها. وأنها هي هيلينا الزوجة التي نبذها برترام. وطلبت من مضيفتها الحنون ومن ابنتها أن تدبرا أمر تلك الزيارة التي يشتهيها برترام. وأن تسمحا لها بقضاء تلك الليلة معه على أنها ديانا وصارحتهما أن كل غرضها من

هذه المقابلة السرية هو الحصول من زوجها على خاتمه الذي قال إن امتلاكها له سيترتب عليه اعترافه بها زوجة اعترافا كاملا.

ووعدتها الأرملة وابنتها بالمساعدة في هذا الصدد. مدفوعتين بالعطف على حظها العابر. وطامعتين أيضا في المكافأة السخية التي وعدتهما بها، بعد أن دفعت إليهما مقدما بكيس متخم بالذهب.

وفي غضون ذلك اليوم دبرت هيلينا إرسال رسول مزيف إلى برترام يحمل إليه نعيها. وهي ترجو من وراء ذلك أن يجد نفسه قد تحرر من رباط الزوجية القديم، فيعرض عليها في الظلام الزواج منه وهي متسترة بقناع شخصية ديانا التي يهواها.

ومن المرجح أنه بعد ذلك الوعد يستجيب لها أن طلبت منه خاتمه علامة على الخطبة وعربونا للزواج. وهي وطيدة الأمل أن تستفيد مستقبلا من ذلك الوعد ومن هذا الخاتم.

وفي المساء، وبعد أن خيم الظلام، فتح الباب خلسة وتسلل برترام إلى حجرة نوم ديانا. وهناك كانت هيلينا في انتظاره مستعدة كل الاستعداد لاستقباله، وكانت عبارات غزله وأشواقه وهيامه التي وجهها إلى هيلينا جميلة الوقع جدا في أذنيها، مع أنها كانت تعلم علم اليقين أن ديانا هي المقصودة بها.

واستطاعت أن تجعل قلب برترام يطير بهجة وسرورا بتلك الليلة، حتى أنه وعدها وعزز وعده بالقسم أن يكون لها زوجا وأن يحبها إلى الأبد. فتنهدت وهي تتمنى أن يكون ذلك ارهاصا بعاطفة صادقة عندما يكتشف أنها كانت زوجته حقا، هيلينا المنبوذة، التي انتشى قلبها بحديثه الساحر.

* * *

والحقيقة أن برترام لم يكن قد تبين من قبل مدى ذكاء هذه السيدة، ونبلها.

وإلا لما أعرض عنها هذا الإعراض. ولاشك أن ألفته لها بالمشاهدة اليومية منذ صغره جعلته لا يفطن إلى حقيقة جمالها. فإن الألفة تذهب بالطرافة فلا نعرف بعد ذلك هل الوجه الذي ألفناه مليح أم عاطل من الحسن؟

أما ذكاؤها فكان من المستحيل عليه أن يتبينه، لأن إجلالها العميق لشخصه ومقامه كان يخرس لسانها دائما في حضرته.

أما الآن وقد أصبح مصيرها ومستقبلها والختام السعيد لخطط حبها، متوقفة كلها على مدى الأثر الذي تتركه في نفس برترام من تلك المقابلة الغريبة المختلسة في ظلام الليل، فليس من العجيب أن تشحذ قريحتها الوقادة كل الشحذ. كي تفتن برترام بحضور بديهتها، ولباقة نكتتها، ونعومة أساليبها وحسن تهذيبها. حتى أفتتن بها الشاب وأقسم ألا يتخذ غيرها زوجة ما عاش.

وانتهزت هيلينا الفرصة فطلبت منه الخاتم الذي في أصبعه عربونا على حبه. فبادر بخلعه ثم أعطاها إياه، وفي مقابل ذلك الخاتم أعطته خاتما من عندها كان الملك قد خلعه من يده وأعطاها إياه هدية من ضمن هداياه

وقبل بزوغ النهار صرفت برترام من عندها. ومن هناك شد الرحال على الفور عائدا إلى وطنه ووالدته.

* * *

وتوجهت هيلينا بالرجاء إلى الأرملة وابنتها ديانا أن تسافرا في صحبتها إلى باريس. ذلك أن مساعدتهما لها بالسفر معها كانت أمرا ضروريا لنجاح الخطة التي رسمتها نجاحا مضمونا، وقبلت السيدتان بعد أن طمعتا في مكافأة جزيلة تعتدل بها أمورهما المالية بعد اضطراب شديد على أثر وفاة رب البيت

ولما وصلت هيلينا إلى باريس توجهت على الفور إلى القصر الملكي حيث

كانت لها الحظوة والمكانة منذ تم شفاء الملك على يديها وهناك قيل لها أن الملك في إحدى رحلاته.. وكم كان سرورها عظيما حينما علمت أنه في هذه الرحلة يؤدي الزيارة للكونتس روسيون اعترافا بفضلها في شفائه. فتبعت هيلينا الملك إلى هناك بأسرع ما استطاعت سنابك الجياد أن تحملها.

وكان الملك لم يزل في أتم صحة. واعترافه بجميلها لم ينقص قيد خردلة عن يوم شفائه. ولهذا ما أن رأى الكونتس روسيون الوالدة حتى انطلق يحدثها عن هيلينا، ويدعوها بالجوهرة الثمينة النادرة التي أضاعتها حماقة ولدها سدى.

ولكنه لما رأى ذلك الموضوع يثير شجون الكونتس، بعد سماعها النبأ المكذوب عن وفاتها، قال لها:

–يا سيدتي الفاضلة. إني صفحت ونسيت كل شئ.

وكان لافي العجوز الطيب القلب حاضرا ذلك الحديث. فعز عليه أن يقول الملك ولو على سبيل المجاملة أنه نسي بهذه السرعة ذكرى هيلينا التي أنقذته من الموت. فإذا كان اليوم حيا، فذلك لأنها رحلت إليه بالدواء الناجع بعد تمام اليأس من علاجه. لهذا انبرى يقول للملك:

–إن من واجبي أن أشهد بالحقيقة. وهي أن ذلك السيد الشاب ارتكب إهانة خطيرة لصاحب الجلالة ولوالدته ولزوجته. ولكن ذلك كله ليس شيئا بالقياس إلى الأذى الذي ألحقه بنفسه، لأنه فقد زوجة كان جمالها يبهر جميع العيون. وكانت ألفاظها تأسر جميع الأسماع. وكمالها التام يجتذب جميع القلوب ويجعلها مشوقة لخدمتها.

فقال الملك:

– إن الثناء على ما فقدنا يجعل ذكراه عزيزة علينا. وقد سمعت أن هذا الشاب

عاد إلى هنا بعد وفاة زوجته. احضروه إلى هنا.

وفي الحال جئ ببرترام فمثل بين يدي الملك وأخذ يعتذر لجلالته معربا عن أسفه العميق للأخطاء التي اقترفها في حق المرحومة هيلينا، وفي حق الملك. فغفر له الملك وصفح عنه إكراما لذكرى والده الجليل وإكراما لخاطر والدته الفاضلة. وأعادة إلى التمتع بعطفه وحظوته كما كان.

وظن برترام أن مشاكله كلها قد انتهت. ورفع يده بالدعاء للملك. وإذا بسحنة الملك تتغير من النقيض إلى النقيض، لأنه لمح في أصبعه خاتم جلالته الذي كان قد منحه لهيلينا. وكانت هيلينا قد أقسمت بكل عزيز عليها وبجميع القديسين في السماء أن يشهدوا أنها لن تخلع هذا الخاتم من يدها إلا لكي تبعث به إلى الملك نفسه حينما تحل بها كارثة من الكوارث العظمى كي يتولى جلالته الانتقام لها.

وسأله الملك في حزم كيف حصل على هذا الخاتم؟.. ولم يشأ برترام أن يعترف للملك بالحقيقة، لأنه إن قال إن التي أعطته هذا الخاتم سيدة أدخلته مخدعها في الليل خلسة ومكث معها إلى الصباح لن يستطيع بعدها أن يطلب من الملك الإذن له بالزواج من تلك السيدة عينها. فاخترع للملك على الفور حكاية مرتجلة. وزعم لجلالته أن سيدة قذفت به إليه من النافذة وهو سائر في الطريق.

ولما سأله الملك صراحة هل أخذه من هيلينا، أقسم أنه لم ير هيلينا مطلقا منذ يوم زواجهما.

ولما كان الملك يعرف تمام المعرفة ما يضمره من كراهية لزوجته، فقد ارتاب جلالته في الأمر. وخشي أن يكون برترام هو الذي قتل هيلينا ثم طمع في الخاتم النفيس فسلبه منها، وبدا هذا الرأي مرجحا لدى الملك، فأمر حرسه الخاص

بالقبض على برترام وقال موضحا لوالدته:

- لابد لي من استجلاء هذا الموضوع فإن خواطر السوء تزحم رأسي. وأخشى أن تكون حياة هيلينا قد انتزعت منها عنوة.

وفي هذه الآونة بالذات دخلت ديانا ووالدتها، وقدمتها ملتمسا إلى الملك تطلبان منه فيه أن يستخدم سلطته الملكية لإجبار برترام على الزواج من ديانا لأنه أقسم لها أن يتزوجها.

وخشي برترام أن يزداد موقفه سوءا، ويشتد عليه غضب الملك، فأنكر صدور ذلك الوعد منه، وعندئذ أبرزت ديانا الخاتم الذي أعطته إياها هيلينا لذلك الغرض إثباتا لصدق دعواها.

وأردفت ديانا بعد ذلك أن الخاتم الذي في يد برترام هي التي أعطته إياه في مقابل خاتمه هذا عندما تعهد أن يتزوجها.

فلما سمع الملك هذا الكلام أمر حراسه بالقبض عليها أيضا. فإن روايتها المخالفة لرواية برترام عن الخاتم أكدت شكوك الملك. وأقسم جلالته أنهما إذا لم يعترفا بكيفية وصول هذا الخاتم الذي هو خاتم هيلينا إليهما، فسيأمر بإعدامهما معا.

وعندئذ توسلت ديانا إلى الملك أن يسمح لوالدتها بإحضار الجوهري الذي اشترت منه ذلك الخاتم. فسمح لها الملك بذلك وعلى الفور خرجت الأرملة وعادت في الحال وفي صحبتها هيلينا.

وكم كان سرور الكونتس الوالدة عندما رأت هيلينا العزيزة أمامها على قيد الحياة، وهي التي كان الحزن الصامت قد هد كيانها عندما أبصرت خطر الإعدام يتهدد ابنها. وكانت في الوقت نفسه تخشى أن يكون شك الملك فيه صائبا،

وألقت هيلينا بنفسها عند قدمي الملك الذي لم يكد يصدق عينيه من شدة الفرح فصاح قائلا:

- هل هذه حقا هي زوجة برترام التي أراها أمامي؟

فتذكرت هيلينا أنها زوجة لم يعترف بها زوجها وأجابت:

- كلا يا مولاي. بل من تراها ليست إلا شبح تلك الزوجة لها منها الاسم وليس لها منها المسمى.

وكان الخوف قد بلغ من برترام مبلغه فأسرع يصيح:

- بل كليهما معا! الصفح الصفح!

فالتفتت إليه هيلينا قائلة:

- إن أمرك لعجيب يا سيدي. تزعم الزهد في زوجتك. مع أنني حينما مثلت في الظلام هذه الآنسة وجدت منك أعجب العجب في الهوى والشوق. وإن كنت لا تذكر فهذا خطابك!

ثم راحت تقرأ في لهجة السرور والانتصار تلك السطور التي قرأتها يوما بكل أسى:

- عندما تأخذين هذا الخاتم من أصبعي أعترف بك زوجة.

ثم أردفت بعد ذلك:

- وقد حدث هذا. أنت أعطيتني الخاتم بنفسك في تلك الليلة وأنت تظنني ديانا. فهل تمنحني نفسك الآن بعد أن ربحت حقي مرتين؟

فأجابها برترام قائلا:

-لقد كانت السيدة التي نعمت بالسمر معها تلك الليلة رائعة حقا. فإن

استطعت أن تقيمي الدليل على أنك كنت تلك السيدة، فسأحبك بكل اعزاز إلى آخر يوم من عمري.

ولم يكن هذا بالأمر الصعب المنال، فإن الأرملة وديانا حضرتا من فلورنسا مع هيلينا بقصد إثبات هذه الواقعة بالذات

وسر الملك كثيرا من المعاونة الكريمة التي بذلتها ديانا لعزيزته هيلينا التي لا ينسى خدماتها الجليلة له. فوعد جلالته ديانا بزوج نبيل وبائنة كبيرة. جريا على التقليد الذي استنته هيلينا بأن خير ما ينعم به الملك على آنسة من مكافأة، هي الزوج النبيل

وهكذا تحققت هيلينا في النهاية أن تركة والدها العلمية كانت تلحظها عناية طوالع السعد، لأنها أصبحت الزوجة الحبيبة لعزيزها برترام. والكنة المقربة من مولاتها النبيلة. وأصبح اسمها حقا وواقعا السيدة الشريفة عالية المقام الكونتس روسيون.

الفهرس